مراتب الهداية وفقه الاستخلاف في سورة الكهف

من عزلة المرتفقين إلى تمكين ذي القرنين

تمهـــــــــــــــــــــــــــــــــيد :-

تجدر الإشارة أن المشيئة ذكرت في هذه السورة في أكثر من موضع ، بمناسبة أن أهل الكتاب حاججوا النبي ﷺ في قصة أهل الكهف وذي القرنين فأخبرهم النبي ﷺ بأنه سوف يجيبهم ونسي أن يقدم المشيئة ، وكذلك ذكرت المشيئة في قصة صاحب الجنين لما لم يستثن ، وفي قصة موسى مع الخضر لما قال (ستجدني إن شاء الله صابرا) ، وفي قصة ذي القرنين لما عندما ينسى يأجوج ومأجون أن يقدموا المشيئة في خرق الجدار ، حتى إذا (أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى)[1].

وقد جاء في سبب نزول هذه السورة أن قريشًا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة المنورة؛ ليتأكدوا من صدق نبوة الرسول ﷺ . فقالت لهم الأحبار" :سلوه عن ثلاثٍ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل:"

فتية ذهبوا في الدهر الأول (أصحاب الكهف)

رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها (ذي القرنين)

عن الروح ما هي؟

وعندما سألته قريش، قال النبي ﷺ " :أُخبركم غداً بما سألتم عنه" ولم يستثنِ (أي لم يقل: إن شاء الله .(فاحتبس عنه الوحي خمس عشرة ليلة، حتى حزن الرسول ﷺ وأرجف أهل مكة به. ثم نزل جبريل عليه السلام بسورة الكهف لترد على أسئلتهم، وتوضح سبب احتباس الوحي. [2]

كما بيّنت السورةُ الكريمة أنَّ حالَ المؤمنِ الملتَمِسِ هُدى اللهِ في هذه الدنيا يدورُ بين مسارَيْن :-إمّا اعتزالٌ لباطلِ الكفرِ وصيانةٌ للدِّين، وإمّا ثباتٌ في مَيادينِ الجهادِ ضدَّه.

ثم نرى مدى تبايُنَ أحوالِ الخلقِ في الارتفاقِ والاتّكاء؛ عندما نقارن بين موقف من يَرتفِقُ بالكهفِ عُزلةً وفراراً بدِينه، ومن يَركنُ إلى الدُّنيا ومَتاعِها فلا يَقوى على كَبَدِها، لِيَنتهي به المآلُ مقلِّباً كفَّيْهِ حسرةً وندامة.

كما لاحَ في سِياقِها ارتفاقُ موسى—عليه السلام—بِبَعضِ زادِهِ وغدائِهِ في رحلةِ طلبِ العلم، وفي ذلك إشارةٌ بليغة إلى مَسِيسِ حاجةِ السَّائرِ إلى البُلْغَةِ والزَّاد؛ فَكُلَّما خَفَّ زادُ المرءِ تجرَّدَ وعَظُمَ عزمُه، وكلَّما استغرقهُ الانشغالُ بالفضولِ تَقاعَسَتْ هِمَّتُه عن مُواصَلةِ السَّفَر.

ولم يكن ذو القرنين—على عِظَمِ مُلكِهِ—بِمَعْزِلٍ عن طلبِ المدَد، فالإنسانُ مَهمَا بَلغَ شَأوُهُ من القوةِ والتمكينِ يَظلُّ قاصراً بِمُفرَدِه، مُحتاجاً إلى تضافُرِ الجُهودِ وإعانةِ غيرِه، وهو ما تجلَّى في قوله: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)؛ لِيُبرهِنَ على أنَّ النَّهضةَ بالأمَّةِ ودَفْعَ بَأْسِ أعدائِها يَقومانِ على العملِ الجماعيِّ والمشروعاتِ الكُبْرى.

هكذا تَفتَحُ سورةُ الكهفِ للمُتدبِّرِ آفاقاً رَحِبةً، كُلَّما وَلَجَ من أحَدِ أبوابِها، أبْصَرَ سِرّاً مَكنوناً، وعَجَباً عُجاباً يُبْهِرُ العقول.

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 428 رقم 3078 وصححه الألباني ج3 ص 73 رقم 2520

[2]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70 ذكره عن ابن عباس

محاور سورة الكهف

مقدمة السورة (الكتاب قيما) و(الأرض زينة)

- قصة أصحاب الكهف
- تعقيب على القصة وأمر بالصبر مع المؤمنين
- قصة صاحب الجنتين
- تعقيب على القصة وتهوين من شأن الدنيا وذكر مشاهد من الآخرة
- أسباب الإعراض عن الذكرى
- قصة الخضر وموسى
- قصة ذي القرنين

خاتمة السورة

مقدمة سورة الكهف

(الكتاب قيما) و(الأرض زينة)

قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي **أَنْزَلَ** عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ **عِوَجًا** (1) **قَيِّمًا لِيُنْذِرَ** بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ **وَيُبَشِّرَ** الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) **وَيُنْذِرَ** الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ **كَبُرَتْ** كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ **بَاخِعٌ** نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ **زِينَةً** لَهَا **لِنَبْلُوَهُمْ** أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا **جُرُزًا** (8)

قال ﷺ (فمن أدركه منكم يعني الدجال فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف)[1] .وقال ﷺ (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال) [2] . وقد أشار الطيبي لمعني وفائدة تناسب هذه العصمة مع السورة ، (أن الله كما عصم الفتية من بغي قومهم عليهم ، فكذلك يعصم من يقرأ سورة الكهف من الدجال)[3] فهو باغي آخر الزمان ، ولعل المقصد من تخصيص العشر الأول بالفضل أن فواتح سورة الكهف جمعت مقاصد السورة كلها .

فقد بدأت هذه الافتتاحية ، بحمد الله تعالى على أعظم نعمة أنعم بها على البشرية، أن أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب (القرآن الكريم) كأعظم نعمة ، ويتميز بأنه : خالٍ من التناقض والخطأ والميل، بل هو مستقيم في أحكامه وتشريعاته وأخباره. ووصفه بأنه" **قَيِّمًا** "أي: قائم بمصالح العباد في الدين والدنيا، ومستقيم لا يحيد عن الحق. ومبينا وظيفته بأنها: **الإنذار بعقاب من خالف والبشارة** بالخلود لمن آمن وعمل صالحا .

ثم تكرر الإنذار في المطلع نفسه تأكيدًا وتشديدًا ليخص بالذكرِ الذين قالوا (اتخذ الله ولدا) صلفًا وبُهتانًا، دحضًا لعقيدتهم الباطلة التي لا دليل عليها لا من علم وإنما هو تقليد أعمى لآبائهم ، وكاد النبي ﷺ يهلك نفسه أسفا وحزنا على هؤلاء أنهم لا يصدقونه ويؤمنوا بما هو كذب وافتراء على الله .

ثم جاءت المقدمة بفقرة مكملة لما سبق ، موضحة **طبيعة الدنيا وزخرفها وأن** حكمة الوجود **فيها هي الابتلاء"لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" ثم الفناء ، "وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا"** ، فالدنيا لابد وأن تفنى ، ويفنى ما عليها ، من هنا استبان أنها لا تعدل شيئا ، فإذا كان ابتلاء الله لعباده بها ، فقد سهل الابتلاء على من سهله الله عليه . فمَنْ أدرك أنَّ حقيقتَها ابتلاءٌ واختبار، هانَ عليه الخطْبُ، وتيسَّر عليه الصبرُ بمعونةِ الله وتوفيقه

قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) بدأت مقدمة السورة بالحمد لله على نعمة إنزال (الكتاب) وهو القرآن الكريم على عبده ونبيه محمد ﷺ ، فالحمد لله على نعمة الإسلام التي كفت بالمرء شرفاً ورفعة، قال سبحانه (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام/161)

---

1) رواه مسلم
2) رواه مسلم
3) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج7 ص 198 رقم 2146

فالحمد هو استغراق القلب في الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة، والثناء عليه بأسمائه وصفاته جموداً وحركة.وهو رأس الشكر . فالعبد لا يصل إلى كمال مقام العبودية حتى يرى منة الله عليه في كل شيء ، فيلهج لسانه بالحمد حباً لا مجرد عادة.

ومقام الحمد من أعظم المقامات ، فعن عمران بن حصين قال رسول الله ﷺ (**إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمادون**)[1].أي (الذين يكثرون حمده أي الثناء عليه على السراء والضراء)[2]. لأن الله لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا وكان خيراً له، فهو سبحانه محمود على عدله ومنعه كما هو محمود على فضله وعطائه.

ويقوم الحمد على ثلاثة أركان لا يصح بدونها :-

الحمد بالقلب :وهو خضوعه، ومحبته، ومعرفته بالنعم.

الحمد باللسان :وهو الثناء على الله، والتحدث بنعمه، والاعتراف بها.

الحمد بالجوارح :وهو الانقياد لطاعته، واستعمال النعم فيما يرضيه[3].

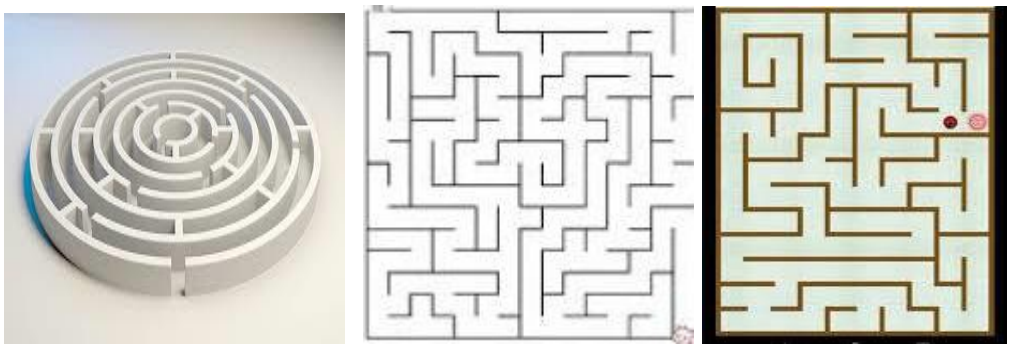
والعبد المشار إليه في الآية هو محمد ﷺ رسول الله ، شرفه بتلك الصفة بأنه عبد الله ، ووصفه بذلك دليل على إحاطة الله به وكفايته له (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**) ، ولم يكن النبي ﷺ يبتغي شرفاً يعلو على هذا المقام العبودي الخالص، بل كان يفخر به ويتشبث بأعتابه؛ ويظهر هذا جلياً فيما رواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ (إِنَّ اللَّهَ **خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ** فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ)[4] .

قوله (..وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (1) ينقل ابن إسحاق في تفسيرها :(ولم يجعل له عوجاً، قيماً)؛ أي: مستقيمًا معتدلًا لا اختلاف فيه ولا تباين[5]. وفي هذا اللفظ الإلهي دلالةٌ قاطعة على ألا سبيل لتدبُّر كتاب الله والاهتداء بآياته إلا عبر صراطه المستقيم الذي شرعه لتلقّي هذا الوحي. فالحمد لله الذي نزّه كتابه المنَزَّل هدايةً للبشرية عن كل عيبٍ أو نقصٍ أو شائبة، وجعل مسالك الاستدلال عليه ناصعةً لا اعوجاج فيها؛ لتنسجم آياته انسجامًا تامًّا مع الفِطَر السوية والعقول السليمة.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال" :أنزل الكتابَ عدلًا قيّمًا، ولم يجعل له عوجًا ملتبسًا""[6] ، ويعقّب أبو حيان في بحره محددًا المعنى :(أي: جعله مستقيمًا) .[7]وإنَّ هذه الاستقامة لتختصر على السالكِ طريقَ معرفة الله تعالى؛ إذْ إنَّ كل مسلكٍ ملتوٍ أو غير مباشر هو بمعزلٍ عن الجادة الصحيحة. فمن ابتغى معرفة الخالق سبحانه، وجد شواهد

[1]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج18 ص 124 رقم 14964 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة 4 ص 112 المجلدات158/4
[2]) المناوي : التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 632
[3]) ملخص ما ذكره ابن القيم في مقام الحمد في كتابه الماتع مدارج السالكين
[4]) رواه البخاري ج2 ص 268 رقم 446
[5]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70
[6]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 180
[7]) البحر المحيط ج7 ص 423

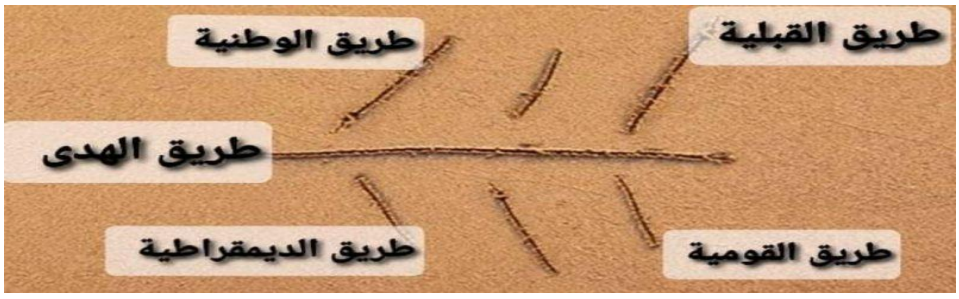
ربوبيته ودلائل وحدانيته شاخصةً في كل ذرّةٍ من خلقه، وأدرك الحق الذي دلّ عليه الكتابُ إدراكًا مباشرًا دون مواربةٍ أو عوج؛ فسبحانه من وصف نفسه بما يليق بجلاله وكماله، ونزّه ذاته العليّة عن كل نقص.



قوله (قَيِّمًا) قال ابن جزي في قوله (قيما) أي مستقيماً ، وقيل قيماً على الخلق بأمر الله تعالى ، وقيل قيماً على سائر الكتب بتصديقها)[1] ، ونظير ذلك [2]قوله (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً **فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**) [البينة/1]، وقوله تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ **يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ**...) [الإسراء/9] .

قال ابن العثيمين (قيما) **حال من الكتاب وليس صفة** لأنه نكرة والكتاب معرفة فلا يوصف المعرفة بالنكرة ، وقد وقع اللفظ حالا للكتاب **لبيان استقامته** ، (غاية الاستقامة، **فنفي العيب أولًا، ثم أثبت الكمال ثانيًا**)[3].

ويبسط هذا المفهوم ما روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ **هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ** ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**)[4].



وقد نبه ابن القيم إلى أهمية اغتنام الإنسان لأوقات عمره في الاهتمام بكتاب بالله ، فذكر أنه (حقيق بالإنسان أن يبذل ساعات عمره، بل أنفاس حياته، **في نيل المطالب العالية** والنجاة من الخسران المبين. **ولا سبيل إلى ذلك إلا**

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 932
[2] الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 192
[3]) انظر في هذا المعنى تفسير ابن العثيمين ج6ص3
[4]) رواه ابن ماجة ج1 ص 13 رقم 11 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج1ص7 رقم 11

بالإقبال على القرآن؛ تفهُّمًا وتدبُّرًا، واستخراجًا لكنوزه، وإثارةً لدفائنه، مع توجيه العنايةِ إليه، وتركيز الهمةِ عليه. فهو الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والهادي لهم إلى سبل الرشاد. فالحقائق، والطرق، والأذواق، والمواجيد الصحيحة؛ كلها لا تُقتبس إلا من مشكاته، ولا تُجنى إلا من شجراته) [1]

فليس ثمة ما هو أنفع للعبد في دينه ودنياه، ولا أقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن وطول التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته. إنها تبصّر العبد بمعالم الخير والشر بحذافيرهما، وتكشف له عن طرقهما، وأسبابهما، وغاياتهما، ومآل أهلهما. كما تضع في يده مفاتيح السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، فتشيد بنيانه وتوطد أركانه.

هذه النظرة القرآنية تُمثّل للعبد صورتي الدنيا والآخرة، والجنة والنار، **رأي العين في قلبه**، وتنقله بين الأمم ليرى أيام الله فيهم، فيقف على مواقع العبر، ويشهد عدل الله وفضله. ومن خلاله، **يتعرف العبد على ربه**: بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبما يحبه ويبغضه، **وبصراطه الموصل إليه**، وما ينتظر السالكين بعد الوصول والقدوم عليه، كما **يكشف** له قواطع الطريق وآفاتها.

وليس ذلك فحسب، بل تُعرّفه الآيات بنفسه وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتبين له سبل أهل الجنة وأهل النار: أعمالهم، وأحوالهم، ومراتب سعادتهم وشقائهم، وتمايز الخلق في مواطن اجتماعهم وافتراقهم.

وبالجملة: فالقرآن يُعرّف العبد بالربّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وكرامته إذا وفد عليه. وفي المقابل، **يحذره من ثالوث الغواية**:-(ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما يلقاه المستجيب لدعوته من الهوان والعذاب بعد الوصول)"[2].

قوله (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) (2) بين سبحانه الغاية من هذا الكتاب بأن وظيفته الإنذار من عذاب الله **لمن سلك طريقا معوجا** ، والبشارة للذين أمنوا وعملوا الصالحات أولئك الذي سلكوا طريق الله المستقيم ، قال ابن اسحق في النذارة **(عاجل عقوبة في الدنيا**، وعذابه في الآخرة من عند ربك الذي بعثك رسولاً)[3].

وقوله (من لدنه) قال قتادة أي (**من عنده**)[4] ، وهذا يدل على أن هذا البأس عقوبة مباشرة من الله لهؤلاء الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم ، قال ابن عجيبة (**نازلاً من قِبَله** ، في مقابلة كفرهم وتكذيبهم) [5]

وفي هذه الآية تصريح بأن كل من يخرج عن منهج الله يصاب ببأس الله ، يقول الله تعالى :﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44). فتبيّن الآية أن الخروج عن المنهج ونسيان التذكير يعقبه استدراج ثم أخذ أليم مباغت.

---

[1]) مدارج السالكين ج1 ص7
[2]) مدارج السالكين ج1 ص452 مختصرا
[3]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70
[4]) الدر المنثور للسيوطي ج6 ص 336
[5]) البحر المديد ج3 ص 375

وقال تعالى :﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم **بَأْسُنَا** بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم **بَأْسُنَا** ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف 97-99).

ويقول الله تعالى :﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ **مَعِيشَةً ضَنكًا** وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: 124) .

وقال رسول الله ﷺ (يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ

- لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ **الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ** الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا .
- وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا **أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ** عَلَيْهِمْ .
- وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا **مُنِعُوا الْقَطْرَ** مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا .
- وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ **عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ** فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ .
- وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ **بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**)[1]

قوله (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) (2) فالمؤمن يبشر بالثواب والأجر الحسن ، ولا يهمه غير ذلك ، فما ينتظره من الله هو الذي يجعله مستقيما في سبيله لربه لا يحيد عن طريقه ، بل يظل يجتهد في السير ، لأن الله بشره بالأجر الحسن نظير العمل الصالح ، قال الثعالبي «الأجر الحسن» نعيمُ الجنة ، ويتقدَّمه خير الدنيا[2] ، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ **سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا** ﴾ [مريم:98] .

ومن البشريات للمؤمن في الدنيا أن يوفقه الله للعمل الصالح ، **فكلما فرغ من عمل صالحا انتقل لعمل صالح آخر** .. وهكذا حتى يعسله الله تعالى ، فعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ اذا أراد الله بعبد خيرا **عسله** قلت وكيف يا رسول الله يعسله قال **يوفقه لعمل صالح قبل موته بسنة فيقبضه عليه**)[3]، وفي رواية الحاكم (إذا أحب الله عبدا عسله قال : يا رسول الله و ما عسله ؟ قال : يوفق له عملا صالحا بين يدي أجله **حتى يرضى عنه جيرانه** . أو قال . **من حوله**)[4].

قوله (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) (3) تأكيد على أن متاع الدنيا مهما طال فإنه لا يقارن بنعيم الآخرة الأبدي الذي لا ينفد ولا ينقطع ، وفي ذلك تأكيد على صفة الخلود لأهل الجنة في الجنة ولأهل النار في النار ، يقول النبي ﷺ (**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ** أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ **هَذَا الْمَوْتُ** وَكُلُّهُمْ

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 25 رقم 4009 وحسنه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 370 رقم 3246
[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 407
[3]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 55 رقم 4656
[4]) رواه الحاكم ج1 ص 490 رقم 1258 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 169

قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ **يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ** ثُمَّ قَرَأَ "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ **إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**" وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا "وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ")[1]

قوله (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) (4) كرر الإنذار مرة أخرى ليكون إنذار مخصوص لمن افترى على الله الكذب ونسب له الولد ، يقول النبي ﷺ (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى **يَشْتِمُنِي ابْنُ آدَمَ** وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِي وَيُكَذِّبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ **أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا** وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي)[2].

قوله (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (5) هذه الكلمة جُرْمٌ عظيم وتطاولٌ جسيم ،وكبيرة في حق الله تعالى ؛ لأن الله تعالى منزه عن النقص والحاجة ، فإنهم لما نسبوا لله الولد ، فقد انتقصوا من قدر الله تعالى ، وهو ليس بحاجة إلى الصاحبة ولا الولد ، وفي هذا المقام يقول الحق تبارك وتعالى (**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * **أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**) ، وتتجلى خطورة الكلمة وعاقبتها في تحذير النبي ﷺ إذ قال (**وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**)[3].

ولم يقف طغيانهم عند حدّ هذا الذنب الشنيع، بل تجاوزوه إلى جعل هذا الولد المزعوم شريكًا في منصب الألوهية، بل ورفعوا أنفسهم — زورًا وبهتانًا — إلى مقام أعلى من مقام النبوة والاصطفاء بمزاعم البنوة، متمردين على مقام العبودية الخالصة الذي شُرِّف به نبينا محمد ﷺ . وهذا المسلك هو حجر الزاوية في العقيدة الوثنية، حيث اتخذ كلٌّ منهم إلهه هواه. ويردُّ القرآن الكريم حاسمًا هذا التخرُّص بقوله (**وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا** * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) (مريم/88-95).

إن دعواهم هذه محضُ أوهامٍ وظنون، لا تستند إلى أثارةٍ من علم، بل هي خرافة نسجها الخيال واستكبر بها العقل عن عبادة ربه، وتوارثها الأبناء عن الآباء بلا تبصر أو وعي، حتى خُيِّل إليهم أنهم نورٌ انبثق من الذات الإلهية وتجسد في صورة بشر.

وفي توجيه الآية يقول ابن عاشور (عطف "ولا لآبائهم" لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) [الزخرف: 23]، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلدوهم)[4]، ويؤكد الإمام السعدي هذا المعنى بقوله (فأبان أن قولهم هذا بلا علم ، ومن المعلوم: أنه **كل قول بلا علم من الطرق الباطلة**. ثم صرح بقبحه قولُه: (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) ، ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل (إن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً) [5].

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 358 رقم 4361
[2]) رواه البخاري ج 10 ص 465 رقم 2954
[3]) رواه البخاري ج20 ص 119 رقم 5997
[4]) التحرير والتنوير ج15 ص 13
[5]) القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 137

هكذا بادر القرآن الكريم **بتعرية ضلال أهل الكتاب** وبيان بطلان عقائدهم، وذلك **قبل الانتقال إلى معاتبة النبي** ﷺ على عدم استثنائه بالمشيئة (قول: إن شاء الله) حين سألوه؛ **وفي هذا الترتيب حكمة بالغة** لدفع أي توهّم بأن لهؤلاء المشركين مَزِيّة أو فضلًا في هذا الموقف. فالضلال محيطٌ بهم، والنبي ﷺ هو صاحب الحق والهدى، وما فاته من أمر المشيئة قد تداركه الوحي بالتسديد، ومن هنا جاء العتاب الرقيق مواساةً له بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾.

قوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (6) يبرز الحالة النفسية التي كان عليها النبي ﷺ من شدة الوجد والأسى حين رأى قومه غارقين في ضلال العقيدة، وعاجزين عن سداد الاستدلال. فقد تملكته الرغبة العارمة في هدايتهم، والتعجل لإسلامهم؛ حتى إنه لما سألوه عن قصص السابقين اختبارًا لنبوته، استبشر بفأل الاستجابة، وتلهف لتقديم الجواب ظنًا منه أن الإجابة الفورية ستكون طريقهم إلى التصديق واليقين. ومن فرط هذا الحرص والتلهف، جزم لهم بحصول الجواب قريبًا دون أن يستثني المشيئة الإلهية فيقول: (إن شاء الله)

ولقد كان **الأجدر بهؤلاء المشركين** –بدلًا من هذا السلوك الملتوي، والذهاب لاستشارة أهل الكتاب للاستيثاق من أمارات النبوة– أن **يسلكوا أقصر الطرق** وأقواها للوصول إلى الحق؛ وذلك **بالنظر المستقيم والتدبر الواعي في الكتاب** الذي أُنزل على نبيّهم. فلو أنهم تفكروا فيه بإنصاف، لوجدوا فيه شفاءً لما يختلج في صدورهم، وحلًا لجميع تساؤلاتهم دون تكلف أو اعوجاج.

وهكذا هو شأن الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان؛ إذ يفيض وجدانهم إشفاقًا وأسفًا على أقوامهم حين يواجهون بالصدّ والتكذيب، بل وبالمجادلة العقيمة في صدق دعوتهم.

لذا، جاءت الآية الكريمة لفتة إلهية رحيمة تشفق على الرسول ﷺ وتواسيه؛ ناهيةً إياه أن يُهلك نفسه غمًّا لعدم إيمانهم[1]. وهو المعنى ذاته الذي تكرر في موضع آخر نهيًا عن استسلام النفس للحسرة المهلكة، كما في قوله تعالى : ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

فالحزن الذي ينهى الله عنه عباده ودعاته هو ذلك الحزن المقعد الذي يُفضي إلى اليأس والتكاسل عن تبليغ الدعوة؛ إذ يتعين على الداعية التسليم المطلق لمشيئة الله وقدره، فهو سبحانه وحده المحيط علمه بمن يستحق الهداية ممن حقت عليه الضلالة.

قوله (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا..)(7) فذلك هو موطن الاختبار والابتلاء ، فالزينة قد تشغل المرء عن وظيفته وهدفه ، وقد لا ينشغل بها ويظل مشغولا بعمله ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ **وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[2] ، وفي ذلك تعريض لفتنة الذين كفروا بالدنيا ، ولا يزالون يجادلون النبي ﷺ في الحق .

[1]) في هذا المعنى الشنقيطي : أضواء البيان ج3 ص 201
2) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925



قال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

قَوْلِهِ (..لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (7) فعَنِ الحَسَنِ قَالَ أي "أشدهم للدنيا تركاً" [1]، ومعنى ذلك أن زهد المرء في الدنيا هو مدار هذا الابتلاء ومحله؛ فكلما تخلّص قلبه من فتنتها حَسُنَ عمله، وكلما ازداد تعلقاً بها ساءت أعماله. وفي السياق ذاته، يوضح الإمام ابن عاشور أن "الناس متفاوتون في حسن العمل، ومن درجات هذا التفاوت: درجة انعدام الحسن من أصله، وهي حالة الكفر وسوء العمل"[2]. ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه القاعدة الجوهرية بقوله: "الفضل بنفس العمل وجودته، لا بقدره وكثرته"[3].

قوله (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا[4]) (8) يجلى لنا حقيقة الدار الدنيا؛ بأن الله سبحانه لم يكتب لهذه الدار أن تكون مستقرًّا للمتاع الدائم، بل جعلها مضمارًا للابتلاء ومحلًّا للاختبار. وإذا ما غفل الناس عن علة خلقهم، واستغرقوا في نعمها ظانّين أنها دار خلود وإقامة، حاق بهم غضب الله لإعراضهم، وتبدلت أحوالها إلى زوال؛ فينقلب عمارتها ونضارتها وزينتها إلى خراب) [5].

وقد أفاض المفسرون في بيان معنى الآية الكريمة، فذكر الشيخ الشعراوي في خواطره" :أنّ (الصعيد) هو طبقة التراب التي تعلو وجه الأرض ولا نبات فيها، و(الجُرُز) هي الأرض الخالية من الخضرة، أو التي كان بها نبات فاستأصله الجراد أو اجتاحته جائحة فأهلكته ."ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى :(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ)(السجدة: 27).

وفي السياق ذاته، يرى ابن كثير أن المعنى يؤول إلى " أنّا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكًا)[6] ، ويؤكده ابن جزي بقوله أي : سيفنى ما على الأرض من الزينة وتبقى كالأرض التي لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء بهجة"[7] .فهذه هي الحقيقة الغائبة؛ دنيا زُينت مؤقتًا لغاية الاختبار، ولا تلبث أن تتلاشى بمجرد انقضاء هذا الابتلاء، إذ لا بد لكل زينة أرضية من زوال وحتمية من خراب.

---

1 تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 182
2) التحرير والتنوير ج15 ص 18
3) مجموع الفتاوى ج4 ص 378
4) ترابا لا نبات فيه
5) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 374
6) تفسير ابن كثير ج5 ص 137
7) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 934

وتتطابق هذه الحقيقة القرآنية مع السُّنة النبوية الشريفة؛ حيث يقول الرسول ﷺ :**(إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)** [1]. وفي توجيه هذا الحديث، يذكر الحافظ ابن حجر :"أن فيه إشارة إلى الحث على التواضع، وإعلامًا بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة " .بينما يرى ابن بطال في الحديث" دلالة على هوان الدنيا على الله، وتنبيهًا على ترك المباهاة والمفاخرة؛ فكل ما هان على الله فهو في محل الضعة، وحقٌّ على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويُقلّ منافسته في طلبه" .ويضيف الطبري ملمحًا اجتماعيًّا ونفسيًّا بقوله "في التواضع مصلحة الدين والدنيا؛ فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء، ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة"[2].

ومن جماع هذه التوجيهات، ندرك أن العبد **كلما ازداد تعلقًا بالدنيا وشغفًا بها، سُلبت منه** ليزهد –قهرًا أو اختيارًا– فيما علق به قلبه. ويتجلى هذا المعنى بوضوح في قصص سورة الكهف؛ فهو ما حكته السورة عن "صاحب الجنتين" الذي غرّته زينة أرضه فحق عليها الهلاك، وهو ذاته الملمح الذي فقهه "أصحاب الكهف"؛ إذ عرفوا حقيقة الدنيا وزيفها، ففضّلوا هجران زينتها والآوي إلى الكهف فرارًا بدينهم وحماية لعقيدتهم من الفتنة.



وقال ابن كثير أي: (وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكًا)[3] ، قال ابن جزي (أي سيفنى ما على الأرض من الزينة وتبقى كالأرض التي لا نبات) فيها ، بعد أن كانت خضراء بهجة)[4]، فهذه هي حقيقة الدنيا أنها مزينة لأجل الاختبار والإبتلاء ، ثم لا تلبث حتى تفنى ، وذلك عندما ينتهي ذلك الابتلاء ، أي أن الدنيا مهما تزينت فلابد لها من خراب ، وقد بين الله ذلك .





[1]) رواه البخاري ج20 ص 157 رقم 6020
[2]) فتح الباري ج11 ص 341
[3]) تفسير ابن كثير ج5 ص 137
[4]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 934

وتُشير هذه الشواهد إلى حقيقةٍ إيمانيةٍ مفادها: أن العبد كلما ازداد تعلُّقاً بالدنيا خذلته، **لتُرغمه على الزهد فيما تعلَّق به قلبه**؛ وهو تماماً ما حلَّ بصاحب الجنتين كما قصَّت السورة. وفي المقابل، تتجلى هذه الحقيقة في قصة أصحاب الكهف الذين أدركوا جوهر الدنيا ففارقوها، وآووا إلى كهفهم حمايةً لدينهم من الفتنة.

وفي هذا السياق، يقول ابن عاشور تعقيباً على ورود الآية: «مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية أعوز المفسرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت".

والذي يبدو لي أن مناسبتها ظاهرة وجلية؛ فالدنيا دار ابتلاءٍ استوى في اختبارها أصحاب الكهف وذو القرنين؛ فمَن عاش منهم في ضيق الكهف كمَن عاش في اتساع القصر، كلاهما لم يخرج منها بغير الإيمان بالله تعالى، ومن ثَمَّ فلا مبرر للحزن عليها ولا على أهلها.

ولعل هذا ما رمى إليه ابن عاشور في استطراده قائلاً: «والذي يبدو: أنها تسلية للنبي ﷺ على إعراض المشركين بأن الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فإن الله يسلب عنهم النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل رسول الله ﷺ ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام) [1]، من ذلك نفهم أن العبد إذا زاد تعلقه بالدنيا تركته متحسرا عليها كصاحب الجنيتن أو منتبها من غفلته ليرجع إلى الله .

[1]) التحرير والتنوير ج15 ص 16

المحور الأول

قصة أصحاب الكهف

وفيه ثلاثة فصول :-

1- فرارهم بالدين واعتزال قومهم

2- لطف الله بهم

3- حكمة الإعثار عليهم

الفصل الأول من قصة أصحاب الكهف

فرار الفتية إلى الكهف بدينهم واعتزالهم قومهم

قال تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16)

قال ابن كثير: "هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك". وتتجلى مناسبة ذكر هذه القصة في كونها برهاناً ساطعاً يدحض ريبة المشككين في حقيقة البعث والنشور؛ تلك القضية الكبرى التي طالما اتخذها مشركو مكة ذريعة للإعراض عن الإيمان وتكذيب النبي ﷺ.

ولأن الحق سبحانه يجيب السائلين بالآيات الباهرات، فقد جاءت القصة رداً على سؤالٍ طرحه المشركون أنفسهم بإيعازٍ من أحبار اليهود اختباراً لصدق النبوة. وهنا تظهر مفارقة عجيبة وحجة دامغة عليهم؛ إذ كيف يسألون عن فتيةٍ أفاقوا من رقدتهم الطويلة بعد قرون خمدت فيها حواسهم ويُقرّون بها، ثم يستنكرون بعد ذلك قدرة الله على إحيائهم بعد موتهم يوم القيامة؟!

إن في تصديقهم بـ (**إمكان بعث**) أصحاب الكهف إلزاماً عقلياً لهم بتصديق النبي ﷺ فيما يبلغه عن اليوم الآخر، مما يمهد الطريق لفهم طلاقة القدرة الإلهية على البعث والحساب والجزاء.

وفي قوله تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)(9) قال ابن كثير أي: (ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم) [1]

وفي هذا السياق، يقرر الإمام مجاهد (قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك! ، ويؤيده محمد بن إسحاق: بقوله (ما أظهرت من حججي على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم)[2]

إن في طي الآية توبيخًا خفيًّا وتقريعًا مسكوبًا لأولئك الذين تعنّتوا وسألوا النبي ﷺ عن خبر الفتية ليمتحنوا نبوته. فقد **غفل هؤلاء عن ملكوت السماوات والأرض** وهي شواهد ناطقة بوحدانية الله، كما عميت أبصارهم عن آيات القرآن المتلوة التي تقيم ميزان العدل والحق في حياتهم.

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 138

[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 184

وهكذا هو الإنسان في غرابته وعجبه؛ يستحث الخطى بحثًا عن معجزةٍ غابرة أو قصةٍ نادرة، ويغض الطرف عن الآيات المشهودة المعروضة في الآفاق، رغَم أن الشفاء والدواء لشكوكه كامنٌ في الاستجابة لما جاء به الوحي الباقي.

وفي تحقيق لفظ "الرقيم"، ينقل الإمام البخاري في صحيحه أن" الرقيم" هو الكتاب، من "مرقوم" أي "مَكْتُوبٌ مِنْ الرَّقْمِ "[1] .ورغم ما رُوي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– من أنه قال: «لا يدري ما الرقيم؛ أكتاب أم بنيان؟»، إلا أن المحققين وجّهوا القول بأنه الكتاب الذي حوى الشرع المستديم الذي تمسك به هؤلاء الفتية من دين المسيح عليه السلام[2].

ومن هذا المنطلق الفقهي الأصيل، ينبثق فقه ابن عباس لمراد الآية إذ يقول :(**الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم**) [3] ؛ فالوحي الخاتم هو النور الأتم والحجة البالغة الفاضلة على كل ما عداها.

تتجلى في القصة **ملامح التشابه البديع بين هجرة الفتية وهجرة المصطفى ﷺ وأصحابه**؛ فكما فرّ أصحاب الكهف بدينهم وعقيدتهم، مستمسكين بالرقيم الذي يهديهم إلى الحق، فقد هاجر النبي ﷺ بأصحابه من مكة إلى المدينة فرارًا بالدين، وحملوا في صدورهم القرآن العظيم غضًّا طريًّا؛ فكتاب الله عند الصحابة لم يكن مجرد سطورٍ مرقومة في أوراق، بل كان نورًا ينبض في حشايا القلوب ويقود حركة الحياة.

إن وجه العجب الأسمى في قصة الفتية أنهم آمنوا بكتبٍ في أيديهم، وهجروا ملاذّ الدنيا وزينتها، وأووا إلى وحشة الكهف وضِيقه انتصارًا لنسخٍ من الإنجيل الحق.

ويعضد هذا المعنى المعجز ما أُثر في الحديث الشريف حين سأل النبي ﷺ أصحابه: (**أي المؤمنين أعجب إليكم؟**). قالوا: الملائكة. قال: (وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!). قالوا: فالأنبياء. قال: (وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!). قالوا: فنحن. قال: (وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟! ولكن **أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها**)[4]

فإيمان الفتية بالرقيم، كإيمان أتباع محمد ﷺ بالكتاب والسنّة دون رؤية العيان، هو ذروة اليقين وعجب الإيمان الذي يرفع صاحبه عند الله مكانا عليًّا.

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 282

[2]) البحر المحيط ج7 ص 428 المحرر الوجيز لابن عطية ج4 ص 288 تفسير القرطبي ج10 ص 357 ، محمد بن عبد المنعم الجميري الروض المعطار في خبر الأقطار ج1 ص 271

[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 184

4) ? حسن لغيره. رواه: أبو يعلى، والبزار، والحاكم، والبيهقي في ((الدلائل))، وابن عرفة في ((جزئه))، والإسماعيلي في ((معجمه))؛ بأسانيد لا تخلو من مقال، ولكن يقوّي بعضها بعضاً.وبمعناه روى أحمد والدارمي من حديث أبي جمعة، وحسنه الحافظ.

انظر : تحسين الشيخ المحدث / عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش للحديث – في تنبيه القارئ على تقوية ما ضعفه الألباني ج2 ص 18

قال (والحديث حسن لأن له شواهد منها ما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومًا فقال : « ما من ماء » ؟ قالوا : لا ، فقال : « هل من شن » فجاؤا بشن فوضع بين يدي رسول الله - ﷺ - ووضع يده عليه ثم فرق أصابعه فنبع الماء إلى أن قال .. فقال : « يا أيها الناس من أعجب إيمانًا » ؟ قالوا : الملائكة ، قال : « وكيف لا تؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر » إلى أن قال : « ولكن أعجب الناس إيمانًا قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني أولئك إخواني » . ورواه أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والبزار باختصار وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط . انتهى من مجمع الزوائد (جـ 8 ص 300) .

ومنها ما رواه البزار عن أنس قال قال رسول الله - ﷺ- : « أي الخلق أعجب». قالوا : الملائكة ... إلخ . قال الهيثمي : فيه سعيد بن بشير وقد اختلف فيه ، فوثقه قوم وضعفه آخرون وبقية رجاله ثقات أ . هـ . مجمع الزوائد جـ 10 ص 65 . ومنها ما رواه الإسماعيلي في معجمه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أي الخلق أعجب إيمانًا ؟ » قالوا : الملائكة . إلى قوله : « ولكن قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني » . انتهى . من الدرر المنثور (جـ 1 ص 26) .

ومنها ما رواه الطبراني عن صالح بن جبير قال : قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله - ﷺ- بيت المقدس ليصلي فيه ومعنا رجاء بن حيوة إلى أن قال : قلنا : يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا ؟ فذكره بمعناه . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : اختلف في رجاله . ومنها ما رواه البزار عن عمر عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أخبروني بأعظم الخلق عند الله منزلة ... » الحديث كما تقدم . قال الهيثمي : حسن المنهال بن عمرو وثقه أبو حاتم وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح (جـ 10 ، ص 65) .

فهذه الروايات المتعددة المتباينة تدل على أنه محفوظ صحيح كما جزم به الحافظ بن كثير والله أعلم .

إن مما يَبهر النَّفسَ حقًّا، ويأخذ بمجامعِ القلوبِ إعجاباً وإكباراً؛ أن ترى **عُصبةً من الفِتيةِ** قد خالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، فاستمسكوا بما بين أيديهم من كتابِ اللهِ وبراهينِ وحيهِ الصادق، هازئين ببريقِ الدنيا وزخرفِها الفاني. فلمَّا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبت، ونَاصَبَهم قومُهم العداءَ؛ **لم يجدوا مَفزعاً إلا أن يأووا إلى الكهفِ؛ حِفظاً لدينهم**، وصيانةً لتلك الرَّقائقِ المقدَّسةِ التي حَملت أنوارَ التوحيدِ وكلماتِ الإنجيلِ الحقّ.

قوله (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) (10) فالدنيا صغرت في أعين هؤلاء الشباب رغم زينتها واختزلوها في كهف يأويهم ، ولم ينشغلوا فيه بغير الدعاء وطلب الرحمة من الله وأن يهيء لهم من أمرهم رشدا ، فلم تشغلهم وحشة المكان ولا ضيق المسلك عن اللجوء إلى رحاب الله، لاهجين بالدعاء والتبتل



وفي هذا المسلك الإيماني تجسيدٌ حيٌّ لِما وجّه إليه المصطفى ﷺ في استشرافه لأزمان الفتن، حيث غدا العزل والفرار بالدين غنيمة للمؤمن؛ إذ يقول ﷺ **(يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ)**[1]وقد استنبط ابن بطال من هذا التوجيه النبوي فقه الاعتزال عند النوازل، مشيرًا إلى مشروعية الانفراد طلبًا لسلامة الدين، وخشية أن تنزل العقوبة الشاملة إذا شاع المنكر ولم يُغيَّر؛ فتكون تلك العقوبة حينئذٍ نقمةً على الفاسقين، وتمحيصًا وتكفيرًا للمؤمنين الصالحين الذين يُبعثون على نياتهم). [2]

وتجدر الإشارة إلى وصف أصحاب الكهف بأنهم فتية ، أي في ريعان الشباب ، وقد كان من المتصور في فكر غير المسلمين أن هذا السن هو سن طيش ومجانة ، لاسيما في البلدان غير الإسلامية ، ولكن هؤلاء الشباب لما وجدوا الفتنة قد أحاطت بهم فروا بدينهم ، بل إنهم آووا إلى الكهف ، وكأن هذا الكهف هو ملاذهم من شر الدنيا وفتنتها .

كما تجدر الإشارة إلى **الحالة النفسية التي أنعم الله بها على هؤلاء الفتية وهم في الكهف ، أنهم منشغلون بالدعاء** ، لا يطلبون فرارا من قدر الله ، ولا طمعا في الدنيا ، إنما **يلتمسون الرحمة والرشاد من الله** في أمرهم ، فعَنْ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ الْقُرَشِيِّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو **اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا** وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ)[3].

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 31 رقم 18
[2]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 ص 71
[3]) رواه أحمد ج36 ص 25 رقم 16970 وضعفه الألباني : لكن يعمل به في فضائل الأعمال

قوله (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ) يتجلى فيه حفظ الله لأهل الكهف وتخفيف البلاء عنهم سنين حتى تبدل الحال عند قومهم ، فيبعثهم وقد استخلف الله خيرا منهم ، إذ يُعدُّ "الضرب على الآذان" كنايةً بليغة عن النوم العميق و**فقدان** الوعي. وقد وجّه الإمام البغوي هذا المعنى بقوله:أي (أنمناهم وألقينا عليهم النوم ، وقيل: معناه **منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم** فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه)[1]

لقد استغرق أصحاب الكهف في ركودٍ أشبه **بالغيبوبة**، ممتدٍ لسنوات طوال بلا طعام ولا شراب، في ظاهرة إعجازية تُبهر العقول وتستوجب التسبيح. وإن كان التعبير بـ "البعث" يُوحي بظاهر الموت لولا أن الأرض لم تأكل أجسادهم، إلا أن اللفتة القرآنية (ضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ) تؤكد أنهم كانوا أحياءً لا أمواتاً؛ إذ عُطِّلَت حاسة السمع لديهم مؤقتاً ليعيشوا في معزلٍ صَوتِيّ عن ضوضاء العالم الخارجي تضمن استمرار نومهم.

وتُمثّل هذه الحالة وضعاً بيولوجياً فريداً لا مثيل له في تاريخ البشر؛ فهي ليست غيبوبة طبية كاملة لعجز الجسد فيها عن البقاء دون طاقة أو ماء، وليست موتاً حقيقياً يفنى فيه الجسد ويتحلل. وبذلك تختلف حالهم تماماً عن حال "الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه" في قوله تعالى :(فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ)؛ حيث بليَ طعامُ الآخر وفنيَ حِماره، بينما عُصِمَ أصحاب الكهف من الفناء وبقوا في برزخٍ بين النوم والموت، تجسيداً لقدرة الله الباهرة.

قوله (لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) (12) تتجلى لنا حكمة باهرة من حكم البعث والنشور؛ فالعلة الغائية هنا هي إظهار "العلم الإلهي" للخلائق، وإقامة الحجة البالغة عليهم، تماماً كما في قوله سبحانه :(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ**) .وكما استقرّ في عقيدة أهل السنة والجماعة، فإن علم الله سبحانه أزليٌّ محيط بكل غيب وشهادة قبل كونِهما، غير أن المراد هنا هو علم الظهور والعيان الذي يترتب عليه الجزاء؛ وهو ما جلاه الإمام الشنقيطي بقوله :"نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه"[2]، لتشرق في قلوب العباد حقيقة سرمدية واحدة: أن الله على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بالظواهر والخوافي.

فقد وضع الله السبب موضع المسبب :فأطلق "العلم" (السبب) وأراد به "التمييز والظهور" (المسبب)؛ أي: لنُميّز ونجعل للناس وسيلة ليعلموا ويشهدوا أي الحزبين أضبط وأقرب للصواب في حساب مدة لبثهم ، فهناك فريقان كلاهما لبثوا قدرا من الزمان ، الفريق الأول هو فتية أهل الكهف ، لبثوا في الكهف أمدا قدر ما شاء الله ، فخفف الله عنهم البلاء بتلك النومة ، والفريق الثاني هم قومهم لبثوا في الشرك والعتو حتى أهلكهم الله واستخلف غيرهم ، فلما استيقظ الفتية وجدوا أن القوم الظالمين رحلوا وحل محلهم آخرين ليسوا مثلهم .فعن كنه هذين الحزبين، يذكر ابن جزي :"المراد بالحزبين الذين اختلفوا في الكهف في مدة لبثهم؛ فالحزب الواحد: أصحاب الكهف، والحزب الآخر: القوم الذين بعث الله أصحاب الكهف في مدتهم"[3] .

---

1) تفسير البغوي ج5 ص 155
2) أضواء البيان ج3 ص 210
3) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 936

وهنا ينفتح للمتأمل ملمح تدبري بديع؛ إذ يضعنا المشهد أمام فريقين عاصروا الزمان ذاته، ووطئوا أرض الدنيا معاً؛ حزبٌ تقلب في أعطاف الترف والنعيم في قريته التي فر منها الفتية، فمضت بهم السنون ولم يُخلَّدوا، وحزبٌ فرَّ بدينه وعقيدته إلى ضيق الكهف الموحش، فاحتواه لُطف الله، وجعله مناراً للهدى عبر الأزمان.

وعند الموازنة الإحصائية بين المدة التي لبث خلالها الحزبان يتبدى للبيب أن الإحصاء الحقيقي ليس مجرد سردٍ للأرقام أو عدٍّ للأيام، بل هو مراجعة واعية لمَا انطوت عليه تلك الأيام **من تنعّم بالطاعة أو بلاء بالمعصية**. إن الحياة في ظلال الوحي والفرار بالدين —ولو كانت في وغلِ كهفٍ مظلم يظنه الرائي مقبرة للأموات— هي النعيم المقيم والخلود المورق. أما الحياة في ركاب الشيطان والشرك —ولو شُيدت لها البروج العاتية والقصور المنيفة— فهي الموت الحقيقي، والجحيم المعجل الذي يُصلي أفئدة أصحابه غماً.

إن هذه الرؤية المترفعة عن حطام الفناء تجسد وصية المصطفى ﷺ المشكاةِ للسالكين حين قال (**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**) [1].فقد جسد أصحاب الكهف هذا المعنى من خلال انشغالهم بالدعاء والرجاء خلال المدة التي قضوها في الكهف ، ثم انطوى الزمان وإذ بهم لما أُوقظوا من رقدتهم وسُئلوا :"كَمْ لَبِثْتُمْ"، تلاشت في وجدانهم السنين و(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الله تعالى حين يبتلي أولياءه الصادقين، يفرغ عليهم صبراً وثباتاً، ويخفف عنهم وطأة العناء، فتمر عليهم الدهور المتطاولة كأنها طيف خيالٍ عابر.

وفي المقابل، نجد الحزب الآخر من أهل الغفلة والكفران، الذين استهلكوا أعمارهم في لهو الحياة العاجلة ولعبها، يداهمهم الذهول ذاته والمفاجأة الكبرى يوم القيامة، فيستصغرون كل تلك السنين التي تمتعوا فيها بالدنيا، ويوقنون أنها لم تكن إلا سراباً بقيعة، كما وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله :(**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**).

وهذا ما يؤكده الإمام قتادة رضي الله عنه في تفسير الآية قاطبة بقوله :" ما كان لواحد من الفريقين علم، لا لكفارهم ولا لمؤمنهم"[2].**فكأن الزمان قد طُوِيَ عن الفريقين معاً** لعجز البشر؛ فالكفار الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا استقصروا زمانهم ولم يشعروا بامتلاء ترفهم، والمؤمنون الذين تقلبوا في لأواء الابتلاء ومكابدة الصبر سُرِقَ الوقت منهم بلطف الله، لينقاد الجميع في النهاية —مؤمنهم وكافرهم— مستوين في العجز أمام قيومية الزمان، منقلبين إلى متاع الآخرة والحساب العدل.

قوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) (13) قص الله على نبيه نبأ أصحاب الكهف ليس لمجرد التسلية ، بل هو من قبيل **التعريف بأهل الحق** ، ليكونوا مناراً يُهتدى بهم ، بفهم أحوالهم ، وبيان الطريق الذي سلكوه ، والصعوبات التي اعترضتهم ، ومدى تسليمهم لله ، وقوة إيمانهم به . إنها حكايةٌ تلخص حجم العقبات التي اعترضت سبيلهم، وتجلو مظهر استسلامهم المطلق لربهم، وعمقَ يقينهم به.

---

1) رواه البخاري ج20 ص 39 رقم 5937
2) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 190

وتبرهن الآيات كيف أن الله جل جلاله لا يتخلى عن أوليائه؛ بل كانوا في معية الله يكتنفهم بعين رعايته، ويمدهم بمدده، ويحوطهم بسياج حفظه، حتّى زادهم هدىً فوق هداهم.

كما كشفت الآية عن ملحظ دقيق ، وهو أن ثمة توقيت رباني لكل شيء ، أُذن لهم فيه بتبليغ دعوتهم؛ إذ بعثهم الله بعد أن تلاشت عروش قومهم الظالمين وطواهم الردى، ليخلفهم جيلٌ آخر أخذ به البهاء، فانبهر بآيتهم، وما معهم من رقيم من آيات الإنجيل ، واعتنق دعوتهم.

إن في التعبير القرآني اللطيف ووصفهم بأنهم" فتية " لَإشارةٌ باهرة تخطف الأنظار صوبَ أهمية هذه المرحلة العمرية، وحجمِ أثرها في بناء أمجاد الأمة المسلمة عبر تقلب الأزمنة والأمكنة. ويؤكد هذا المعنى المأثورُ عن ابن عباس رضي الله عنهما حين قال:**"ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب، ولا أُوتي العلمَ عالمٌ إلا وهو شاب"**، مستشهداً بآي التنزيل: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾، وصولاً إلى أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[1].

لقد تسنم هؤلاء الشباب ذروة المجد فكانوا في طليعة ركب الدعوة، وحين أحدقت الفتن بأرضهم واشتد الكرب، صوب أهل الشر سهامهم نحوهم طمعاً في ردهم عن دينهم. بيد أن هؤلاء الفتية لم يرتضوا الدعة،و لم يؤثروا الراحة، ولم ينساقوا وراء العبث والمرح، بل استشعروا ثقل الأمانة، فاغتنموا ربيع عمرهم للذود عن الدين . فصهروا قواهم ونضارة صحتهم في بوتقة الطاعة، واستثمروا أوقات فراغهم في البلاغ والدعوة، وبذلوا نفائس أموالهم في سبيل الله.

وهذا الصنيع هو عين الامتثال للوصية النبوية الخالدة التي رواها ابن عباس رضي الله عنهما، حين قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه :(**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**)[2].

إن نجاح الأفكار ونهضة الأمم تبنى بأربعة أركان :الإيمان القوي بها ، والإخلاص في سبيلها ، والحماسة لها ، والعمل لأجل تحقيقها ، فالفكرة الحقّ كالشجرةٌ المباركة، لا تُؤتي أكلها ولا يمتد ظلها إلا إذا سقاها إيمانٌ راسخ في القلوب الذكية، وغذّاها إخلاصٌ طاهر في الأفئدة النقية، وضخّ فيها الدفءَ حماسةٌ تشتعل في الشعور القوي، وشدّ أزرها عزمٌ فتيّ يدفع نحو العمل والتضحية. ولذلك قيل أن (أساس الايمان القلب الذكى وأساس الاخلاص الفؤاد النقى وأساس الحماسة الشعور القوى وأساس العمل العزم الفتي وهذه كلها لاتكون إلا للشباب) ؛ فَبِهِم تُحْمَل الرايات، وتُبنى الصروح، وتُبعث الأمم من رقدتها، قديماً وحديثاً، مصداقاً لقوله تعال (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)[3].

وأهل السنة يضعون هذه المصطلحات في إطارها التعبدي والتوحيدي ، كما يلي :-

فالإيمان : يرى أهل السنة أن نجاح الأمم يبدأ من الإيمان بالله أولاً وتوحيده، ثم الإيمان بـ "عدالة القضية" أو الفكرة. فالإيمان عندهم هو (قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان)

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 190

[2]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 341 رقم 7846 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 168 رقم 3355

[3]) https://www.youtube.com/watch?v=CIqKBMwpfBA

(تنبيه وفق معيار أهل السنة والجماعة: إن هذه الأركان والمقاصد لا تصلح ولا تكون مباركةً نافعةً في الموازين الشرعية إلا إذا صُرفت في طاعة الله، وتحت مظلة العقيدة الصحيحة، واتباع هدي النبي ﷺ وأصحابه، مُجَرَّدةً عن الحزبية المقيتة أو الغلو، ومبنيةً على نصرة الحق والتمسك بالكتاب والسنة بفهم السلف الصالح)

والإخلاص هو أصل قبول الأعمال عند الله. وفي المنهج السني، لا يكون الإخلاص للفكرة مجرد تجرد نفسي، بل هو إخلاص الدين لله وحده (ابتغاء وجه الله)، وهو شرط أساسي للتمكين والنهضة

وبالحماس تُترجم شرعياً بـ" العزيمة الصادقة "أو "علو الهمة". وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من العجز والكسل، ويحث على النشاط والحمية في الحق دون غلو أو اندفاع غير منضبط

والعمل هو الركن الركين في فقه أهل السنة، فالإيمان لا يكفي وحده بل لا بد من العمل الصالح والأخذ بالأسباب . فالأمة الإسلامية لم تنهض إلا بالعمل والكسب وبناء الأرض

وقوله (..وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) (13) يضمّ في طياته دلالةً عميقة على مراتب الهداية؛ فهي تبدأ أولاً بطلب أصل الاهتداء، ثم تتوق نحو الزيادة فيه والاستزادة منه. وهذا برهانٌ جليّ على أن الإيمان يزيد وينقص، فإن لم يكن المرء في زيادة من إيمانه، فهو ولا شك في نقصان.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم (هذا نصٌّ صحيح صريح لا يحتمل التأويل في أن نفس الإيمان القائم بالقلب يقبل الزيادة والنقصان، وبعضهم أرجح من بعض»[1]. ويُعضد هذا الفهم قول الإمام الشافعي :(ولو كان هذا الإيمان كله واحداً لا نقصان فيه ولا زيادة؛ لم يكن لأحد فيه فضل، واستوى الناس وبطل التفضيل. ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المفرّطون النار[2].

وقد تجلّت تلك "الزيادة في الهدى" في صنيع فتية الكهف؛ إذ التمسوا الكهف طريقاً لترسيخ هدايتهم، واعتزلوا بهرجة الدنيا التي فُتن بها قومهم، فارّين بدينهم من غوائل الفتن. ولا يعني هذا بحالٍ أن مواجهة العدو بالطرق السلمية والصبر على أذاه ليس من الهدى، بل هو الهدى في أسمى صوره ، يقول النبي ﷺ (المؤمن : الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)[3].

غير أن ما أقدم عليه أصحاب الكهف كان زيادةً في الهدى، والمسلك الأرشد في زمن الفتنة لعجزهم عن المواجهة. وقد أبانوا عن علة عزلتهم وشدة ضعفهم بقولهم :﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لذا، فإن مسلك الفتية كان نابعاً من فقهٍ عميق بالدين؛ إذ ليس من الحكمة والوعي أن يلقي المؤمن بنفسه إلى التهلكة بمواجهةٍ غير متكافئة لا يملك لها من أسباب التمكين شيئاً. فالنكوص عن المواجهة وتأجيلها في أوقات الاستضعاف أصلح لبيضة الدعوة وأسلم لِخَلَفِها.

كما يوضح سيد قطب الأبعاد العميقة والظروف المحيطة بقرار الفتية، مبيناً أنه لم يكن أمامهم من خيار سوى الهجرة؛ فحين تتمايز السبل وتتناقض المناهج، ينعدم أي سبيل للالتقاء أو العيش المشترك. ولم يكن هؤلاء الفتية رسلاً مكلّفين بالمواجهة والبلاغ ليصبروا على الأذى، بل كانوا عصبة مؤمنة تبدّد أمامها الضلال في بيئة جائرة، فباتت حياتهم

---

[1]) حاشية ابن القيم ج12ص 292

2) الدكتور محمد بن عبدالرحمن الخميس :اعتقاد الأئمة الأربعة ج1 ص 22

[3]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 162

مهددة إن هم جاهروا بالحق، في وقتٍ لم تطق فيه نفوسهم المداهنة أو عبادة غير الله على سبيل التقية، لا سيما وأن أمرهم قد كُشف ولم يعد أمامهم إلا الفرار بدينهم.

وفي هذا السياق يشرق هدي النبي ﷺ بقوله « إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ **السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ**، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، **وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا**» [1] أي الذي يتجنب المواجهة هو السعيد بدينه ، فإذا قدر على ذلك مرة أو مرتين أو ثلاث فإنه لابد وأن يبتلى فإذا حصل ذلك وصبر فطوبى له.

والمراد بـ (مَن ابتُلي فصبر): أي مَن امتُحن بتلك الفتن فحبس نفسه على الأذى، ولم يسعَ إلى المحاربة والمواجهة في زمن الضعف. ولفظة "فَوَاهًا" (بالتنوين) هي اسم صوتٍ أُقيم مقام المصدر وناب عن فعله كما ذكر الطيبي. وقال ابن الملك في بيان معناها: «تأتي بمعنى التلهف، وقد تُوضع موضع الإعجاب بالشيء واستطابته؛ أي: ما أحسن وما أطيب صبر مَن صبر! وقيل معناه: فطوبى له[2].

وهكذا، (آثر الفتية خشونة الكهف وضيق عزلته على زيف الدنيا وزينتها، فغدا ذلك الضيق في ظلال الإيمان فضاءً رحيباً؛ إذ استروحوا رحمة الله واستشعروها وارفة ممتدة. وتتجلى روعة التعبير القرآني في لفظة "ينشر" التي تضفي على المشهد ظلال السعة والبحبوحة، لتتحول جدران الكهف الصخرية إلى أفق فسيح تنتشر في أرجائه الرحمة الإلهية وتتسع خيوطها لتغمر قلوبهم بالطمأنينة) [3].

قوله (..وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ..) (14) استعارة مكنية باهرة؛ فالقلب عند الخوف والقلق يضطرب ويفزع حتى كأنه يوشك أن يغادر مكانه، كما صوّر القرآن حال الفزع الأكبر بقوله (**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**) .وفي مقابل هذا الانزعاج، يأتي المدَد الإلهي بـ "الربط"، وهو في أصل اللغة الشدّ والإحكام، فيُشَبَّه القلب المطمئن بالشيء المستقر المثبت في مكانه، دلالةً على رباطة الجأش وسكون النفس.

وقد عُدِّيَ الفعل بحرف الجر (على) ليفيد معنى **الاستعلاء والإحاطة**، كأنَّ الرعاية الإلهية تحوط القلب من فوقه لتمنعه من الاضطراب والزيغ.

إن هذا الربط الرباني هو ذروة التثبيت عند المحن والخطوب؛ لا سيما في تلك المواقف العصيبة التي تزول منها الجبال، وتزيغ فيها الأبصار، وتتزلزل الأرض من تحت الأقدام، كالمشهد المهيب الذي عاشه الصحابة يوم الأحزاب حين **أُحيط بهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً.**

وفي ظلال هذا المدد الغيبي، يفيض الله على عباده بقوة إيمانية دافقة ، كما يعبر ابن عجيبة أي (**قوّينا عزائمهم**، فيقتحمون بها مضايق الصبر الشاقة، ويهون عليهم هجر الأوطان، ومفارقة الأهل والخلان، ويهجرون النعيم والدَّعة، ليقفوا في وجه الباطل قاماتٍ شامخة، يصدعون بالحق في شجاعةٍ بالغة، لا يداخلهم خوفٌ، ولا يثنيهم حذر) [4].

---

[1]) رواه أبو داود ج11 ص 332 رقم 3719 وصححه اللباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص 263 رقم 4263
[2]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 378
[3]) في ظلال القرآن للسيد قطب 2262/4، مع تصرف الشيخ القحطاني : الولاء والبراء ج1 ص 127
[4]) البحر المديد ج3 ص 382

قوله (..إِذْ قَامُوا فَقَالُوا..) (14) يتجلى مظهر الانتصاب لإعلاء منار الدين وإظهار شعاره، وهو الملمح المشهود في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19]. إن في جرس اللفظ وحروفه وثبةً توحي **بالحركية الدائبة في تبليغ رسالة الله**، وتشي بالصدع بكلمة الحق في وجوه الجبابرة بلا وجل[1]. وفي هذا السياق، يقرر الشيخ إسماعيل المقدم: "أن **من أخص خصائص الداعية حركته** التي تباين الخمول والجمود؛ فالحركة ولود والسكون عقيم، والحركة نبض الحياة والسكون نذير الممات"[2]. وفلسفة هذه الرؤية الإيمانية تقوم علي أن "**الحركة مبتدأ، والسكون منتهى**؛ إذ لا تسكن الأشياء إلا إذا بلغت نهايتها فخمدت وماتت، أما الحركة فمستقبلٌ يلد ما بعده".

إن هذه الحركة هي الحد الفاصل بين عهد المراقبة والانتظار، وعهد النهوض بالأمانة بعزم حازم ووفاء صادق. فبفضلها انطلق الرعيل الأول كأشعة الشمس الساطعة في آفاق الأرض، يفتحون الممالك، ويستنقذون القلوب، ويهدمون عروش الطواغيت؛ ليقودوا البشرية إلى رحاب الجنان. لقد غدوا بحركتهم سُرُجاً وهاجة تُبَدِد ظلمات الوجود، فإذا بالباطل ينقلب رماداً تذروه الرياح بعد تأججه، ويغدو هامداً بعد صولته[3].

قوله: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [14]، يعكس إقراراً خالصاً بربوبية الله جل وعلا، وامتلاءً بمشاعر الفخر والاعتزاز بهذا الانتماء، وابتهاجاً ببروق الإيمان؛ وما ذلك إلا فيض من سكينتهم، وأثر من آثار الربط على قلوبهم. وفي لطائف الإشارات، يقول القشيري: "قاموا لله بالله، ومن قام بالله غاب عما سوى الله". وقيل في حكمة السير: "من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله"[4]. وملاك الأمر كله أنهم "قعدت بهم الشهوات، فاستقام لهم القيام بالله"[5].

قوله (..لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) (14) إقرار صارم بقصر مقام الألوهية على الحق سبحانه، وبراءة مطلقة من صنيع قومهم، ليس فيها مجال لمداراة، ولا متسع لمصانعة. لقد تعالت نفوسهم الشريفة، واشمأزت أفئدتهم الزكية عن كل قول أو فعل يشوب نقاء التوحيد، فكان الشرك في عرف إيمانهم أمرا خارجا عن حدود الاستطاعة والطاقة البشرية، يستحيل أن تنطق به شفاههم ولو سيقوا إلى المنايا.

وقد صدر منهم هذا الإقرار في عمق الظلمة الطاغية، فحين مادت الأرض بأهلها شركا وطغيانا، وقفت تلك الصفوة من الفتية كأطواد راسخة لا تزعزعها رياح الاستضعاف، أعلنوا الصدع بالحق الأبلج في نداء يملأ الآفاق طهرا وتنزيها: " لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ". إنه الصدى الذي تردد قديما على لسان الخليل إبراهيم حين صرخ في وجه الوثنية: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)، وهو ذات الميثاق الذي نادى به خاتم المرسلين . (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا).

---

[1]) يقول الشنقيطي : وأكثر المفسرين على أن قوله: {إِذْ قَامُواْ} أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس.
2) الشيخ محمد إسماعيل المقدم : علو الهمة ص 8
3) أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" للندوي"
[4]) كتب الرقائق والتفسير الإشاري للقشيري
[5]) تفسير القشيري ج4 ص 336

ويستعجبون أن يطلب منهم أن يشركوا بالله ، كَيْفَ يشركون بالله وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ خُرُوجٌ عَنْ حَدِّ العَقْلِ وَمُجَاوَزَةٌ لِقَدْرِ الحَقِّ؟ (لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)؛ (والشطط مجاوزة القدر والإفراط)[1] أي لو هوت بنا النفس إلى ذلك المنحدر، لقلنا قولا باطلا مجافيا للصدق، بهيما بالكذب والبهتان، ساقطا في حمأة الإفراط والضلال.

ولقد لمح بذكاء الدكتور أيمن هاروش فقه هؤلاء الفتية فأشار إلى أنه (ولئن كان فقه الاستضعاف يبيح التلطف في المسير، فإنه لم يكن يوما جسرا يعبر عليه إلى الكفر، أو رخصة لمقاسمة المماطلين في باطلهم. فما كان للنبي ﷺ في أوج المحنة بمكة أن يقايض التوحيد بالأوثان، فنزل الفصل الحاسم: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[2]. هكذا هو الإيمان؛ يلين بنانه تلطفا ودعوة، لكن ينبو صرحه عن التنازل عن عقيدة العبودية الحقة، فتبقى راية (لا إله إلا الله) شامخة، لا تطأطئ رأسها لعاصفة، ولا تنحني لطاغوت.

قوله (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) (15) يتبدّى لنا تشخيص دقيق وبليغ قدّمه الفتيةُ؛ بوصفهم دعاةً يُعاينون واقع قومهم الغارق في دركات الشرك والضلال.

فعبارتهم الاستهلالية ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ تنضح بأسىً عميق وحرقةٍ وادعة على مصير عشيرتهم، وهو أسفٌ يشبه ذلك الذي اعتصر قلب النبي ﷺ حين قال له ربه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. أما استنكارهم بـ ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ﴾ فهو تحضيضٌ سِياقه التعجيز؛ إذ يطالبونهم ببرهانٍ قاطع وحجةٍ دامغة تُسوّغ هذا الشرك، ولسان حالهم يتساءل: أين مستندكم العلمي؟ وأين أدلتكم البينة على هذا الافتراء؟ وكما يرى ابن عاشور: (ولما كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذراً بقرينة أنهم أنكروه عليهم؛ انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط)[3].

والغاية من هذا المحاججة بتفكيك الدَّعاوى الواهية وغربلتها؛ ليتضح للملأ بطلان الشرك، وذلك عبر مسلك "السَّبر والتقسيم" لواقع المشركين. وبهذا يتمايز المعاند المفترى الكذّاب، عن الجاهل الملتبس عليه الأمر لشبهةٍ أحاطت به. ولذا جاء التعقيب الحاسم بـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ للإشارة إلى صنفٍ خطير يتعين الحذر منه والفرار من فتنته؛ كونه يمثل رأس الحربة في محاربة الحق والصد عن سبيل الله.

إن هذا الموقف الرائد يبرهن على أن هؤلاء الفتية لم يهربوا ابتداءً من معركة الكلمة، بل جابهوا باطل قومهم، وأنكروا عليهم المنكر بألسنتهم وقلوبهم. ولما استنفدوا وسعهم، ولم تبقَ لهم طاقة بالمواجهة المادية، لم يجدوا بُدّاً من اعتزالهم؛ حمايةً لعقيدتهم وحفظاً للدين في نفوسهم. فالإنسان المؤمن هو الحامل الحقيقي لرسالة الله في الأرض، وبقاؤه مقوم أساسي لبقاء هذا الدين؛ إذ كيف يُعبد الله في الأرض إذا فني أهل الحق وحُماته؟!

وفي قوله (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ..)(16) تتجلى فيه ظلال التوجيه القرآني بالاعتزال ، ويحمل لفتةٌ عميقة إلى فضيلة الهجرة بالدين عند فساد الزمان. وتجد هذه الدلالة مجلاها في السنة النبوية المطهرة؛ فعن أبي سعيد

[1]) تفسير البغوي ج5 ص 156
[2]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست https://nedaa-post.com/
[3]) التحرير والتنوير ج15 ص 31

الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ : «أيُّ الناس أفضل يا رسول الله؟»، فأجابه: «مؤمنٌ يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «ثم **رجلٌ معتزل في شِعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره**»[1].

وقد تعاضد هذا المعنى قوله ﷺ (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ أَفْضَلُ النَّاسِ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ **كُلَّمَا سَمِعَ بِهَيْعَةٍ اسْتَوَى عَلَى مَتْنِهِ ثُمَّ طَلَبَ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَابِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَدَعُ النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ**)[2].

وقد أثارت هذه النصوص مسألة فقهية وسلوكية جليلة؛ حيث يرى الإمام النووي أن في الحديث دليلاً لمن فضّل العزلة والبعد عن الخلق على مخالطتهم، وهو موضع خلافٍ شهير بين أهل العلم. فمذهب الإمام الشافعي وجمهور العلماء يرى أن **مخالطة الناس والاندماج في المجتمع أفضل وأولى، شريطةَ ألا يخشى المرء على دينه الفتن**، وأن يرجو السلامة في دينه ودنياه[3].

وعليه، فقد وجّه الجمهور الأحاديث المادحة للاعتزال وحملوها على **أوقات الفتن، واشتعال الحروب، أو في حقّ من يخشى ألا يسلم الناس من شره، أو من لا يملك صبراً على جفاء الخلق وأذاهم**. قال الزرقاني قال الجمهور (محل ذلك عند وقوع الفتن)[4]

ويؤيد هذا التوجيه الفقهي الدقيق قول الرسول ﷺ : «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[5]؛ ليتضح من جماع هذه الأدلة أن الأصل هو الصبر والمخالطة والإصلاح، وأن العزلة دواء استثنائي يُلجأ إليه عند اضطراب الأحوال وفساد الزمان.

قوله (...فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) (16) تجلّت غايتان عظيمتان سعى إليهما أصحاب الكهف في مأواهم؛ أولاهما: رجاء الرحمة الإلهية، وثانيتهما: طلب المرفق والتيسير.

فأما غايتهم الأولى، فقد تطلعوا إلى رحمةٍ واسعةٍ ينشرها الله عليهم، ونشرُ الرحمة إنما يكون بالذكر والتلاوة والصلاة، وهو دليلٌ على سعتها وفيضها الممتد. ويشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ في الحديث القدسي عن أهل الذكر: «(هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»، وقوله ﷺ : «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ **وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ** وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ...) [6].

وأما غايتهم الثانية، فهي سؤال الله "المرفق"، والمقصود به كل ما يرتفقون به وينتفعون منه لتيسير عيشهم؛ كالطعام، والشراب، والغطاء، والنار[7]. وفي هذا يقول الإمام الشوكاني: (المرفَق بفتح الميم وكسرها لغتان قرىء بهما، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع، والمراد هنا: ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله) [8].

---

[1]) رواه مسلم ج9 ص 475 رقم 3502
[2]) رواه أحمد ج15 ص 450 رقم 9723
[3]) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ج6 ص 749
[4]) محمد بن يوسف : شرح الزرقاني ج3 ص 11
[5]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1ص162 رقم 388/300
[6]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867
[7]) في هذا المعنى التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : 1 /938 ، أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 2157 قاله السدي ،انظر الدر المنثور للسيوطي وتفسير ابن أبي حاتم

لقد تضرع فتية الكهف إلى ربهم ليدبر لهم معاشهم، ويسوق إليهم قوتهم ولباسهم وهم في عزلتهم، مدفوعين بيقينٍ ناصع، وثقةٍ مطلقة بفضل الله وحوله وقوته، ومتوكلين عليه حق التوكل؛ مصداقاً لقول النبي ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ **لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ** تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) [1].

[8]) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 373
[1]) رواه أحمد ج1 ص 204 رقم 200 السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 309 رقم 310

الفصل الثاني من قصة أهل الكهف

لطف الله بأهل الكهف

قال تعالى (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ **تَزَاوَرُ** عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ **تَقْرِضُهُمْ** ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي **فَجْوَةٍ** مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ **أَيْقَاظًا** وَهُمْ رُقُودٌ **وَنُقَلِّبُهُمْ** ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ **وَكَلْبُهُمْ** بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ **اطَّلَعْتَ** عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) وَكَذَلِكَ **بَعَثْنَاهُمْ** لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا **لَبِثْتُمْ** فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى **طَعَامًا** فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ **وَلْيَتَلَطَّفْ** وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ **يَظْهَرُوا** عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

قوله (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) فأول شيء من تهيئة المرفق هو **توقيت دخول الشمس** إلى كهفهم ، قال ابن جزي (ومعنى الآية أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ، ولا عند غروبها لئلا يحترقوا بحرها)[1] . فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:" تَزَاوَرُ " قَالَ: تميل، قال الشنقيطي (**كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها** حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان)[2] . قال أبو حيان (تزاور) بإدغام (تتزاور) ، والمعنى (تزوغ وتميل)[3].

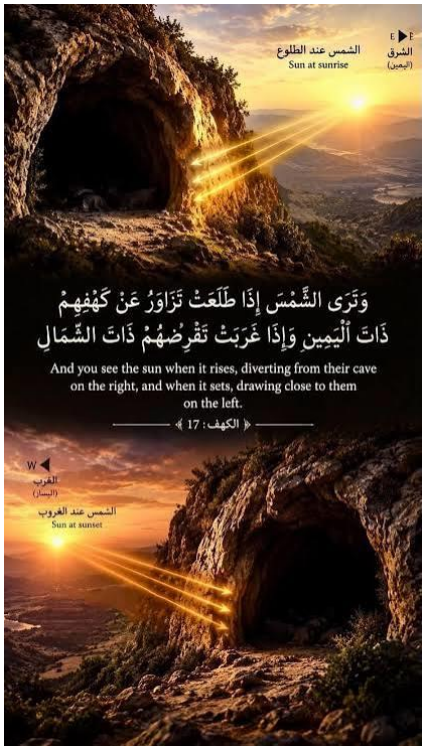
تتجلى بلاغة اللفظ القرآني في قوله تعالى: "تَقْرِضُهُمْ"، والتي فسرها المفسرون بمعنى "تذرهم"[4]؛ حيث يشير الإمام السيوطي إلى أن معناه يتجاوز مجرد الترك إلى العبور بسلام، فلا تصيبهم بأذى قط[5].

وإذا تتبعنا السر اللغوي للكلمة، نجد أن أصل القرض في اللغة هو القطع، مأخوذٌ من "قُراضة الذهب" وهي ما يُقتطع منه ويفصل. ومن هذا المنطلق البديع، نرى كيف تصنع الشمس لوحة رفيقة بأصحاب الكهف: حيث تحنو عليهم بشعاعها من خلال العبور الآمن ، فالشمس عند غروبها تميل عنهم برفق، وتتجاوز مخبأهم لتتركهم وادعين في ظلال السكينة، دون أن تفاجئهم بلفح شعاعها المباشر أو تؤذيهم بحرارتها.

وقيل في أسرار هذا العبور الرفيق ، أن الشمس لا تحرمهم كلياً، بل تمنحهم نفحةً يسيرة من ضيائها؛ ليحمل شعاع العشيّ إلى أجسادهم وهائهم نسيم الإصلاح والتجدد، فيصونهم من البِلى، دون أن يمسّهم بلفحةِ حرقٍ أو هجير.

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 939
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ث 219
[3]) تفسير البحر المحيط ج7 ص 427
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 191
[5]) تفسير الجلالين ج5 ص 168







قال ابن كثير (هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال) هذا ما استنتجه ابن كثير من من خلال تحليل حركة الشمس وظلها ومسارها اليومي كما وصفتها الآيات ، وذلك من خلال تأمله لحركة الشمس عند الشروق والغروب :-

فبالنظر إلى حركة الشمس عند الشروق :يتبين أن الشمس عندما تطلع تبتعد وتميل عن فم الغار جهة اليمين كما في قوله (تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ)، ما يعني أن الظل يتقلص تدريجياً جهة اليمين كلما ارتفعت الشمس في السماء، حتى يختفي تماماً عند وقت الظهر (الزوال). كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة

وبالنظر إلى حركة الشمس عند الغروب :أي عندما تميل الشمس بعد الزوال نحو الغروب، يدخل شعاعها إلى الغار من جهة الشمال كما في قوله (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ)، وهو الجانب الشرقي بالنسبة لداخل الكهف.

من هنا أثبت ابن كثير فرضية أن باب الكهف من ناحية الشمال فقال (وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب)[1] ، أي أنه تراءى له أن فرضيته تتوافق تماماً مع علم الفلك والجغرافيا وسير الأجرام السماوية ، وأكد هذه النظرية كذلك باستبعاد الاتجاهات الأخرى ، (الشرق ، الجنوب ، الغرب)

إذ لو كان الباب من ناحية **الشرق** لما دخله شعاع للشمس وقت الغروب.

ولو كان الباب من جهة **الغرب** :لما دخلته الشمس وقت الطلوع أي صباحاً عند الشروق، بل لدخلته بعد الظهر واستمرت فيه حتى الغروب.

لو كان الباب **جنوبياً** (جهة القبلة) : لما دخلته الشمس مطلقاً ، لا عند الشروق ولا عند الغروب، ولما مال الظل يميناً ولا شمالاً.

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 143

مما يدل على **العناية الإلهية بأصحاب الكهف** أن جعل بابه موجهاً نحو الشمال بدقة؛ لضمان دخول ضوء الشمس ليتجدد الهواء بشكل متوازن ولطيف دون أن تصيبهم أشعة الشمس المباشرة المباشرة طوال النهار، مما يحافظ على سلامة أجسادهم طوال فترة نومهم الطويلة.

وهذا التحديد الجغرافي لموقع أهل الكهف حدا باللجنة الملكية لإعمار مقامات الأنبياء والصحابة وإدارتها إلى الإعلان عن اكتشاف مكان أهل الكهف جغرافيا في موقع (الرقيم) بالمملكة الأردنية الهاشمية [1]

قوله (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) (17) أي (متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها) [2]، فثاني شيء من تهيئة المرفق بعد **توقيت دخول الشمس** إلى كهفهم ، هو التهوية الجيدة ، ولذلك قال تعالى (وهم في فجوة منه) ، بحيث يدخل الهواء ويخرج دون أن يختنق في الوسط .



علاقة المبنى بالرياح وخلق منطقة ضغط مرتفع ومنطقة ضغط منخفض[3]

قوله (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) قال ابن عاشور (وآيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيدي دين الحق) ، ذلك أن الله تعالى أخرجهم من زمان الاستضعاف إلى زمان آخر بعد أن تغير القوم وتبدلت الأحوال واهتدى بعضهم للإيمان ، بدليل قول بعضهم لما عثروا عليهم فيما بعد وقد ماتوا (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ)

[1]) https://www.almaqamat.com/shrines/religious-sites-1

2) أيسر التفاسير للجزائري وكذلك الطبري في تفسيره ج17 ص 623 نقلا عن قتادة وغيره

3) عندما تهب الرياح نحو المبنى الهواء المتجمع فوق الجانب المواجه للريح يخلق منطقة ذات ضغط مرتفع والهواء الآتى حول المبنى يخلق منطقة ذات ضغط منخفض للمبنى مباشرة باتجاه الريح ، بناء عليه اختلاف الضغط الموجود بين الجانب الذى تهب منه الريح والجانب الذى تهب نحوه الريح في مثل هذه الطريقة الهواء سيتحرك خلال المبنى إذا كان الفتحات الموجودة من جانب الضغط العالى (منطقة الضغط العالى) إلى جانب الضغط المنخفض (منطقة المص)



فمن طوى الزمان لأصحاب الكهف، قادرٌ على أن يقلب موازينه لمن يشاء، ويبدل من حالٍ إلى حال.

قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ..) (17) وفي هذه الآية لفتةٌ باهرة تبرهن على أن الهداية مَحضُ فضلٍ إلهي؛ إذ انتشل الله فِتية الكهف من غيابات الضلال ومجتمعات الطغيان والشرك، وعصم قلوبهم رغم غَضارة سِنّهم وقوة عاتية قومهم، ليكونوا للناس آيةً تُسفر عن عاقبة الإيمان الصادق. فلما استعصى على أولئك الفتية رَدْعُ قومهم وكَفُّ طغيانهم، **ألهمهم الباري سبحانه فكرة الاعتزال والفرار بالدين**، وفي هذا السياق يقرر الحافظ ابن كثير قائلًا: «هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له) [1].

ومن مَعين هذا المعنى، يفيض شيخ الإسلام ابن تيمية ببيان فقر العبد الدائم إلى الهدى، مؤكدًا أن «**كل عبد مفتقر دائما إلى حصول الهداية**»، وهي هدايةٌ لا تقف عند حدود الإقرار المجمل—بأن يشهد العبدُ أن القرآن حقّ، والإسلام حقّ، والرسول حقّ—بل إن هذا الهدى العام لا يغني المرء فتيلاً إن لم تشمله هدايةٌ تفصيلية تنبثق في قلبه مع كل نَفَسٍ ولمحة. وعلّة ذلك أن الإنسان خُلق في أصله «ظلومًا جهولًا» ، (فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر **فيحتاج دائما إلى علم مفصل** يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه .. فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم)[2].

وصفوة القول التي يرمي إليها ابن تيمية: أن **مراتب الهداية مدارجُ لا تتناهى، تنعكس في كل جزيئةٍ من حركات العبد وسكناته لتوافق مراد الحق سبحانه**. وهذا ما يَعبر عنه علماء العقيدة بـ" دوام التوفيق"؛ فالهداية العامة التي هي معرفة الحق وتُسمى "هداية الإرشاد"، لا تجزئ العبد ولا تنقذه إلا إذا واكبتها وعضدتها "هداية التوفيق" الجارية في سائر الأحوال والمقامات، تصديقًا لقوله جل شأنه :(**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) .ومن هنا كان الافتقار إلى الزيادة من الهدى شأنَ العبد الملازم له في كل آن.

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 143
[2]) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج22 ص 401

قوله (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)(17) ليس معناه نفي هداية الإرشاد العام فهي حاصلة لكل أحد ، بل المقصود هو ضلالهم عن دلالة التوفيق ، لأنهم ضلوا عن إرشاد الله لهم ، فلم ينتفعوا بها ، إذ لا تجزئ هداية الإرشاد في النجاة ، بل لابد وأن تدفع هداية الإرشاد العبد –إذا انتفع بها– لهداية التوفيق ، قال القيرواني (والهدايةُ هدايتان: –

- **هدايةُ الدَّلالة والإرشاد**، وهذه حاصلةٌ لكلِّ أحد، ومن أدلَّتها قول الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، أي: أنَّك تدعو كلَّ أحد إلى الصراط المستقيم
- **وهداية التوفيق**، وهي حاصلةٌ لِمَن شاء اللهُ هدايتَه ، ومن أدلَّتها قول الله عزَّ وجلَّ (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

وقد جمع الله بين **الهدايتَين** في قوله: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، فقوله: "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ" أي: كلَّ أحد، **فحُذف المفعول لإرادة العموم**، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقوله: " وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " **أظهرَ المفعولَ لإفادة الخصوص**، وهي هداية التوفيق)[1].

قوله (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) (18) هذا هو الأمر الثالث في شأن تهيئة المرفق ، ويقصد به (الحراسة) ، وأول شيء في الحراسة أن يظل أهل البيت متيقظين ، فلا يتلصص عليهم أحد حتى يتأكد من غفلتهم أو خروجهم ، وآخر مراتب الحراسة الإرهاب والإرعاب ، بحيث يرتدع كل من تسول له نفسه أن يعتدي عليهم ، فلا يملك الجراءة لفعل ذلك ، وهو ما تحقق في شأن أهل الكهف كما في قوله (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) ، ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها)[2].



قال ابن كثير (ذكر أن الذئب ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد .

ولذلك قال الشاعر : – يَنَامُ بإحْدَى مُقْلَتَيه وَيَتَّقِي ... بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ ...

وهذا الأمر نستشف منه فقه الحراسة ، فهي تقوم في المقام الأول على التخويف والإرعاب وليس على القوة الحقيقية والسلاح ، ولذلك فإن إدارة الدولة لمرافقها وحراستها لها لا يستلزم جيشا جرارا وإن كان يحتاج ذلك ، بل

---

1) عبد المحسن بن حَمَد العبَّاد البدر : قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني ص 102

2) تفسير ابن كثير ج5 ص 143

يكفي أن يرى الناس تواجد الحراس في مرافق الدولة بأسلحة خفيفة ليتوهم المجرمون أنهم قادرون على استدعاء غيرهم في التو واللحظة عند الحاجة .

إذ تتبلور في نظريات الفقه السياسي الإسلامي ركيزة "الهيبة" كدعامة أولى لحفظ النظام العام، وقوة كابحة للجريمة قبل وقوعها عبر مفهوم "الردع الوقائي". وفي هذا السياق، يقرر الإمام الماوردي في "الأحكام السلطانية" أن جوهر الإمامة يقوم على "حراسة الدين وسياسة الدنيا"، مؤكداً أن استتباب الأمن لا يتأتى باستعراض الجيوش وتسييرها في الحواضر، بل بـ "ظهور القهر وبسط الهيبة"؛ حيث يغدو وجود الحارس أو الشرطي (صاحب العسس) في المرفق العام بزيّه وسلاحه الخفيف رمزاً تختزل فيه الدولة سيادتها كاملة، لا مجرد قوة فردية عابرة. ويلتقي هذا الطرح مع فلسفة ابن خلدون في "المقدمة" حول "الوازع السلطاني"، إذ يرى أن الطبيعة البشرية نزّاعة للعدوان ما لم يكبحها وازع، وهو وازع نفسي بالمقام الأول؛ فمعاينة الناس لمظاهر السلطة وتنظيم مرافقها يذكي في مخيلتهم القوة العظمى الكامنة وراءها، فيكفون عن الإفساد تهيباً من "العقوبة المتوقعة" لا "القوة المشاهدة."

وتتطابق هذه الرؤية التراثية مع فلسفة الإدارة السياسية الكلاسيكية، المعرفة بـ "سياسة الهيبة" أو "فطنة الحراسة"، والتي تقوم على أن الردع النفسي وإظهار الهيبة أشد أثراً وأوفر اقتصاداً للدولة من الاستخدام الفعلي والمستمر للقوة العسكرية؛ وهي الفلسفة التي تقاطعت مع المذهبين النفعي والواقعي تحت مسمى "الردع بالتوهم."

أما في الفكر الإداري والسياسي الحديث، فتُدار المرافق العامة وفق مبدأ "اقتصاد القوة" (Economy of Force)؛ وهو ما يفسر سيكولوجية "توهم الاستدعاء الفوري" لدى الخارجين عن القانون. إذ يولد هذا المبدأ شعوراً دائمًا لدى الأفراد بأنهم تحت عين الرقابة في أي لحظة، وأن الحارس القائم ما هو إلا طليعة لمنظومة ضخمة قادرة على التدخل الفوري، مما يدفع المجرم إلى ضبط سلوكه ذاتياً دون حاجة لحراسة عسكرية مباشرة[1].

وتتكامل هذه الرؤية مع مفهوم إدارة المرفق العام بـ "القوة الرمزية"، أو ما يُصطلح عليه في علم الإدارة الحديث بـ "الحضور الردعي(Deterrent Presence) "؛ فالغاية هنا ليست خوض المعارك، بل إبرام رسالة حازمة

---

1) انظر في هذا المعنى **كتاب "عن الحرب – (On War) "كارل فون كلاوزفيتز :(Carl von Clausewitz)** هو المرجع الأول والأهم الذي اشتق منه هذا المبدأ؛ حيث ركّز كلاوزفيتز على فكرة أن أي هدر للوقت أو تشتيت للقوات يتعارض مع الاستراتيجية السليمة، وناقش كيفية موازنة الجهد الرئيسي والثانوي] .

كتاب "فن الحرب – (The Art of War) "بارون أنطوان هنري جوميني :(Antoine-Henri Jomini) يمثل المدرسة التنظيمية والهندسية للحروب، وتناول فيه كيفية توزيع القوات استراتيجياً لضمان التفوق العددي في النقاط الحاسمة وتوفير الجهد في النقاط الأخرى

كتاب War: A Matter of Principles (سلسلة الدراسات الدفاعية RUSI): يحتوي على فصل خاص ومستفيض بعنوان *Economy of Effort* للباحث ديفيد إيفانز، يشرح فيه المفهوم ويفكك الفهم الخاطئ الذي يخلط بين "اقتصاد القوة" وبين "الشُح أو التقشف العسكري".

مقال "Mass and Economy of Force" – بول ميردوك (كلية الحرب العسكرية الأمريكية): دراسة منشورة في دورية *Parameters* تحلل بدقة العلاقة الطردية والعكسية بين مبدأ الحشد ومبدأ اقتصاد القوة في الحروب المعاصرة.

كتاب Economy of Force: Counterinsurgency and the Historical Rise of the Social – باتريشيا أوينز (مطبعة جامعة كامبريدج، 2016): يأخذ المفهوم إلى أبعاد سياسية وتاريخية أوسع، حيث يدرس استخدام مبدأ اقتصاد القوة في عمليات مكافحة التمرد (مثل مالايا، كينيا، فيتنام، وأفغانستان).

للمخربين بأن هذا المرفق متصل وثيقاً بـ "شبكة سيادية أعلى" تضم خطوط إمداد وقوات دعم سريع، مما يخلق وعياً نفسياً رادعاً يفوق بكثير حجم السلاح الخفيف المشاهد[1].

وختاماً، يجمع الشراح في باب "السياسة الجنائية" على أن الحارس في الأسواق والمرافق العامة يمثل "عين الدولة" الناظرة؛ فاللص لو استشعر غياب الدولة لقاتل الحارس منفصلاً، لكنه يلوذ بالفرار لأنه يبصر في هذا الحارس "الدولة بكامل ثقلها وهيبتها". وبناءً عليه، فإن الدولة الرشيدة هي التي تدير مرافقها بـ "الهيبة الكافية" التي تحيل السلاح الخفيف رمزاً لجيش جرار يقف وراءه، وهو ما يُعرف في فقه الحراسة الأصيل بـ "إيقاع الرعب في قلوب أهل الدعارة والفساد" من خلال التواجد المنظم والمستدام.

قوله (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) وتلك هي الرعاية الصحية التي كفلها الله لهم ، وهو العنصر الرابع من تهيئة مرفق معاشهم ، لأن تقليبهم يمنع تقرح أجسادهم ، ويحول دون أن تأكل الأرض أجسادهم ، ويساعد على تنشيط الدورة الدموية في أجسادهم .

قال الرازي (فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم . وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضاً من غير تقليب؟)[2]،وللإجابة على سؤال الرازي يستبين لنا أن الله تعالى يؤكد لنا أنه يحفظ عباده في الدنيا بقوانين الدنيا ، المعجزة عندما تحصل تحصل بأسباب الدنيا ، مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فانشق إلى فلقتين ، وكان من الممكن أن ينشق البحر دون أن يضربه بعصاه ، ولكن مشيئة الله اقتضت أن تحصل المعجزة بأسباب الدنيا .

كذلك فإن التقليب يُظهر إكرام الله لهم بالرعاية المستمرة، ولو عُطلت كل القوانين الفيزيائية لصار الأمر كله خارجاً عن إدراك العقل البشري، بينما دمج المعجزة (النوم الطويل) مع الأسباب الطبيعية (التقليب، فجوة الكهف، مرور الشمس) يجعل القصة قابلة للتدبر والفهم.

إذن **القدرة الإلهية لا تعجز عن حفظهم بلا تقليب، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت تربية العباد على احترام "قانون الأسباب"**، وإظهار أن الله يحفظ أجساد عباده الصالحين من خلال تسخير سنن الكون لأجلهم، وليس فقط بمجرد تعطيلها.

قوله (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) تأكيد لمظهر الحراسة ، وقد كانوا يصطحبونه معهم لأجل تلك الغاية





[1]) https://www.cfr.org/education/learn/reading/what-deterrence

[2]) تفسير الرازي ج10 ص 182

فهذه هي وضعية الحراسة للكلب ، حيث يكون وجهه في مقابلة الداخل من الباب ، وبهذه الوضعية يتهيأ الداخل للكهف أن الكلب في وضع الاستعداد للقفز عليه لو اقترب منه أكثر ، فيرتعب ويرجع بهدوء حتى لا يوقظه ، قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب , وهذا سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم , وكان جلوسه خارج الباب , لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ، نقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : **الوصيد الفناء** , وقال ابن عباس : بالباب . وقيل : بالصعيد وهو التراب , والصحيح أنه بالفناء وهو الباب , ومنه قوله (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ) (الهمزة/8) أي مطبقة مغلقة[1] .

أما من يقتني كلبا للتفاخر أو اللعب فليس من الإسلام ، يقول النبي ﷺ (مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبًا ضَارِيًا لِصَيْدٍ أَوْ كَلْبَ مَاشِيَةٍ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ)[2] ، (يخبر النبي ﷺ أن من اقتنى كلباً لا لشيء من المقاصد الشرعية الصحيحة بأن يكون اقتناه ليصيد به الصيد أو اقتناه ليحمي له الماشية أو اقتناه ليحمي له الزرع فمن اقتناه لشيء من هذه الثلاثة نجا من الإثم ونقصان العمل ومن اقتناه لغير هذه المقاصد فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراط)[3] .

قوله (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) (18) وهذا هو دليل تحقق عنصر الأمان لهم ، فالأمان يتحقق بمجرد الحراسة والمهابة ، ودون حاجة للمقاتلة والمبارزة ، **فبالتواجد الأمني وحسب يتحقق الأمان** ، ولذلك يقول النبي ﷺ (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[4] ، أي أن الله سبحانه جعل بينه وبين أعدائه الذين يبعدون عنه مسيرة شهر حاجز نفسي ومعنوي يحول دون أن يتجرأوا على مهاجمته .

بذلك نفهم كيف أنهم ظلوا على هذا الحال من الحراسة ولم يدخل عليهم أحد ، ولم تقترب منهم دوريات المارة التي كانت تجول في البلاد ، فلم يتجرأ أحد على أن يقتحم مكانهم إذا اطلع ونظر إليهم ، حيث يصيبه الرعب من منظرهم وحراسة كلبهم ، وذلك كله من باب "الخداع البصري" ، فهم في الحقيقة أشبه "بالأموات" ، وليس عندهم طاقة لفعل شيء ، ولكنها معية الله بعباده المؤمنين ، فهو يدخرهم للوقت الذي يستعملهم فيه ، يقول النبي ﷺ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فَقِيلَ كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ**)[5] ، فهؤلاء الفتية استعملهم الله قبل موتهم ، في الوقت والزمان الذي أراده ، أحياهم وبعثهم ليستعملهم فيما أراد من الخير ووفقهم للعمل الصالح.

قوله (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) (19) أي بعدما استيقظوا وسألوا أنفسهم عن المدة التي استغرقوها في النوم ، فلما لم يجدوا إجابة محددة فوضوا أمرهم إلى الله ، ولم ينشغلوا بتخمين الإجابة لأن الاستطراد في البحث عن الإجابة من قبيل تحصيل العلم الذي لا يبنى عليه عمل ، قال رسول الله ﷺ (**إن الله عز وجل يحب معالي الأمور ويكره سفسافها**)[6]، فهذا هو منهج أهل العلم ، وهو السكوت وعدم الاستقصاء فيما لايبنى عليه عمل .

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 144
[2]) رواه البخاري ج17 ص 140 رقم 5059
[3]) تأسيس الأحكام ج5 ص 162
4) رواه البخاري ج2 ص 58 رقم 323
5) رواه الترمذي ج8 ص 32 رقم 2068 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 142 رقم 2142
[6]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج3 ص 210 رقم 2940 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص278رقم2771 السلسلة 168/4

فالمسلم الحق ابن وقته، ينظر إلى غده بعين الأمل والعمل، ولا يلتفت إلى أمسه إلا بعين الاعتبار والندم؛ فالماضي بصفحاته المطوية—خيرِها وشرِّها—قد انقضى بحلوه ومرِّه، وليس من الحكمة في شيء أن يستقطع المرء من حاضرٍ يعيشه، أو مستقبلٍ يبنيه، ليقف باكيًا أو متباكيًا على أطلال ما مضى، ما لم يكن هذا الالتفات استدراكًا لخطأ، أو تقويمًا لخلل، أو تجديدًا لتوبة نصوح. أما اجترار الماضي لمجرد التباكي أو التفاخر، فهو من إهدار العمر في غير طائل، وهو مسلك يباعد بين العبد وبين معالي الأمور.

وقد تضافرت الأدلة الشرعية وتوجيهات علماء التربية، والعقيدة، والفقه على تأصيل هذا المعنى:

فقد رسم النبي ﷺ للمسلم منهجًا حازمًا في التعامل مع الوقت والقدر؛ فالمستقبل يُستقبل بالعمل المستمر، والماضي إذا مضى يُسلّم فيه للقضاء والقدر دون فتح لأبواب الحسرة التي لا تنتج عملًا.

قال رسول الله ﷺ (**احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، **فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَما شَاءَ فَعَلَ**، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1].

وجه الدلالة: الحديث يأمر بالتوجه نحو المستقبل بالحرص والعمل، وينهى عن التوجع على الماضي بكلمة "لو" التي تورث العجز والكسل وتفتح باب الوساوس.

ويرى علماء السلوك والتربية أن الانكفاء على الماضي عائق نفسي وتربوي كبير يمنع النفس من التطور والنضج.

يقول الإمام ابن القيم مبيّنًا حقيقة وقت الإنسان :(**وقتُ الإنسان هو عمره في الحقيقة**، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة عيشه الضنك في العذاب الأليم... فما مضى من وقته لا يمكن استدراكه) .ويقول أيضًا : (**فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها**)

ويقول الحسن البصري رحمه الله مذكرًا بقيمة اليوم والمستقبل :(يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)، فكل لحظة تضيع في التفكير العقيم في الماضي هي اقتطاع من ذات الإنسان ومستقبله.

ويربط علماء العقيدة بين الانشغال بالماضي (على وجه التحسر) وبين **ضعف الرضا بالقضاء والقدر**، فالمؤمن يعلم أن ما مضى قد قُدّر، وأن الواجب هو العمل لما يستقبل.

يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ما يقطع دابر الالتفات للماضي مالم يكن توبة :(والتأسف على الماضي الذي لا يمكن رده من أضر الأشياء على العبد... **فالماضي لا يُستعتب فيه، وإنما يُستعتب في المستقبل**) .فالانشغال بما فات يعطل العبد عن القيام بالعبودية الحاضرة والمستقبلية.

والفقهاء ينظرون إلى **الوقت باعتباره "رأس مال" المكلف** الذي يترتب عليه ثوابه وعقابه، وإهداره في غير مصلحة معتبرة شرعًا يدخل في باب الكراهة أو التحريم ، ولذلك نهي النبي ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال [2]، حتى يدخر المسلم طاقته ووقته فيما يفيد .

فالقاعدة الفقهية المأخوذة من مقاصد الشريعة تقرر أن"**المشغول لا يُشغل**"، ونفس العبد إن لم يشغلها بالحق والخطط المستقبلية شغلته بالباطل والترهات.

---

1) صحيح مسلم

2) رواه البخاري ج20 ص 113 ص 5992

ويوجه الفقهاء إلى أن الاستغفار والتوبة هما المبرر الشرعي الوحيد للالتفات للماضي؛ لتطهير الصحيفة ثم الانطلاق مجددًا، أما ما زاد عن ذلك من هدير الوقت فهو مغبون صاحبه، لقوله ﷺ **(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ).**

فالفقيه هو الذي يجعل من ماضيه مدرسة لتصحيح المسار، وتجديد الاستغفار، وتعديل الخطط؛ ويجعل من مستقبله ميدانًا للبناء، والعمل، والإنتاج، فالمسلم لا يملك من عمره إلا اللحظة التي هو فيها، والغد الذي يستعد له.

فقوله (..رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) (19) ينطوي على أدب رفيع من هؤلاء الفتية **بتفويض العلم لله** ، فقد أراد الله في هذا الوقت أن يُجلي أمرهم للناس بعد رقدتهم الطويلة، ليروا المعجزة حية أمامهم، فيزدادوا إيمانًا، ويستشعروا لطف الله بهؤلاء الفتية **الذين** ظن الناس أنهم قد اندثروا، فيستيقنوا بأن الله كما حفظهم كل هذه الفترة في ظلمة الكهف، ومن قومهم الظالمين ، فإن حفظه ورعايته تشمل كل المؤمنين الحاملين للواء هذه الدعوة. وبذلك تحولت قصتهم إلى **برهان** ساطع وحجة دامغة على البعث، فرؤيتهم بهذه العملات القديمة وببعض ورقات من الإنجيل دليل على أنهم من زمن غير الزمان، وعودتهم بعد كل هذا **الوقت بمثابة آيةٍ** على قدرة الله على البعث لا مراء فيها ، ودليل ساطع على ظهور كلمة الحق ولو بعد حين .

قوله (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) (19) أول ما انشغل أصحاب الكهف بعد رقدتهم الطويلة انشغلوا بتغذية أجسادهم لأنهم بحاجة إلى طعام بعدما شعروا بالجوع ، وأحسوا بأنهم غير قادرين على العبادة واستكمال الأعمال الصالحات دون تغذية ، من هنا نفهم أن تناول الطعام عبادة إذا كان سببا لتحصيل عبادة ، ولذلك يقول النبي ﷺ **(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ** وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ..)[1]

وتلك من المعجزات الإلهية أن تبقى أجسادهم بدون طعام طيلة هذه الفترة ، فسبحان الله ، (فالعجب كل العجب أنهم لما كانوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين في مقام عندية الحق خارجين من عنديتهم ما احتاجوا إلى طعام الدنيا وقد استغنوا عن الغذاء الجسماني بما نالوا من الغذاء الروحاني كما كان حال النبي ﷺ يواصل الأيام)[2] ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ **نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ فَقَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ قَالَ إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ)** [3]، وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا آكُلُ اللَّحْمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا **لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)**[4].

---

[1]) رواه ابن ماجة ج1 ص 87 رقم 76 :ورواه مسلم ج13 ص 142 رقم 4816
[2]) اسماعيل حقي الخلوتي : تفسير روح البيان ج5 ص 177 نقلا عن التأويلات النجمية لنجم الدين
[3]) رواه البخاري ج7 ص 69 رقم 1828
[4]) رواه مسلم ج7 ص 175 رقم 2487

لكنهم لما عادوا لطبيعتهم البشرية طلبوا الطعام واختاروا أزكاه ليقدروا على مواصلة الجهاد والفرار بخفة ، وهذا يعني أن التمول والزاد بقدر الحاجة ، فالطعام الزكي هو الذي يمد الجسم بما يحتاجه الإنسان في ساعته ، إذ تلتقي علوم الطب والتغذية مع مقاصد الشريعة الإسلامية في التأكيد على أن العبرة في الغذاء هي **الجودة والنوعية (القيمة الغذائية)** وليست الكثرة والوفرة.

إذ يرى علماء التغذية والأطباء في العصر الحديث أن "التغذية النوعية" هي أساس الصحة المستدامة والوقاية من الأمراض، ويظهر ذلك في عدة محاور:

مفهوم "**كثافة العناصر الغذائية** :(Nutrient Density) "يؤكد أطباء التغذية أن الجسم لا يحتاج إلى كميات هائلة من السعرات الحرارية الفارغة (مثل السكريات والدهون المشبعة)، بل يحتاج إلى أطعمة غنية بالفيتامينات، المعادن، الألياف، ومضادات الأكسدة التي تفي بحاجته الحيوية دون إثقال كاهل الأجهزة الحيوية.

الوقاية من أمراض العصر :يربط العلماء بين "كثرة الطعام" (الإفراط في التغذية) وبين انتشار أمراض السمنة، السكري من النوع الثاني، أمراض القلب، والالتهابات المزمنة. ويقول أطباء الفيزيولوجيا إن الهضم الزائد يستهلك طاقة الجسم ويصيبه بالخمول والتشبع بالسموم.

مقولة الحارث بن كلدة (طبيب العرب) التي تبناها الطب الحديث كقاعدة ذهبية: «المعدة بيت الداء، والحِمية رأس كل دواء». والحمية هنا لا تعني التجويع، بل حسن اختيار نوعية الطعام وضبط كميته.

وقد استفاض علماء الشريعة والتفسير في بيان معنى "الأزكى" كما يلي :-

الطيب والنقاء والبركة :يذكر الإمام القرطبي والشوكاني في تفسيريهما أن "أزكى طعاماً" تعني أطيبه، وأنقاه من الشوائب، وأكثره بركة ونفعاً للبدن، وليس أكثره كمية أو أغلاه ثمناً.

الحلال الطاهر :ركز الفقهاء على أن الزكاة في الطعام تعني طهارته ومجيئه من كسب حلال، لأن الطعام الحلال يزكو به البدن وتصلح معه النفس والعبادة.

تأصيل قاعدة "النوع لا الكم" : إذ يستدل العلماء بحديث النبي ﷺ الذي يضع أدق ميزان صحي في تاريخ البشرية: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ...» (رواه الترمذي). وعبارة" يُقمن صُلبه "تعني علمياً وفقهياً: ما يفي بحاجة الجسم الأساسية من القوة والنشاط دون زيادة تؤدي إلى التخمة والضعف.

فقد تضمنت الآية إعجازاً تشريعياً؛ فما سمّاه القرآن الكريم قبل قرون طويلة طعاماً" **أزكى** "أي أنفع للبدن والروح، وأطهر وأبرك ، هو عينه ما يطلق عليه علماء التغذية اليوم" **الغذاء الصحي عالي القيمة** "فصحة الإنسان وصلاح بدنه مرتبطان بكيفية الغذاء ونوعه، لا بضخامته وكثرته.

قوله (..بِوَرِقِكُم..) (19) فالمقصود بالورق "النقد" ، فقد جمعوا النقود من الجميع ، وخلطوها معا ليشتروا طعاما مشتركا ، (وإن كان فيهم من يأكل أكثر ومن يأكل أقل)[1] ، ما يدل على توافر مفهوم التكافل والتضامن لديهم ويؤكد وجوب تعاضد بين المسلمين لمواجهة ظروف واحدة وإن اختلفت حاجة كل منها في الإشباع ، ولكن فهمهم للمسألة أعمق ، فكل فرد منهم يبغي مصلحة المجموع ، ولذلك يقول النبي ﷺ (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع) [2].

والنقد الذي أرسلوا به صاحبهم ليشري لهم طعاما هو ورق من عهدهم القديم ، ولا يصلح كعملة في الزمن الجديد الذي بعثوا فيه ، والورق هو عملة من فضة مصكوكة باسم الملك الظالم في زمنهم ، ولكن التعامل بها قد بطل لأن الله أهلكه ،واستبدل آخرين بقوم غابرين ، وكان ذلك سببا لانكشاف أمرهم ، ولكن الناس تغيروا ، فلما انكشف أمرهم للناس لم يكونوا ظالمين مثل الغابرين الذين اضطهدوهم .

فعن عكرمة رضي الله عنه قال : **كان أصحاب الكهف أبناء ملوك** ، رزقهم الله الإسلام فتعوذوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف ، فضرب الله على صماخاتهم فلبثوا دهراً طويلاً حتى **هلكت أمتهم ، وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلماً** ، واختلفوا في الروح والجسد فقال قائل : يبعث الروح والجسد جميعاً . وقال قائل : يبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق على ملكهم اختلافهم فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ، ثم دعا الله فقال : أي رب ، قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف ، فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً فدخل السوق ، فلما نظر جعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ، ورأى الإيمان ظاهراً بالمدينة . فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً ، فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها . حسبت أنه قال : كأنها أخفاف الربيع – يعني الإبل الصغار – فقال الفتى : **أليس ملككم فلان؟ قال الرجل : بل ملكنا فلان** . فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك ، فنادى في الناس فجمعهم فقال : **إنكم اختلفتم في الروح والجسد وإن الله قد بعث لكم آية** ، فهذا رجل من قوم فلان – يعني ملكهم الذي قبله – فقال الفتى : انطلق بي إلى أصحابي . فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف ، فقال الفتى : دعوني أدخل إلى أصحابي . فلما أبصروه وأبصرهم ضرب على آذانهم ، فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه ، **فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير** أنها لا أرواح فيها . فقال الملك : هذه آية بعثها الله لكم)[3] .

في قوله تعالى :﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(19) توجيهٌ حكيم لفتية الكهف بالحرص التام على إخفاء أمرهم وكتمان سرهم عند النزول إلى القرية لشراء الطعام[4]؛ إذ كانوا مضطرين للتعامل مع مجتمعٍ فروا منه لشركه بالله. ومن هنا جاء الأمر بالتلطف في البيع والشراء لئلا يثيروا ريبة أهل القرية أو يغروهم بأنفسهم[5]. وفي هذا يقول الزمخشري: "**وليتكلف اللطف فيما**

[1]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج3 ص 115
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 52 رقم 112 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 52
[3]) أخرجه ابن أبي حاتم ج9 ص 189 رقم 13774 ، الدر المنثور ج6 ص 343
[4]) النكت والعيون للماوردي ج2 ص 468
[5]) في هذا المعنى التفسير المسير ج5 ص 123 عبد الله بن عبد المحسن التركي / مجمع مصحف الملك فهد

يباشره من أمر المبايعة"[1]، ويعضده الألوسي بقوله: "وليتكلف اللطف في المعاملة **كي لا تقع خصومة تجر إلى معرفته.**"[2]

والمقصد العميق من هذا التوجيه هو تلافي أي تصرف غير مقصود يؤدي إلى كشف أمرهم، فسمّاه الله "إشعاراً" لأن التصرف العنيف سببٌ في لفت الانتباه[3]؛ كأن يتشاجر أحدهم مع بائع يتعامل بالربا أو المحرمات فينكشف منهجه وتميزه العقدي، فينقشع سترهم ويظهر الأعداء عليهم.

إن "التلطف" خلق إنساني عظيم في أصله، وهو في ميدان الدعوة أشد طلباً، وفي أوقات الفتن والمحكّات أوجب وألزم؛ فكلما تلاطمت أمواج الفتن، كان التحلي باللطف والرفق أداة النجاة ، فالشديد حقاً هو من يملك نفسه عند الغضب.

وفي فقه التعامل مع الخلق، يذكر الإمام ابن القيم:"**ملاطفة الخَلْق، وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف**، ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة فإن ذلك ينفرهم عنه ويغريهم به ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف؛ فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته، وإما عدو ومبغض فتطفئ بلطفك جمرته وتستكفي شره، ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به."[4]

وهكذا هو شأن الدعاة في أزمنة الفتن؛ واجبهم التلطف والمداراة لا التظاهر والمهاترة، وغاية مرادهم ألّا يشعر بهم المتربصون، وليس إثبات الوجود في كل محفل لمجرد نكاية الأعداء وإغاظتهم، إذ ليس ذلك من فقه الدعوة في شيء. إن مرحلة التلطف ليست مجرد مساحة رمادية بين الاستضعاف والتمكين، بل هي خلق أصيل يلازم الداعية في كل أحواله؛ قبل التمكين وحال الاستضعاف وبعده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

إن **التلطف في مسيرة الدعوة منهج حركي قائم بذاته**، وهو الرفق في السير نحو تحقيق المشروع الإسلامي دون إثارة الخصوم أو جلب المصاعب المجانية. فالإشارة القرآنية في قصة أهل الكهف تبرز فتيةً في مقتبل العمر، نشؤوا في بيئة كفر وتحت وطأة حكم طاغية مستكبر، فاستُضعفوا وفروا بدينهم خشية الفتنة. وكان بمقدورهم –باندفاع الشباب– أن يجهروا بأمرهم ويصطدموا بالواقع ويستقبلوا الموت بصدور عارية، لكن هذا الاندفاع لا يبني أمة ولا يحمل رسالة؛ فالرسالات تحتاج البقاء والنماء والمرحلية.

وهذا التلطف هو ذاته المنهج النبوي الذي سار عليه الرسول ﷺ ؛ ففي فجر البعثة مكث ثلاث سنوات يدعو سراً قبل أن يصدع بالدعوة فوق جبل الصفا. وفي هذا يطرح الدكتور أيمن هاروش تساؤلاً بليغاً: "فلماذا لم يجهر النبي ﷺ من البداية، وهو المؤيد بالوحي في طرحه، والمنصور من الله في حربه؟ إنه التلطف". وعندما أذن الله له بالهجرة، استفرغ ﷺ كل أساليب التلطف والحيطة والسياسة الحكيمة –وهو النبي المعصوم–؛ فسلك طريقاً ساحلياً غير مألوف لقريش، واختبأ في الغار أياماً، وسار ليلاً؛ كل ذلك إعمالاً للأسباب، وتحقيقاً لمنهج اللطف حتى لا يشعر به أحد[5].

---

[1]) الكشاف ج4 ص 2
[2]) تفسير الألوسي ج11ص 188
[3]) الكشاف ج4 ص 2
[4]) مدارج السالكين ج2 ص 511
[5]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست /https://nedaa-post.com

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 19-20] يستبين فقه التلطف ومناطات الموازنة بين عزيمة الفرد وسياسة الأمة . إذ تتجلى في التدبير القرآني معالم الحيطة والاحتراز في مظان الخطر؛ إنها دعوة ربانية صريحة لالتزام اليقظة عند الحركة والتخفي؛ مخافة أن يقع المبعوث لشراء القوت في قبضة الخصوم، فينكشف أمر الجماعة وتستباح بيضتها، فيذوقوا أشد ألوان التنكيل والاضطهاد، أو يكرهوا على الارتداد عن دينهم. وفي هذا السياق يأت التوجيه النبوي الحكيم في قوله ﷺ : (**أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**) [1].

من هذا المورد الخصب، يستبين للناظر وجوب تقيّيم المخاطر التي تحيط بالدعوة، لا سيما حين يكون القرار المتخذ قراراً مصيرياً جماعياً لا فردياً. فالتقييم الانفرادي يعجز عن إدراك مصلحة المجموع؛ ولذا وجب أن يصاغ القرار المشترك بوزن ظروف الضعفاء وأقلهم جَلدًا واحتمالاً.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ لدلالةٌ واضحة على وطأة الإكراه البالغ الذي قد يعصف بالمؤمن في أزمنة الاستضعاف، حتى تضطر جارحته للنطق بكلمة الكفر بلسانه بينما النبض مطمئن بالإيمان في جنانه.

وقد فقه المفسرون هذا المعنى الدقيق؛ إذ يقول النيسابوري في قوله: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾: " لأنهم خافوا أن يجرهم ظاهر الموافقة إلى الكفر القلبي)[2].

إذ جاء نفى الفلاح على التأبيد مع أن كفر المكره لا يضر؛ فكُفرَ المكرَه مع طمأنينةِ القلبِ بالإيمانِ معفوٌّ عنه—لِمَا خامَرَ نفوسَهم من خشيةِ أن تؤولَ موافقةُ الظاهرِ، بمرورِ الأيام، إلى زوغانٍ في الباطن؛ إذ النفوسُ مَجبولةٌ على الأُلفة، والظواهرُ بريدُ السرائر.

ولقد أدركوا بعينِ البصيرةِ أنَّ إظهارَ الكفرِ مَزلقةٌ تتوارثُها الأجيالُ؛ فإذا كان الجيلُ الأوَّلُ يُبطنُ الإيمانَ ويُداري بالتقية، فإنَّ جيلًا سيعقبُه يَنشأ على روعةِ المشهدِ الجاهليّ لآبائِه، فتتَبلدُ في نفسِهِ غَيرةُ الدين. ثم يتلوه جيلٌ ثالثٌ يرى آباءَهُ قد انسلخوا من شعائر الله سِرًّا وعَلانية، فلا يَعلقُ بقلبِهِ من الإسلامِ إلا رسمُه، ولا يَبقى في وعيِهِ غيرُ اسمِه، حتى تَفضي هذه السلسلةُ من التنازلاتِ إلى جيلٍ خاوٍ، لا يَرى في الكفرِ مأثمًا، ولا يجدُ في الردةِ غَضاضة..

وهنا ينفتح باب فقهي جليل في التمييز بين "مناطات الأفراد" و"مناطات الأمة"؛ فللفرد المستضعف له أن يترخص استبقاءً لمهجته، كصنيع عمار بن ياسر –رضي الله عنه– الذي نطق بكلمة الكفر تقية وقلبه مفعم بالإيمان، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]. كما أن له أن يستمسك بالعزيمة ولا يبالي بالحتوف.

بيد أن هذا الخيار الفردي يضيق متسعُه في حق مَن يقود الأمة ويرتهن مصير المجموع بسلوكه وقراره؛ إذ يغدو لزاماً عليه الأخذ بالرخصة والمداراة، وألا يحمل الأمة برمتها على جادة العزيمة الشاقة.ولنا في السيرة العطرة شاهدان يوضحان هذا التمايز :–

[1]) رواه البخاري ج10 ص 124 رقم 2744
[2]) تفسير النيسابوري ج5 ص 162

المشهد الأول: صنيع أبي بصير بالقياس إلى حكمة النبي ﷺ : فحين كان أبو بصير رجلاً فرداً، تحرك بأسلوب حرب العصابات، ونكّل بقريش حتى قال فيه المصطفى ﷺ : (وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ). كان النبي ﷺ –ولأنه يمثل الأمة وتناط به مقاديرها– قد رضي بصلح الحديبية ونزل على شروطه المجحفة في ظاهرها، فاستشف بميزان الرؤية الاستراتيجية بوادر النصر في تلك المهادنة. ولم يكن منهج أبي بصير مناقضاً للمنهج النبوي في جوهره، بل كان اختلافاً فرضته طبيعة الظرف؛ حيث تختلف خيارات الفرد القائم بنفسه عن خيارات القائد المسؤول عن كيان الأمة.

والمشهد الثاني: قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: إذ يروي ابن عباس –رضي الله عنهما– مستهلاً القصة الشائقة: "ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟"، وينقل عن أبي ذر كيف شد الرحال إلى مكة مستقصياً خبر النبوة، وكيف تلطف علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– في إيوائه والتحايل لإيصاله إلى المصطفى ﷺ خشية عين قريش، حتى إذا لقيه وأسلم، بادره النبي ﷺ بالسياسة الدعوية الحكيمة قائلاً: (يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ) [1].لكن أبا ذر –بما جُبل عليه من حماسة الفرد وعزيمته– لم يطق كتمان الحق، فصدع بالشهادة في نوادي قريش مرتين، فجرعوه غصص الضرب والتنكيل حتى كاد يقضي لولا تدخّل العباس بن عبد المطلب بميزان المصلحة القبلية والاقتصادية. لقد غلبت عاطفة أبي ذر الجياشة ورقة قلبه طاقته على التلطف والمداراة في موطن الاستضعاف، وهي ذات السجية التي بدا أثرها لاحقاً في مواطن الولاية؛ إذ قال له النبي ﷺ مشفقاً عليه: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي؛ لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ) [2].

وفي الختام نستنتج أن حركة أبي ذر رضي الله عنه كانت تعبيراً عن "مناط الفرد" الذي تأخذه العزيمة والجهر بالحق دون موازنة للمآلات الجماعية، وهو مسلك يباين السياسة الشرعية العامة التي اختطها النبي ﷺ لدعوته وأمته في تلك الحقبة الحرجة. ومن هنا يتأكد أن قيادة الأمة وفقه الدعوة يتطلبان بصيرة نافذة تضع الرخصة في موضعها والعزيمة في نصابها، وتدرك أن حماية المجموع مقدَّمة على حماسة الفرد ، (فمن كان يقود الأمة، ويتأثر مصيرها يتأثر بفعله يجب عليه أن يترخص، ولا يأخها — برمتها – بالعزيمة ، لأن مناطات الفرد ليست كمناطات الأمة) [3].

[1]) رواه البخاري ج11 ص 349 رقم 3261
[2]) رواه مسلم ج9 ص 348 رقم 3405
[3]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست /https://nedaa-post.com

الفصل الثالث من قصة أهل الكهف

الحكمة من العثور على أهل الكهف

قال تعالى (وَكَذَلِكَ **أَعْثَرْنَا** عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ **يَتَنَازَعُونَ** بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ **مَسْجِدًا** (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ **رَجْمًا** بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ **بِعِدَّتِهِمْ** مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ **فَلَا تُمَارِ** فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) **وَلَبِثُوا** فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا **لَبِثُوا** لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)

قوله (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) يوضح الإمام القاسمي جليّة هذا التدبير الإلهي بقوله: «أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد؛ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث حق»[1]؛ ذلك أن هيئتهم في منامهم الطويل ثم يقظتهم المعجزة، تحاكي تمامًا حال الإنسان في موته ثم بعثه ونشوره)[2].

ومن مشكاة هذه الآية تتجلى حقيقة كبرى؛ وهي أن الله سبحانه هو المتفرد بتدبير أمر دعوته، وهو المحيط بتقدير الأوقات المناسبة لظهورها وبلاغها، فما على السائرين في درب الدعوة إلا بذل الأسباب المشروعة، ثم تفويض الأمر إلى بارئها. لقد اقتضت الحكمة الربانية الباهرة أن يُنقل أصحاب الكهف عبر بوابة الزمن من عصر إلى عصر، وأن يُعثر عليهم في توقيت دقيق؛ ليكونوا برهانًا ساطعًا على انتصار كلمة الحق وجندها، وشاهدًا عيانيًا ملموسًا على طلاقة القدرة الإلهية في إحياء الموتى؛ إذ كان رقادهم الطويل أشبه بالموت، وكان استيقاظهم تجسيدًا حيًّا ليوم الحساب والنشور.

كما يحمل اللفظ القرآني المعجز ﴿أَعْثَرْنَا﴾ دلالة حاسمة على أن مقاليد التدبير كلها بيد الله وحده؛ فبينما كان الفتية يسعون جاهدين لإخفاء أمرهم حذرًا من بطش الطغاة قائلين :﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، كانت الإرادة الإلهية تخط بسبيل آخر، فأظهرهم الله على رؤوس الأشهاد ليكونوا سببًا في هداية أمة بأكملها، ويرسخوا في وجدانها اليقين بالمعاد.

لقد جاء هذا الإظهار الرباني في لحظة تاريخية فارقة، كان المجتمع يعيش فيها مخاضًا من الشك، ويموج بالخلاف والجدل حول حقيقة الآخرة والبعث، كما صورها القران :﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ فكان انبعاث الفتية من مرقدهم هو الجواب الفصل والبرهان القاطع الذي حسم ذلك النزاع الفكري وأطفأ ثائرة الشكوك.

---

[1]) محاسن التأويل للقاسمي

[2]) جمهور المفسرين بالرأي على هذا القول: الكشاف 249/4 البحر المحيط 432/7 البيضاوي 474/3 النسفي 231/2

فمن ذا الذي كان يظن أن أولئك الفتية المستضعفين، الذين فروا بدينهم في عتمة الليل، سيغدون يومًا ما سببًا في تثبيت مجتمع بأسره على الحق؟ إنها التربية الإيمانية التي تقطع صلة المؤمن بالظروف المادية المحيطة، لتربط قلبه مباشرة بالوعود الربانية المطلقة؛ فمتى صدق العبد في ثباته وتضحياته، تولى الله بنفسه إظهار حقه، وصير محنته منارة يسترشد بها الحيارى، ليوقن العالم بأسره أن وعد الله حق، ولو اقتضى الأمر خرق نواميس الكون وتغيير الزمان والمكان.

قوله (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) (21) يُروى أن هذا النزاع قد احتدم بعد أن عثروا على فتية الكهف وقد فارقوا الحياة، فلم يدركوا فيهم رمقاً ليسائلوهم عن نبئهم؛ فاحتربت الآراء في كنه ما يصنعون بمرقدهم، وانقسموا إلى فريقين :-

أما **الفريق الأول**—وهم أهل العلم والإيمان في ذلك العصر—فقد رأوا من الحكمة أن يُقام فوقهم بنيانٌ يسترهم؛ إعظاماً لحرمة الموت، وخشية أن يعبث بمرقدهم زائرٌ جافٍ، أو تطال أجسادهم وثيابهم يدٌ عابثة بالتقليب والمسّ. فكان الستر والحراسة ديدنهم[1]، ولعل القائلين بهذا الرأي هم أهل العلم والإيمان في ذلك الزمان ، لأنهم فوضوا الأمر لله (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ).

وأما **الفريق الثاني**—وهم رجالات السلطة وولاة الأمر الذين مالت كفة الغلبة لصالحهم—فقد رأوا، كما يذكر ابن عاشور، أن يُشيد فوقهم مسجدٌ يكون معلماً يخلد ذكرهم، ويضمن تعاهد الناس لجنبات كهفهم بالزيارة[2]. بيد أن هذا الصنيع يباين جوهر الشرائع السماوية؛ إذ لطالما حذر المصطفى ﷺ من هذا المسلك الذي أفضى ببعض الأمم السابقة إلى الغلو، وجعل من مراقد الصالحين حواضر للعبادة والتمسح، مما أورث ضلالاً مبادؤه التزلف للقبور. وفي هذا تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ في مرض وفاته قوله: «**لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[3]، مبيّنةً أن هذا التحذير هو ما حال دون إبراز قبره الشريف خشية أن يُتخذ مسجداً.

وتلك لمحةٌ كاشفة لآفةٍ اجتماعية تتكرر؛ فما إن تنقشع غمة الظلم وتتجلى رعاية الله للمجتمعات المؤمنة، حتى يلوح في الأفق أول صدعٍ بنيوي: أن يستبد ولاة الأمر بقراراتهم ناكبين عن مشورة أهل العلم والحكمة. ولذا جاء التعبير القرآني بليغاً في قوله :(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ)، إشارةً إلى سلطة النفوذ التي تقهر سداد الرأي وتنفذ مشيئتها دون تروٍ، مصداقاً للتحذير النبوي الشريف: (**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً وَلا خَلِيفَةً إِلاَّ وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبَالاً، وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**) [4].

قوله (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (22) هذا هو **الصدع الثاني الذي يحصل في المجتمع الإيماني** ، وذلك عندما ينشغلون **بقضايا فرعية ويتركون القضايا الأساسية** ، ينشغلون

[1]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج15 ص 43
[2]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج15 ص 43
[3]) رواه البخاري ج13 ص 352 رقم 4087
4) رواه البخاري ج1 ص 99 رقم 256

بسفساف الأمور ويتركون معاليها ، يرجمون بالغيب بشأن تخمين عدد أصحاب الكهف ، وليس من وراء ذلك عمل ، يمارون في الأمر ، ويستفتي بعضهم بعضا ويتركون أصل القصة والفوائد التربوية منها .

في قوله (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) مَلمَح جليل يُرسخ أدب المعرفة؛ فأصل مسألة عِدّة أصحاب الكهف مما لا ينبني عليه تكليفٌ عملي، والعلم بها –وإن حازه نَفَرٌ قليل من الخلق– مقصورٌ على مَن يؤول عليهم نَفْعُه. فلو كان في هذا العلم هدايةٌ للعامة لما ضَنَّ الله بالحجب والمنع عنهم، إذ إن كل عِلْمٍ يمدّ العباد بالهدى مشاعٌ غير محجوب، وما اختصّ الله به قِلّةً من خلقه إلا لعلمِهِ بأنهم أهْلُ الانتفاع به.

وتلك سُنَّةُ الله في علم الغيب والشهادة؛ شأنها شأن العبد الصالح (الخضر) الذي أُوتِيَ من العِلم ما لَم يُحط به موسى عليه السلام، فانتفع الخضرُ بما عَلِم، ولم يَلْحق موسى ضَيْرٌ بجهلِ ما خَفِيَ عنه.

إن لُبّ الأمر وعين الحكمة يكمنان في عَدَم التكلّف في طلب العِلم إلا ما استبان غرضُه الشرعي وضَحَت غايته، أما الارتماء في غيابات الفضول المعرفيّ بلا ضابط، والاسترسال في كثرة السؤال، فمَسلكٌ مَذموم لا يورث إلا الشتات، ومصداق ذلك ما حذر منه نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال :(فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) [1].

قوله (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) إن عُمرَ الداعي إلى دين الإسلام والمُصلحِ أنفسُ من أن يُبدَّد في دروب المِراء العقيم، وفي ملاحقة الجدال الذي لا يثمر إلا ضياع الأوقات، ونفادِ الطاقات التي حَقُّها أن تُوجَّه للبناء والعطاء. لهذا أَدَّبَ اللهُ عبادَه بحفظِ جوهرِ الوقت، ورسم لهم مَعالِمَ الردِّ إذا دَعَت إليه الحاجة؛ فجعل الاستثناءَ في الجدال أن يكون "مِراءً ظاهراً"—وهو الجدالُ المُستنِدُ إلى نورِ الحُجَّةِ البالغة، وصِدقِ الخبرِ المُوحَى[2]، دون توغُّلٍ في التفاصيل، أو غُلُوٍّ في الخصومة، أو تعنيفٍ في الخطاب[3].

وكما جَلّى الإمامُ ابن عجيبة عمقَ هذا الأدب القرآني؛ فإن المُماراةَ المَشروعةَ لا تَتعدَّى حدودَ ما كشفَه الوحيُ وضَبَطه، مع ردِّ علمِ ما خَفِيَ إلى العليم الخبير. فلا مَساحةَ في هذا المَقام لتسفيهِ الخصم، ولا لفضِيحةِ المُخطئ، ولا للتصريح بجهلِ الجاهلين؛ فإنَّ هتكَ المَستورِ مَفسدةٌ للمودَّة، والمُجاهرةَ بالتقريع خَدشٌ لمَكارمِ الأخلاق التي هي عِمادُ الدعوةِ ورُوحُها. [4]

وقد ذكر ابن كثير الأداب التي يجب مراعاتها في إدارة الخلاف وحكاية الأقوال المختلفة ، من خلال استنباطه للمنهجٌ القويم في التعامل مع المسائل التي دلت عليه الآية ، ويرتكز على مرتكزات أساسية كما يلي :-

الإيجاز البليغ في عرض أقوال أصحاب الكهف: بما ينبئ عن الترجيح بينها دون حاجة للترجيح ، إذ بيّن الله – تعالى– في [الآية 22] من سورة الكهف ثلاثة أقوال في عدة أصحاب الكهف،

- **القول الأول** :ثلاثة رابعهم كلبهم.

---

1) رواه مسلم ج12 ص 43 رقم 4348
2) الماوردي : النكت والعيون ج2 ص 470 تفسير اب عبد السلام ج3 ص 289
3) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 942
4) البحر المديد ج3 ص 390 ، تفسير أبي السعود ج4 ص 251

- **القول الثاني** :خمسة سادسهم كلبهم.
- **القول الثالث** :سبعة وثامنهم كلبهم

فأبطل القولين الأولين ووصفهما بأنهما (رجم بالغيب)، وسكت عن القول الثالث وأقره، مما يدل على صحته.

إحقاق الحق ودحض الباطل :المنهج الأكمل في استعراض الآراء يكمن في استيعاب الأقوال المحيطة بالمسألة، مع تبيان صحيحها وإبطال سقيمها؛ فالسكوت عن قولٍ بعد إبطال ما سواه دلالةٌ على صحته.

الترفع عن الجدال العقيم: الانشغال بالبحث في توافه الأمور وخفاياها التي لا يترتب عليها عمل (كعدّة أصحاب الكهف) هو جهدٌ مهدور في "رجم الغيب"، ولذلك نُهي عن الجدال العقيم في ذلك إلا مراءً ظاهراً دون تعمق أو تكلف.والأولى بالمرء تفويض علمها إلى الله والمضيّ نحو الأهم فالأهم.

يُروى أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يسأل عن الساعة: «يا رسول الله، متى الساعة؟»، فصرفه النبي ﷺ عما لا ينفعه (وقت الساعة) إلى ما ينفعه فعلًا، فقال له: «ماذا أعددت لها؟» رواه البخاري. فهذه هي عين الحكمة؛ فالسؤال عن عدد أصحاب الكهف كالسؤال عن وقت الساعة؛ كلاهما لا يزيد في الإيمان إن عُرِف، ولا ينقص منه إن جُهِل، ولكن العمل والعبرة هما الأساس.

محاذير النقص والخطأ :يقع في النقص من يعرض الخلاف مبتورًا فيسقط الرأي الصائب، أو يورده مرسلاً دون تمحيص، بينما يقع في الخطيئة أو الكذب من يُصحح الباطل عامدًا أو جاهلاً.

حفظ الوقت من التكرار :إن حشد الأقوال وتكثيرها بألفاظٍ مختلفة بينما مرجعها ومعناها واحد، ليس إلا هدرًا للوقت وادعاءً لعلمٍ زائف يُشبه "لابس ثوبي زور".[1]

من جماع ما تقدم يمكن القول بأن قيمة العلم تكمن في ثمرته، وإن أدب الخلاف يفرض علينا استيعاب المسألة بعدل، وتبيان الحق بوضوح، والإعراض عن فضول القول الذي يسرق العمر ويشغل المرء عن معالي الأمور.

قوله (وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) تجسيدٌ لمنهج رباني قويم؛ تضمن نهيٌ صريح عن استنطاق أهل الكتاب وسؤالهم عن تفاصيل أصحاب الكهف[2]، بعد أن ساق الحقُّ سبحانه من وحيهِ المعصوم ما يروي الغليل ويغني عن كدّ السؤال. وفي هذا توجيهٌ حكيم بأن يَمكث العقل في رحاب الوحي المستبين، بدل أن يتيه في دروب المجهول ومطاوح الظنون؛ فالاشتغال بما جلاّه الكتاب أَوْلى عروةً، وأنفع أثرًا، ممّا طواه علمُ الغيب وطمسَ معالمه. ومن ثَمَّ، تجلت حقيقة علمية مفادها: أن السعي وراء ما حُجِبَ عن الأفهام ضربٌ من التكلف الذي لا يثمر رَشَدًا، ولا يليق بجهد لبيبٍ أو همّة طالب علمٍ أن تتبدد في طلب ما لا ينفع تحصيلُه.

ومن شأن هذا الأدب القرآني أن يُوصِد أبوابَ الافتتان بما حوته التوراة والإنجيل، ويصرف نفوسهم عن تتبع ما طرأ عليهما من تبديل، أو التفتيش عمّا سلم من نَسْخٍ أو تحريف؛ إذ الركض خلفها مَضيعة لِلأعمار في غير طائل.

ويشهد لهذا المنحى غضبةُ المصطفى ﷺ حين أقبل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصحيفة أصابها من بعض أهل الكتاب، فقرأها عليه، فتمعر وجه النبي ﷺ غضبًا، وقال مقالته الزاجرة: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! وَالَّذِي

[1]) تفسير ابن كثير ج1 ص9
2) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 942

نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي) [1]

ويمتد هذا السياج المعرفي ليحمي العقول من التسكع في أروقة الفلسفات المادية، أو الانزلاق في دياجير كتب السحر والشعوذة تحت مسمى "فضول المعرفة" وشغف الاطلاع؛ إذ لا ريع وراء هذه المسالك يرتجى، ولا رشاد في ثناياها يُبتغى[2].

ويستثنى من هذا المنع من تضلّع بالعلوم الشرعية، ورسخت في الوحي قدماه، فغدا مؤهلاً لمخرزة المذاهب الضالة، وتفنيد الشبهات لِيحوط أُمّته ويصون حماها.

محل رخصة الراسخين في العلم (التحديث لا الاستفتاء) الراسخون في العلم لا "يستفتون" أهل الكتاب ليطلبوا منهم العلم والهدى، وإنما أُذِن لهم في **" المطالعة للنقد، أو الاحتجاج عليهم من كتبهم، أو التحديث عنهم بما يوافق شرعنا "**وفق الضابط النبوي: « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ** »[3]. فالعالم يقرأ في كتبهم ليرد عليهم أو ليبين تحريفهم، لا ليسترشد بها أو يستفتيهم .

ومع ذلك، يظل في كتاب الله وكافِ خطابه ما يربو على كل غاية، ويغني عن كل وسيلة؛ فوقت المسلم أثمن جوهرة تملكها يدُه، وحقيقٌ به ألا يبدده في غيابات ما لا يُغني ولا يُسمن من جوع.

قوله (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) يقول ابن كثير : (هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون)[4] .

يقول العلماء (مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى لا مساوية لها؛ كما قال تعالى : " وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ " ؛ فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى؛ فالعبد وإن كانت له مشيئة – خلافا للجبرية –؛ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا يقدر على أن يشاء شيئا إلا إذا كان الله قد شاءه؛ خلافا للقدرية من المعتزلة وغيرهم، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله، تعالى الله عما يقولون)[5].

---

[1]) رواه أحمد ج30 ص 173 رقم 14623 وصححه الألباني : إرواء الغليل ج6 ص 34

2) قال ابن عاشور (تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصة.

والتماري: تفاعل مشتق من المرية، وهي الشك. واشتقاق المفاعلة يدل على أنها إيقاع من الجانبين في الشك، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لما ساوى الحقيقة. والمراد بالمراء فيهم: المراء في عدتهم كما هو مقتضى التفريع.

والمراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} وقوله: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} ، فإن هذا مما لا سبيل إلى إنماره وإبايته لوضوح حجته وما وراء ذلك محتاج إلى الحجة فلا ينبغي الاشتغال به لقلة جدواه.

والاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي مما لا يعلمه كل أحد. ومعنى {فيهم} أي في أمرهم، أي أمر أهل الكهف. والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف، فضمير {منهم} عائد إلى عاد إليه ضمير {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ} ،

[3]) رواه أبو داود ج10 ص 79 رقم 3177 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج8 ص 162

[4]) تفسير ابن كثير ج5 ص 148

5) صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ج1 ص111

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية : ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد ، أن قريشاً اجتمعت فقالوا : « يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائنا ، فما هذا الدين الذي جئت به؟ قال : هذا دين جئت به من الرحمن . فقالوا : إنا لا نعرف الرحمن ، إلا رحمن اليمامة – يعنون مسيلمة الكذاب – ثم كاتبوا اليهود فقالوا : قد نبغ فينا رجل يزعم أنه نبي ، وقد رغب عن ديننا ودين آبائنا ، ويزعم أن الذي جاء به من الرحمن . قلنا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، وهو أمين لا يخون . . وفيّ لا يغدر . . صدوق لا يكذب ، وهو في حسب وثروة من قومه ، فاكتبوا إلينا بأشياء نسأله عنها . فاجتمعت يهود فقالوا : إن هذا لوصفه وزمانه الذي يخرج فيه . فكتبوا إلى قريش : أن سلوه عن أمر أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح . فإن يكن الذي أتاكم به من الرحمن ، فإن الرحمن هو الله عز وجل ، وإن يكن من رحمن اليمامة فينقطع . فلما أتى ذلك قريشاً أتى الظفر في أنفسها فقالوا : يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائك . . . فحدثنا عن أمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح . قال : ائتوني غداً . ولم يستثن ، فمكث جبريل عنه ما شاء الله لا يأتيه ، ثم أتاه فقال : سألوني عن أشياء لم يكن عندي بها علم فأجيب حتى شق ذلك عليّ . قال : ألم ترنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة؟ – وكان في البيت جرو كلب – ونزلت " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً " من علم الذي سألتموني عنه أن يأتي قبل غد؟ ونزل ما ذكر من أصحاب الكهف ونزل " ويسألونك عن الروح . . . " [الإسراء : 85] الآية »[1].

وذات الأمر وقع فيه غيره من الأنبياء ، فعن رسول الله ﷺ قال (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ)[2].

وففي حوار مشهور بين قدري وجبري في مشيئة الله وقدرة العبد احتكما فيه إلى عالم من أهل السنة استبان منه مذهب كل منهما ورد أهل السنة عليهما [3]

---

[1]) انظر تخريج السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج6 ص 353 ،

[2]) رواه البخاري ج9 ص 399

3) طال الخصام بين قدري يعتقد: أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله وبين جبري يعتقد: ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم؛ لأنهما متباعدان في طرفي نقيض.

فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة، يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني: ليعرض كل منكما علي مقالته، ولكما علي أن أدقق الحكم بينكما، وأن أرد ما مع كل واحد من باطل؛ وأثبت ما معه من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: **إن الله حكم عدل، لا يظلم من عباده أحدا** ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل؛ **أني أنزه ربي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله**؛ بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالا.

وأدلتي على هذا: جميع النصوص الدالة على أن الله ليس بظلام للعباد مثقال ذرة، وأنه حكم عدل؛ لأن تعلق مشيئته بأفعالهم.

ثم تعذيبهم عليها؛ ظلم من جهتين:-

- من جهة إضافتها إلى مشيئته.
- وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره؟!

ثم **إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله؛ لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه. بل في ذلك إبطال للشرع**، فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور المحظور، إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل ميزه الله.

فقال الجبري: أنا أقول: **إن الله على كل شيء قدير، وإنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.**

قضايا، لا يمكن مسلم أن ينكرها، ولا ينازع فيها.

وهذا عموم لا يخرج عنه حادثة، **ومن أعظم الحوادث أفعال العباد من طاعات، ومعاصي وغيرها.**

فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته، لم يكن الله قديرا على كل شيء ولا خالقا لكل شيء.

فمذهب القدري اعتقاده أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله، وأن العبد يفعلها استقلالاً. ودوافعه وحجته :تنزيه الله عن الظلم (فلا يعقل أن يشاء المعصية ثم يعذب عليها)، ولحماية الشرع من إبطال الأمر والنهي.

وقد حكم السني عليه بأنه أصاب في إثبات أن الأفعال كسب للعباد حقيقةً وتنزيه الله عن الجبر، وأخطأ خطأً كبيراً بنفي مشيئة الله وقدرته عن أفعال خلقه.

ومذهب الجبري اعتقاده أن العباد مجبورون ومقسورون على أفعالهم دون أي اختيار.ودوافعه وحجته :تعظيم قدرة الله وعموم مشيئته وخلقه لكل شيء في الكون (فلو كان للعبد اختيار لخرجت أفعاله عن ملك الله).

وقد حكم السني عليه بأنه أصاب في إثبات عموم قدرة الله ومشيئته وخلقه لكل شيء، وأخطأ خطأً كبيراً بادعائه أن هذا العموم يستلزم جبر العباد وسلب اختيارهم.

أما حكم ومذهب أهل السنة والجماعة (وهو القول الفصل) إثبات مشيئة العبد واختياره : **فالعبد فاعل لكل أفعاله حقيقةً، وله مشيئة يختار بها الطاعة أو المعصية، وبها يستحق الثواب أو العقاب.**

مع مراعاة الفهم بأن :**مشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الله وعموم خلقه. فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله** . وهذا يدل على القدرة المطلقة لله وأنه هو مدبر الأمر ، فلا شيء يخرج عن تدبيره .

ومقضي ذلك: أن العباد مجبورون على أفعالهم، غير مختارين لها لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة؛ لخرجت عن مشيئة الله وقدرته.

فتعين القول بالجبر، وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم، وقد نفذت فيهم مشيئة الله، وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا: جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته؛ وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله؛ لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وقدرته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحا كاملا، واستدل كل واحد بأدلة لا يمكن المنازعة فيها؛ لكثرتها ووضوحها. ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها بل لحظ جانبا، وعمي عن الجانب الآخر. وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب. وسأحكم بينكما بحكم يستند على الكتاب والسنة ويستند إلى العقل والفطرة. وسأقنع كل واحد منكما إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت أيها القدري؛ فأصبت بقولك: إن **أفعال العباد كلها من كسبهم**، وكلها من فعلهم، طاعاتها ومعاصيها وغيرها من أفعالهم.وأصبت في استدلالك عليها؛ بأن **الله نسبها وأضافها إليهم**.وأصبت في تبريك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي؛ وهو: الجبر.

ولكنك أخطأت خطأ كبيرا، حيث زعمت أن مشيئة الله وقدرته لا تعلق لها بأفعال العباد.ففيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل؛ وظننت أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله ينافي كون الأفعال الصادرة من العباد تكون باختيارهم ومن كسبهم.وهذا الظن غلط محض. بل المؤمن العارف يجمع بين الأمرين: **يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء؛ من الأعيان والأوصاف والأفعال. وأنه مع ذلك الأفعال صادرة منهم حقيقة.**

وأما أنت أيها الجبري؛ فلقد **أصبت بإثباتك: أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن**، وأصبت في هذا الاستدلال.

ولكنك أخطأت خطأ كبيرا، حيث زعمت أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله؛ أن العبد مجبور على أفعاله؛ لم تقع بمشيئته، وظننت أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

ثم قال السني أيضا لهما: لقد قال كل منكما قولا ممزوجا حقه بباطله؛ وسأحكم بينكما بحكم، يتضمن إثبات ما مع كل منكما من الحق؛ وإبطال ما مع كل منكما من باطل.

وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص:-

منها قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:28، 29]. فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما؛ فإن الله أثبت للعبد مشيئة بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم، أو يدعه باختياره ومشيئته.

وأخبر أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، غير خارجة عنها. فمشيئة الله عامة، لا يخرج عنها شيء ومع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون.

ومع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة فهو الذي يدل عليه العقل والواقع والحس. فإن الله خلق العبد، وخلق ما فيه من جميع الأوصاف والقوى.

ألستما تعترفان بذلك، وكل عاقل يعترف به؟! قالا: بلى.

قال السني: فإن **من جملة أوصاف العبد التي خلقها الله فيه انه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده من خير وشر**، وطاعة ومعصية وبهما تقع طاعاته ومعاصيه. وتعلمان: أن العبد متى أراد أمرا من الأمور التي يقدر عليها، فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه.

فإذا أوقع العبد بهما فعلا من أفعاله، دخلت تحت عموم قدر الله؛ لأن خالق **السبب التام الذي هو قدرة العبد وإرادته خالق للمسبب**.يعني: لما يصدر عنهما . **وكل منكما يعترف أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.**

فإذا اتفقتما على هذا القول؛ الذي هو الصواب بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس عاد الأمر إلى الوفاق. فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه.

ليتبرئ الجبري من اعتقاده: أن العبد مجبور مقهور على أفعاله.وليعترف: أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة.

وليتبرئ القدري من اعتقاده: أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله وغير شامل لها خلق الله وقدره.وليعترف: بعموم خلق الله، وشمول قدره.

والحمد لله الذي بين الصواب، ووفق من شاء من عباده لاتباعه. (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: 213].

انظر مكتبة الشيخ عبد الرحمن السعدي ج3 ص 96

بهذا قضى العالم السني بالجمع بين الحق الذي مع الطرفين وإبطال باطلهما، مستدلاً بالقرآن (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:28، 29].

كما أن العقل يقضي بتوفيق (السبب والمسبب) : فالله هو الذي خلق في العبد القدرة والإرادة (السبب التام)، وحيث أن الله خالق السبب، فهو بالتبعية خالق للمسبب (الأفعال الناتجة عن تلك القدرة).

إذن لابد من تقديم المشيئة قبل العزم علي أي عمل ، ومما يدل على أهمية هذا الأدب وعلو شأنه هو أن الله سبحانه وتعالى قد استثنى في كلامه فقال: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ) [الفتح: 27].

قال ثعلب .: «إن الله استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون»[1]، وقال سيد قطب .: «ولكن الله . سبحانه . يؤدِّب المؤمنين بأدب الإيمان؛ فالدخول واقع حتم؛ لأن الله أخبر به... إنه أدب يلقيه الله في رُوع المؤمنين ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور»[2] .

قوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) (23) قال ابن كثير رحمه قيل معناه (إذا نسيت الاستثناء فاستثنى عند ذكرك له) يعني (إذا لم تقل: إن شاء الله نسياناً، ثم تذكرت بعد ذلك فإنه يصح أن تقولها، قاله أبو العالية والحسن البصري، فعن بن عباس : أنه كان **يرى الاستثناء ولو بعد سنة** ثم قرأ "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت" يقول إذا ذكرت[3].

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء؛ إني أفعله ، فنسيت أن تقول إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله)[4] .

قوله (وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) (24) فالتماس الهدى من الله وحده ، ولذلك كان النبي ﷺ يرتجز ويقول (لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) ، والهدى طريق الرشاد ، فمن التمس الهدى اقترب من طريق الرشاد ، كما في قوله (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) (الجن 14) .

وفيه إشارة إلى قصَّة أصحاب الكهف الذين هادهم الله إلى الهجرة بدينهم فرارا من أذى قومهم ، وقد هدى الله نبيه لمثل ذلك لما هاجر وأصحابه إلى المدينة ،فلطف بهم من أذى قريش ، وهكذا يغير الله لعباده ظروف الدعوة المكانية والزمانية كيفما يشاء قال صاحب اللباب ، أي : (لعلَّ الله يؤتيني من البيِّنات والدلائل على صحَّة نبوَّتي وصدقي في ادِّعاء النبوة ما هو أعظم في الدلالة ، وأقرب رشداً –مثل– قصَّة أصحاب الكهف)[5] .

---

1) مجلة البيان عدد 232 ص 22 تصدر عن المنتدى الإسلامي

2) «في ظلال القرآن» لسيد قطب، (6، 3330).

3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج1 ص 44 رقم 119

4) انظر السيوطي : الدر المنثور ج6 ص 353 أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني

5) أبو حفص سراج الدين الحنبلي : اللباب في علوم الكتاب ج10 ص 442

قال ابن عاشور (لما أبر الله وعد نبيه ﷺ الذي وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك **بعتابه على التصدي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله،** وأمره أن يذكر نهي ربه ، ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به، أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه **ما بعث للاشتغال بمثل ذلك** ، وأنه يرجوا أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة ، وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن **الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم** وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا)[1].

يقول المفكر سيد قطب (على العبد أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ؛ وأن **يستعين بمشيئة الله على ما يعزم** ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، **فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره** ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولاً وأخيراً .

إذ يتناول الرجاء بـ (عسى أن يهديني..) معنى التسليم لله والاتصال به في السعي والتدبير، مؤكدًا أن حركة الإنسان في الحياة يجب أن تنطلق من استشعار المعية الإلهية ونفوذ المشيئة الربانية.ويمكن تلخيص هذا المنهج الإيماني في النقاط التالية :-

التدبير البشري تحت مظلة المشيئة الإلهية :يتعين على الإنسان أن يسعى ويفكر ويخطط، لكن دون أن يغيب عن وعيه أن تفكيره تيسير من الله، وتدبيره توفيق منه، وأن يد الله فوق كل جهد بشرى.

الرضا بالمقدور وقاية من الحزن والغرور :إن النجاح والفلاح يستوجبان الشكر والتواضع والبعد عن الغرور، بينما الإخفاق والتعثر يقتضيان الرضا والتسليم دون يأس أو قنوط، فخيرة الله للعبد أفضل من خيرته لنفسه.

الربط بين التوكل وحيوية السعي :هذا المنهج الإيماني لا يورث كسلًا ولا يدعو إلى تراخٍ، بل هو منبع دائم للثقة والسكينة، ويمد العبد بالقوة والعزيمة لمواجهة تقلبات الحياة.

الذكر الدائم والترقي المستمر : يظل المؤمن في كنف الله متصلًا به، فإن غفل أو نسي عاد سريعًا بالإنابة والاستغفار، طامعًا في الهداية لأرشد الأمور وأقربها إلى الحق، مستشعرًا بالأنس بوجود الله، فلا تفرقه وحشة العزلة، ولا توبقه حسرة الخذلان.

ويقول صاحب الظلال (. . من هذا المنهج الذي يصل القلب دائماً بالله ، في كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه ، وتجيء كلمة (عسى) وكلمة (لأقرب) للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال)[2] .

قوله (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) (25) هذه المعلومة قررها المولى في كتابه لا ليحسم الجدال في شأن كم مكثوا ؟ ولكن للدلالة على أن الله سبحانه له حكمة في أن تظل **بذرة الإيمان كامنة كل هذه المدة** حتى **تنبت في زمان غير الزمان** وإن كان في ذات المكان لكن مع أناس آخرون يشاهدون هذه المعجزة ويؤمنون بأهل

[1]) التحرير والتنوير ج15 ص 50
[2]) في ظلال القرآن ج5 ص 59

الكهف الذين لم يؤمن بهم من كان قبلهم من أزمان غابرة ، **فالبذرة المؤمنة لابد وأن تثمر ثمرة طيبة ولو بعد حين** من الزمان ، فالله المستعان وعليه التكلان ، إن الله ادخر الكلمة الطيبة التي احتفظ بها أهل الكهف ثلاثة مئة سنة وزيادة تسعا لأجل أن يلقي أهل الكهف بذرة الإيمان في أرض خصبة طيبة تؤتي ثمارها فيها بعد أن كان الأرض قاحلة لا تنتج ثمرا ، بعثهم الله تعالى بعد كل هذه المدة ليشهدوا لأهل هذا الزمان الجديد بأن (وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) فينتفع أهل ذلك الزمان بتلك المقولة التي شهدوا بها .

ففي قوله(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) تتجلى حكمٌ بالغة تَرُدُّ العقل البشري إلى جادة العجز والافتِقار أمام علم الله المحيط ، ولفتةٌ ربانية تحسم الخوض في تفاصيل الأرقام التي لا ينبني عليها عمل. لقد ردّت الآية المسألةَ برُمّتها إلى ساحة التفويض المطلق لله تعالى، وكأنها تهمس في وعي المؤمن: إنَّ الاشتغال باستقصاء ما غُيِّبَ عنك فضولٌ لا يغني من الحق شيئاً، فـ **"اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا"**، وليس لنا أن نترامى على حِمى الغيب مالم يَمُنَّ علينا الخالق ببيانٍ منه.

ثم يأتي الثناء العظيم على كمال إدراك الحق سبحانه بصيغة تعجبٍ جليلة تخلب القلوب :**"أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ"**، وهي في لغة العرب تفيد المبالغة والتعظيم، أي: ما أبصره سبحانه وما أسمعه! وفي هذا المقام الأسمى، يروي الإمام الطبري عن قتادة في تفسير هذه الآية قوله" **لا أحدَ أبصرُ من الله ولا أسمع تبارك وتعالى**[1] "؛ فبصره محيطٌ بحركات النمل في غياهب الظلم، وسمعه وسع نجاوى القلوب وخفايا الصدور.

والمعنى العملي المراد سوقه هو أن يقف المسلم عند حدود ما علمه الله إياه ، فيبصر ما أمره الله بأن يبصره ، ويسمع ما أمره الله أن يسمعه ، ولا ينشغل بما لم يسمع ولم يبصر وقد أبصره الله وسمعه

-

فالأولى هو الانشغال بما أُمرنا به : فما دام الله هو الكامل البصر والسمع، وقد حدد للإنسان بفضله ورحمته ما ينفعه من السمع والبصر والعلم. فالانشغال بما وراء ذلك (التكلف، الفضول المعرفي فيما لا ينفع، أو محاولة إدراك ما غُيِّب عنا) هو خروج عن مقتضى العبودية.

فمن أدب المعرفة :أن يقف العبد عند حدود عجز وسعه البشري، فيقول كما قالت الملائكة :(سبحانك لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) .فالله هو الذي يُبصِر ويَسْمَع كل شيء، أما العبد فيبصر ويسمع بمقدار ما مكنه الله وهداه إليه، ووظيفته إزاء ذلك هي الامتثال والعمل، لا التطلع والتكلف.

وهذا الفهم يُعدّ من" فقه الآيات "واستخراج الهدايات العملية منها؛ فبينما يقرر اللفظ صفة الكمال لله تعالى، فإن أثر هذا المقرَّر في قلب العبد هو السكينة والتسليم، والوقوف عند حدود الوحي والأمر، وترك ما غاب عنه لعالم الغيب والشهادة.

قوله (..ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) إذ تنعطف الآيات لتضع أيدينا على الثمرة الكبرى والغاية الأسمى من القصة كلها ، وهنا يكمن بيت القصيد، وينجلي سرُّ تلك الحكاية العجيبة؛ ففتية الكهف ما تلمسوا

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 197 رقم 13823

حبلَ ولايةٍ من بشر، ولا ارتضت نفوسهم الأبية الخضوع لحكم طاغيةٍ أو النزول على رغبة وثن، بل قطعوا علائق الأرض وعلّقوا قلوبهم بالسموات، فغمرهم الله بلطفه الخفي، ونشر لهم من رحمته ما وسع الزمان والمكان.

إنها المفارقة الخالدة؛ فأهل الإشراك والظلم –وإن دالت لهم الأيام– لا وليّ لهم يحميهم من سطوة الحق، ولابد لليل زمانهم أن ينجلي، ليبقى الحكم نفّاذاً لله وحده، لا ينازعه في سلطانه منازع إلا قُصِم، ولا يبارزه جبار إلا هُزِم. وكيف لا، وهو القائل في محكم تنزيله :"**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**" .فسبحان من بيده مقاليد الأمور، وإليه ترجع عواقب الدهور.

الفصل الرابع

التعقيب على قصة أصحاب الكهف

قال تعالى (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)

توجّه آيات هذا المقطع من السورة المؤمن وتوضح له معالم الطريق في مواجهة فتن الدنيا وتقلباتها. فبعد انتهاء قصة "أصحاب الكهف" وما فيها من دروس، يقدم السياق القرآني للنبي ﷺ ولأمته من بعده منهجاً قلبياً وعملياً ثابتاً يركز على معنيين أساسيتين :-

الأول وهو **التمسك بالوحي** :باعتباره المصدر الآمن للحماية من المظاهر المادية الزائفة ، وهو ما أشارت إليه مقدمة السورة ، ففيه الغنى والكفاية ، فالانشغال بتلاوة القرآن الذي لم يلحقه نسخ أولى من سؤال أهل الكتاب ، والاطلاع على كتبهم التي طالها التحريف ، فتلك من أعظم النعم التي أنعم الله بها على البشرية جمعاء .

وما كان يملك فتية الكهف شيئا من حطام الدنيا إلا بعض صفحات من الإنجيل يتلونه ويستمسكون بهداه

الثاني : **صحبة الصالحين** : وضرورة الالتفاف حول الأخيار والعلماء، حتى وإن كانوا فقراء في عيون الناس؛ فالقيمة عند الله ليست بالمال والجاه، بل بنقاء القلوب المستمرة على ذكره ، ولذلك لم تخلو الآيات من فائدة الإشارة إلى عدد أصحاب الكهف ، فلما زاد عددهم كانت الإعانة على الطاعة أكثر ، وأنفع ، وقد أرشد لهذاالمعنى النبي ﷺ فقال (وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ)[1] .

ونلحظ في هذا المقطع التركيز بوجه خاص على بعض المعاني التربوية كالتالي : -

الأمر بالتمسك بالوحي والقرآن : فقد أمر الله نبيَه بمواصلة تلاوة ما أُنزل إليه من الكتاب والعمل به وعدم الالتفات لما يقترحه المشركون أو يطالبونه به .

تأكيد صدق الوحي والثبات عليه : جاء الأمر للنبي ﷺ باتباع وتلاوة القرآن الكريم ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ باعتباره المصدر اليقيني والوحيد الذي يقصّ الحق والنبأ الصادق لقصة أهل الكهف. فبعد أن بيّنت الآيات السابقة كراهة كثرة

[1]) رواه الترمذي ج8 ص 69 رقم 2091 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 165 رقم 2165

الجدال في أمر الفتية ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ ، جاء التعقيب ليوجه إلى الاكتفاء بالوحي ، والابتعاد عن مجاراة اقتراحات وجدال المشركين وأهل الكتاب

تثبيت النبي ﷺ على الحق :جاءت تعقيباً وتثبيتاً له بأن هذا القرآن هو الحق الصدق الذي "لا مبدل لكلماته" أي لا يستطيع أحد تغييره أو تحريفه أو تبديل وعيده وعده

التحذير من الالتجاء لغير الله :قوله "ولن تجد من دونه ملتحدا" يعني أنه لن يجد لنفسه ملجأً ولا مهرباً ولا حافظاً ولا ولياً ينصره غير الله إن ترك تلاوة الوحي واتباعه

وكما لجأ الفتية في قصة أهل الكهف إلى الكهف فراراً بدينهم فآواهم الله، فكذلك لا ملجأ للعبد ولا منقذ له من أحكام الله وقدره إلا بالالتجاء إلى الله وحده والتمسك بكتابه.

الربط بين هجرة الفتية ولزوم هجرة القلوب لزينة الدنيا : تعد القصة تمثيلاً حياً لفرار المؤمنين بدينهم من طغيان الكفر وزينة الدنيا؛ حيث ترك أصحاب الكهف حياة القصور والرفاهية آوين إلى الغار. وعقب الفراغ من القصة، أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بملازمة فقراء الصحابة المستمسكين بالدين ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وعدم الانبهار بأكابر قريش وأغنيائهم الذين طغوا بزينة الحياة الدنيا ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

إعلان التوحيد لابد وأن يؤول يوما إلى المفاصلة الإيمانية : مثلما أعلن فتية الكهف ثباتهم على الحق أمام ملكهم الظالم (﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾)، جاء التعقيب مباشرة بالأمر بالصدع بالحق دون مداهنة للأغنياء أو المشركين: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

لابد من بيان العاقبة والمصير: اختتمت المناسبة بوضع مقارنة وميزان دقيق لعاقبة الفريقين (الظالمين والمؤمنين) تذكيراً بمصير من اختار الدنيا أو الآخرة ، إذ ينساب هذا التوجيه الرباني متوازناً بين الترهيب والترغيب؛ فيحذر تارة من عذاب النار وأهوالها، وتارة أخرى يرغب في جنات عدن ونعيمها، ليكون هذا المقطع دليلاً روحياً يجمع بين وضوح المنهج وعمق التأثير:-

- فريق ابتعد عن الحق : واتبع هواه فخسر وضاع أمره.
- فريق آمن وعمل الصالحات : ففاز بالقرب من الله في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

قوله (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) أمر الله نبيه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه [1]، (فاستبان أن التلاوة من النبي ﷺ وأصحابه، وأن الوحي من الرب)[2] ، أي أن (التلاوة والامتثال هما دأب النبي وأصحابه، بينما الوحي والتشريع هما محض فيضٍ من رب العالمين. قال رسول الله ﷺ (يُقَالُ **لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**)[3] ، فعلى قدر ملازمة العبد للقرآن تلاوةً، ومدارسةً، وترتيلًا، يربو إيمانه في الدنيا، وتعلو درجاته في أعالي الجنان.

---

[1]) شرح العقيدة الواسطية للفوزان ج1 ص 69
[2]) معراج القبول ج2 ص 592
[3]) رواه أبو داود ج4 ص 263 رقم 1252 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص205

لقد تجلّى في آي الذكر الحكيم أن مَعين العلم الإلهي ونبع الهدى الرباني إنما يتدفق من مشكاة الوحي برافديه؛ رافدٌ يفيض باللفظ والمعنى معاً، وآخر يفيض بالمعنى دون المبنى. فكتاب الله جل وعلا هو الدستور الأسمى الذي لا تبديل له ولا عِوض عنه، إذ حصر مصادر التلقي عن الباري سبحانه —في لفظه المحكم ومعناه المعجز— بين دفتي ما سُطِّر في التنزيل، وأوحاه الملك الجليل إلى عبده ومصطفاه؛ وهو القرآن الكريم. أما ما كان وحياً بمعناه دون مبناه، فقد تجسّد في السُّنّة النبوية المطهرة؛ القولية، والفعلية، والتقريرية ، حيث صِيغت معانيها الشريفة ببيان النبي المصطفى ﷺ ولغته الفصيحة.

ومقتضى هذا البيان —بمفهوم المخالفة ودلالته— أن الولوغ في أساطير الأولين، ومساجلة أهل الكتاب ومحاججتهم، لا يستقيم ولا ينبغي إلا أن يدور في فلك ما قَصّه القرآن الكريم، أو ما لَقّنه الله لنبيه العظيم. وما وراء ذلك من حكايات عابرة أو حجج واهية لا أصل لها في الكتاب والسنة، فهو نافلة لا غناء فيها؛ إذ في الوحيين الكفاية والهداية، وهما الصراط المستقيم الذي لا أود فيه ولا اعوجاج.

قوله (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) (27) قال ابن جزي (يحتمل أن يراد بالكلمات هنا القرآن ، فالمعنى لا يبدل أحد **القرآن** ولا يغيره ، ويحتمل أن يريد بالكلمات **القضاء والقدر**)[1]

وعن ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – قال مَعْنَى «لا مُبَدِّل لِكَلماته» **لا رادَّ لِقَضَائِه ولا مُغَيِّر لِحكمه** ، ولا خُلْف لوعْدِه ، وهو السَّمِيع العَلِيم)[2]

قال القاسمي (كلماته التي هي **أصول التوحيد** والعد وأنواعهما ، وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها ، فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول) .

وهنا يقف البيان القرآني شامخاً شموخ الحق، ومحيطاً بإحكام العبودية والربوبية. فـ" كلمات الله "هنا فيضٌ من جلاله؛ إن أردت بها **القرآن العظيم**، فهو الكتاب المستعصي على التحريف، والمصون بحفظ الله من عاديات الزمن وتبديل المخلوقين، يظل للثقلين (الإنس والجن) نبعاً صافياً ومنهاج حياة لا يأتيه البول ولا يغشاه الأفول.

وإن غصت في عمق التفسير **لتراها القضاء والقدر**، تجدها مشيئةً نافذة وحكماً قاهراً؛ لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا خلف لوعده الإلهي الصادق، تمضي مقاديره في خلقه برحمة السميع وبحكمة العليم.

كما يتضح من من وجهة نظر علماء الأصول أن هذه الكلمات هي **قواعد التوحيد الراسخة وموازين العدل المطلق**؛ تلك **الأصول الثابتة** التي لا يمسها نسخٌ ولا يطالها تبديل، وإنما تبدلت الفروع والشرائع السابقة لحكمٍ ومصالح، ليظل جوهر الدين واحداً متصلاً بجمال الذات الإلهية.

وقوله (مُلْتَحَدًا) مَلْجَأً وَمَوْئِلاً [3] أي ملجا تميل إليه ، قال البخاري (مُلْتَحَدًا) مَعْدِلًا وَلَوْ كَانَ مُسْتَقِيمًا كَانَ ضَرِيحًا[4] (الملتحد) : الملجأ المفقود خارج حمى الرحمن ، فالمراد بالملتحد : (**المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للنجاة**)[5] ..ما يعني

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 945

[2]) اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 140

[3]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 2168 ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ص 1005 .

[4]) رواه البخاري ج5 ص 129

5) قال طنطاوي وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : { إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ . . } أى : يميلون فى آياتنا .

أن القرآن هو المنهج لحياة الإنسان في هذه الدنيا ، بل هو **منهج للثقلين** ، وليس له بديل ، ومن يلجأ لغيره ولو في مسألة واحدة فقد ضل السبيل .

ولفظة "ملتحدا" يتجلى منها تصوير أدبي بديع ؛ فالملتحد هو ذلك الملاذ الذي يميل إليه الإنسان هرباً من لوافح الخطوب، والموئل الذي ينشده طلباً للنجاة.

فالآية تقطع دابر أوهام المشركين الذين يؤوون لقصورهم يحتصنون بجنودهم ، وقلاعهم ، لتؤكد لهم أنه ليس في الوجود كنفٌ يؤوي، ولا حِصنٌ ينجي، ولا مأمنٌ يقي خارج حِمى الله وكتابه ، فمن حاد عن هذا الصراط المستقيم، وابتغى في مَعْدِلاً عن الحق ، والتمس لحياته ملجأً في شرعة غير شرعة الله، فقد ضلَّ سواء السبيل، وباء بالتيه والخسران.

فالقرآن الكريم ليس مجرد نصوصٍ تُتلى، بل هو الصراط الأوحد للثقلين؛ فمن استمسك بكلماته فقد آوى إلى ركن شديد لا يتبدل، ومن ابتغى الهدى في غيره تاه في بيداء الحيرة، ولن يجد من دون الله ملجأً يميل إليه ولا موئلاً يعصمه.

فالقرآن هو منهج حياة يتعبد به لله ، ولما كانت الصلاة زاخرة بالقرآن ، فإن رسول الله ﷺ كان يقول (يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)[1] ، فلم يكن النبي ﷺ يبحث عن ملجأ غير جناب الله ، فكانت الصلاة له بمثابة معراجًا للروح، وفرارًا من ضجيج الناس إلى رحابة الخَالِق.

وهذا المنهج النبوي هو ذاته الذي سكب السكينة في قلوب الأصحاب؛ فحين أثقلت الهموم كاهل الصحابي الجليل "أبو أمامة" وضاق بظلال الديون، لم يجد ملجأً يلمس فيه الطمأنينة سوى المسجد، في وقتٍ خلا فيه المسجد من الراكع والساجد، لكنه امتلأ بقلبٍ منكسرٍ لله.

ولأن النبي ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، لم يتركه لآلامه، بل صاغ له طوق النجاة، وعلمه كلمات هي بمثابة "حبل الوريد" للعبور فوق الأزمات؛ كلمات تستنهض الهمة، وتطرد عجز النفس، وتستجلب مداد السماء. وحين امتزج الدعاء باليقين والعمل، تبددت السحب، وأشرق الفرج، فقُضي الدين وانجلى الهم.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ :(**يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟**) قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ :(**أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**) قَالَ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ :(**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجَزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ** .«قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي)[2]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ ثَمَانٍ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الْعَدُوِّ)[3]

---

[1]) رواه أبو داود ج13 ص 165 رقم 4333 وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود ج10 ص 485 رقم 4985

[2]) رواه أبو داود ج4 ص 353 رقم 1330

[3]) رواه أحمد ج24 ص 324 رقم 11778 وصححه شعيب الأرنؤوطي

قوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (28) تضمن توجيها إلهيا للنبي محمد ﷺ أن يتحلق بأصحابه الذين يريدون وجه الله في أعمالهم ، وألا يغفل عنهم ، طمعا في شيء من الدنيا ، ولو كانت قسرة خبز ، فليصبر عليها حتى يفرغ من تزكيتهم وتعليمهم ، ولا يغتر بأهل الهوى ، ولا يطعهم في شيء ، فهم مفرطين في حق أنفسهم وحق الله عليهم .

ولعلَّ تلك العجلةَ المباركةَ التي تملّكتْ فؤادَ النبيِّ ﷺ لم تكنْ إلا دافعاً من فيض حرصِهِ الشديد على هداية قومه، حتى أنسته—في غمرة شوقه لإسلامهم—أن يقرنَ وعْده بـ'مشيئة الله'. لقد وفدوا إليه يختبرون نبوّته بمسائلَ أوعز بها أهلُ الكتاب، ومنها قصةُ فتية الكهف، فظنَّ ﷺ أنَّ في تعجيل الجوابِ مفتاحاً لقلوبهم وبادرةً لإيمانهم. بيدَ أنَّ الإرادة الإلهية أبتْ إلا أن تضعَ الأمور في نصابها الحقّ؛ فأخّر الوحيَ ليلفتَ نظر نبيّهِ الكريم إلى **عظيم شأن أولئك الفتية الأطهار ومَن سار على دربهم من الضعفاء والمؤمنين**، مبيّناً له أنَّ مقامهم عند الله أسمى وأزكى من صناديد قريش، ليُقبلَ عليهم برعايته، ولا يصرفَ بوصلة اهتمامه عنهم.

فعَنْ خَبَّابٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِلَى قَوْلِهِ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ) قَالَ جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنْ الضُّعَفَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ ، وَقَالُوا إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ قَالَ نَعَمْ قَالُوا فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا قَالَ فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ) ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ فَقَالَ (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ثُمَّ قَالَ (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) قَالَ فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) وَلَا تُجَالِسْ الْأَشْرَافَ (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) يَعْنِي عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) قَالَ هَلَاكًا قَالَ أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، قَالَ خَبَّابٌ فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ)[1]ﷺ ، وفي رواية (وَإِلَّا صَبَرَ أَبَدًا حتى نَقُومَ)[2] يعني أنه كان يستحيي أن يقوم حتى يقوم أصحابه مخافة أن تعد عينيه عنهم ﷺ فكان في أصحابه الفطانة أن قاموا حتى لا يستشعر الحرج إذا أراد أن يقوم ، فيقومون قبله .

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 155 رقم 4117
[2]) رواه ابن أبي شيبة ج1 ص 490 رقم 477

قوله (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) قال الشنقيطي ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي . التخيير بين الكفر والإيمان . ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية ، والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف . أنه أتبع ذلك بقوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) .

وفي الآية دلالة على وجوب تفويض نتائج الدعوة لله ، وأن يقتصر هَمُ الدعاة على قول كلمة الحق ،قال رسول الله ﷺ (**أحبُ الجهاد إلى الله كلمةُ حق تقال لإمام جائرٍ**) [1]، أي كلمة "لا إله إلا الله" فالذي يتأمل هذا الحديث يدرك متى قوة وتأثير كلمة الحق في صدع الباطل ، فلا يستهين بها ، بل هي أمضى سلاح في مواجهة الباطل ، بصرف النظر عن مدى التأثر اللحظي والآني بها ، فإنها لابد وأن تنبت ولا بد وأن تظهر ثمرتها في يوم من الأيام

قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (29) وما يبعث على التأمل العميق في آيات الكتاب الحكيم، هو ذلك المشهد المهيب لـ"سرادق النار" وهي تحيط بالظالمين إحاطة السوار بالمعصم؛ فبعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وهي التي كانت بالأمس القريب ساحةً لخيلاهم، يتقلبون في أكنافها الواسعة، ويلهون على ضفاف أنهارها الجارية، إذا بالأقدار تطويهم في قمقم من العذاب المقيم. هناك، ينادون مستغيثين من هجير جهنم، فلا يأتيهم الغوث إلا بنكال أشد؛ ماءٌ كالمهل المغلي، تبخرت منه كل رحمة، يلامس الوجوه فيشويها قبل أن يصل الجوف.

إنها المفارقة الصارخة والتحول المروع في المآل؛ إذ تبدلت تلك القصور المنيفة التي اتخذوها في الدنيا متكأً ومرفقاً، لتستحيل اليوم سرادقاً من جحيم يطوق كبرياءهم. وشتان هنا بين هذا المصير المظلم، وبين مآل فئة مؤمنة اعتصمت بربها؛ أصحاب الكهف الذين هجروا زينة الدنيا ولجأوا إلى مغارة ضيقة في جبل، قائلين (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) .فغدا ذلك الكهف الموحش بفضل الله مهداً دافئاً، ونبتت فيه أسمى معاني الراحة والسكينة؛ لينامو فيه نوماً هادئاً مطمئناً تحفه الرعاية الإلهية.

وعجباً لتقلب الأحوال؛ كيف استحال الكهف الضيق مرفقاً من رحمات، بينما انقلبت قصور الطغاة الشاهقة إلى سرادق موقدة، وبئس المرتفق.

قال ابن عاشور (والمرتفق) محل الاتفاق، وهو اسم مكان مشتق من اسم جامد إذ اشتق من المرفق وهو مجمع العضد والذراع ، سمي مرفقا لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فلما سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المرتفق. فالمرتفق هو المتكأ، وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم)[2].

[1]) صحيح كنوز السنة النبوية للألباني ج1 ص 156 رواه أحمد والطبراني : المعجم الكبير ج8 ص 282 رقم 8097
[2]) التحرير والتنوير ج15 ص 58

قوله (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (30) فالناظر لقصة أصحاب الكهف وقد اعتزلوا الدنيا كلها وحبسوا أنفسهم في الكهف مخافة أن يفتتنوا في دينهم قد يظن أنهم حرموا من المتاع ، ولكن الله تعالى بين في هذه الآية أنه لم يضيع أجرهم وقد أحسنوا العمل

فالعبرة ليست بكثرة العمل وإنما بإحسان العمل ، قال ابن تيمية في قوله (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) رُبَّ تَسْبِيحَةٍ مِنْ إنْسَانٍ أَفْضَلُ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ وَكَانَ إدْرِيسُ يُرْفَعُ لَهُ فِي الْيَوْمِ مِثْلُ عَمَلِ جَمِيعِ أَهْلِ الأرض)[1] ، وقال (فَإِنَّ الْإِسَاءَةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِالْأَمْرِ بِهِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنْ الثَّوَابِ ، فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ دِينَهُ لِلَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَكَانَ مِنْ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[2].

قوله (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) (31) أشارت الآيات إلى حسن المرتفق في الآخرة ، وذلك لأهل الإحسان الذين اعتزلوا الدنيا وما فيها لأجل مرضاة ربهم ، ولم يبالوا بما خسروا فيها

قال رسول الله ﷺ (مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ)[3]

وقال رسول الله ﷺ (مَنْ لَبِسَ الذَّهَبَ مِنْ أُمَّتِي فَمَاتَ وَهُوَ يَلْبَسُهُ لَمْ يَلْبَسْ مِنْ ذَهَبِ الْجَنَّةِ وَقَالَ هَوْذَةُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَهَبَ الْجَنَّةِ وَمَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ مِنْ أُمَّتِي فَمَاتَ وَهُوَ يَلْبَسُهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرِيرَ الْجَنَّةِ)[4]

وعن عمر بن الخطاب يحدث أنه رأى تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ)[5].

يقول سيد قطب تعليقا على التضاد بين مرتفق أهل النار ومرتفق أهل الجنة (وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان . . وشتان شتان! وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن . للإقامة . تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقاً (متكئين فيها على الأرائك) وهم رافلون في ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) !ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس

[1]) مجموع الفتاوى ج4 ص 378
[2]) مجموع الفتاوى ج18 ص 251
[3]) رواه البخاري ج18 ص 154 رقم 5385
[4]) رواه أحمد ج14 ص 190 رقم 6652
[5]) رواه البخاري ج15 ص 207 رقم 4532

فقراء المؤمنين ، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر ، فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق في سرادق النار ، وليهنأ بدردي الزيت أو القيح يغاث به من النار . .)[1] .

إذ تتجلى في هذا المشهد القرآني أبعاد المقابلة البيانية والمعادلة المصيرية بين ارتفاق أهل النار وارتفاق أهل الجنة، في صياغةٍ تفيض تهكماً وتقريعاً من جهة، وتنضح نعيماً وتكريماً من جهة أخرى:

إذ جاء ذكر "الارتفاق" في حق أهل النار على سبيل السخرية اللاذعة بوضعهم؛ إذ ليس ثَمَّ مِرْفَقٌ يُستراح إليه، وإنما هو لظىً يَشتوون بلهيبه، ومهادٌ من مهلٍ وغسّاق يَجرعون مرارته، جزاءً وفاقاً لِما استكبروا عنه في الدنيا.

وجاء ذكر ارتفاقٌ حق في جنات عدن في المقابل، حيث يتقلّب أهل الإيمان في النعيم المقيم؛ والأنهار تجري من تحتهم رياً وبهجة، والأرائك مَصَفَّةٌ لراحتهم، يُحلَّون فيها بأساور الذهب، ويرفلون في سندسٍ الجنة وإستبرقها، فكانت بحقٍ نِعمَ الثواب وحسُنت مرتفقاً.

وللإنسان حريّة الاختيار فهو أمام مسؤوليته؛ فمَنِ استنكف في الدنيا عن مجالسة البسطاء من عُمّار المساجد—ممّن فاحت من جِبابهم روائح كدّهم وعبادتهم لكن زكت قلوبهم بذكر الله—آلَ مصيره بكبره إلى سرادق النار، ليرتفق هُناك بالدرديّ والقيح، ومَن رضي بمجالسة الأبرار، أورثه الله مرتفق الخلود والأبرار.

[1]) في ظلال القرآن ج5 ص 63

المحور الثاني

قصة صاحب الجنتين

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

تعدّ قصة **صاحب الجنتين في سورة الكهف** نموذجاً قرآنياً بليغاً يعالج إحدى أعمق الآفات النفسية والسلوكية التي تصيب الإنسان عند الغنى، وهي فتنة المال والولد .إذ تأتي القصة لتضع ميزاناً دقيقاً يضبط تأثر وانبهار الإنسان بمتاع الدنيا الفاني، مبيّنة أن النعم اختبار للمشاعِر والضمائر قبل أن تكون مظهراً للرفاهية والتمكين.

فالهدف الأساسي من سوق القصة هو **تحطيم المقاييس المادية الزائفة** التي تجعل من ثروة الإنسان وجاهه معياراً لفضله أو نيله الرضا الإلهي. تكشف الصراع الأزلي بين نظرتين للدنيا أحدهما مادية قاصرة والأخرى إيمانية عميقة :-

أولا : النظرة المادية للدنيا القاصرة :فالدنيا ليست الغاية ، ولا ينبغي أن يغتر الناس بها ، لكن أهل الدنيا يتكبرون بما يملكون منها ، وتتعلق قلوبهم بالبقاء الزائف فيها

ثانيا : النظرة الإيمانية العميقة : وذلك بالعلم أن النعم محض فضل من الله بل هي إعارة من الخالق لابد وأن يستردها ، وخلال الفترة بين التفضل بها على العبد كعارية استعمال وبين ردها يجب عليه الشكر والانكسار لصاحب النعمة .

قال أبو حفص سراج الدين الحنبلي (وجه النَّظم أن الكفار ، لما افتخرُوا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ، بيَّن الله تعالى أنَّ ذلك ممَّا لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الغنيُّ فقيراً ، والفقير غنيًّا ، وأما الذي تجبُ المفاخرةُ به فطاعة الله وعبادته ، وهي حاصلةٌ لفقراءِ المسلمين ولأغنيائهم على السواء ، وبيَّن ذلك بضرب هذا المثل؛ فقال (واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ) أي : مثل حال الكافرين والمؤمنين كحال رجلين ، أحدهما : كافرٌ ، والآخر : مؤمنٌ)[1]: -

كما تزخر القصة بتوجيهات تربوية تحول الإيمان النظري إلى سلوك عملي يحمي النفس من الطغيان وذلك من خلال ما يلي : -

- **ترسيخ عقيدة الفناء والبعث** : بالتنبيه إلى خطورة الركون إلى الدنيا والظن بأن النعم مخلدة ("مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا")، والدعوة لليقظة الدائمة بلقاء الله.

[1]) اللباب في علوم الكتاب ج10 ص 458

- **الصحبة الصالحة الناصحة** :إبراز دور الصديق المؤمن المتجرد الذي لم تمنعه وشائج الصحبة من قول الحق، ومواجهة المغرور بالوعظ الحكيم والتحذير من عاقبة البطر.
- **رد النعم إلى المنعم** :التربية على رؤية يد الله الخالق والرازق وراء كل نجاح دنيوي، وليس التغني بالجهد الذاتي أو العبقرية الشخصية.

كما ركزت القصة على فقه التأدب عند التمتع بالدنيا فوضعت دستوراً أخلاقياً وجمالياً للتعامل مع زينة الحياة الدنيا، يتلخص في أدبين رئيسيين:–

الأدب الأول : أدب قولي وقلبي عند رؤية النعم :وهو ما أرشد إليه الصاحب المؤمن بقوله" :وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ"؛ وهو اعتراف مبدئي بأن النعمة مشيئة إلهية لا يد للمرء في استبقائها إلا بحفظ الله.

الأدب الثاني : عدم الازدراء والاستعلاء :التوقف عن قياس منازل الناس ومقاديرهم بما يملكونه من حطام الدنيا، فالعطاء الدنيوي لا يلازم المحبة الإلهية، والفقير اليوم قد يكون أغنى الناس غداً بفضل الله وثوابه الباقي.

في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لمحةٌ بيانية تخبو في تفاصيلها أسرار القسمة الإلهية؛ فقد آثر الحكيم الخبير أن يبسط الرزق لأحدهما بسطًا فجمع له الجنتين معًا، ولم يوزعهما بينهما، ولا خصَّ كل واحد منهما بجنة، بل ترك الآخر صفر اليدين في حسابات المادة. **وفي هذا المنع الظاهري عين العطاء والبصيرة؛ إذ حَمَى سبحانه عبده المؤمن من فتنة المتاع الفاني**، ليغنيه بفضله ويهبه الغنى الأكبر وهو غنى النفس والرضا بمولاها.

وإذا كان ظاهر الأمر يستدعي السخط في ميزان أهل الدنيا—إذ قد تضيق النَّفْس البشرية ذرعًا بحظّ غيرها وتتساءل: كيف يُفرَد امرؤٌ بجنتين ويُحرم آخر؟—فإن قلب المؤمن ينبض بيقينٍ مغاير، فلا يملك إلا التسليم والرضا. إنه يعلم علم اليقين أن النعم لا تنزل منازلها بحسب مراتب الإيمان، ولا تتدفق وِفق حسابات الاستحقاق البشري، وإنما هي موازين "الابتلاء". فالله سبحانه يبتلي عبدًا ببسط النعم ليختبر شكره، ويبتلي آخر بتقتيرها ليمتحن صبره، والغاية في الحالين واحدة: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾. ورغم تباين صور الابتلاء وظواهر المحن والمنح، فإن العدالة الإلهية قائمة؛ فمجموع حظوظ كل إنسان من النعم والابتلاءات يتساوى في نهاية المطاف مع مجموع حظوظ أخيه، وشتان بين بلاءٍ يرفع الدرجات وبلاءٍ يورث الدركات.

وتنطوي هذه العبرة القرآنية على إشارة لافتة تعكس واقع الرسالة المحمدية؛ فكما اصطفى الله صاحب الجنتين بماله، فقد اختص سبحانه نبيه ورسوله محمدًا ﷺ بالرسالة الخاتمة، فلم تنزل على أحدٍ غيره من أهل الكتاب. وهذا الاختيار الرباني المحض كان يقتضي من المعاصرين له أن يقابلوه بالإذعان والرضا والتسليم التام، اقتداءً بالصاحب المؤمن الذي وعى حقيقة الفضل الإلهي، لا أن يقعوا في شِراك السخط والاعتراض، أو تنهش قلوبَهم نيرانُ الحسد، وهو الداء الذي رمى القرآن بصره إليهم في قوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.(النساء54)

قوله (جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) (32) يبين كيف أن الله تعالى عندما يخص عبدا بالفضل فإنه يغدق عليه بالنعم ، فيكون ذلك أشد لفتنته أو أدعى لشكره ، كما قال سليمان لما أوتي من فضل ربه (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (40) .





فالأعناب والنخيل هما خير متاع الزراع ، لأن النخيل يطرح تمرًا هو أساس قوت المسلم ، والأعناب تنتج زبيبا هو كذلك من قوت الرحالة ، ووضع الزرع بينهما هو أساس علم الهندسة الزراعية [1]، وسبب ذلك أن **النخل يحيط بالمزروعات** فيكون مصدا جيدا للرياح فلا يتلف الزرع ، **والأعناب تكون بمثابة سقف للمزروعات** ما يمنع تطفل الطيور ، حيث يتم وضع شباك على تكعيبة العنب لمنع الطيور مع الحفاظ على نفاذ أشعة الشمس ، ويتخللهما الزرع فيكون محميا من الطيور ومن الرياح ، قال الشعراوي (علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري)[2].

قوله (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ..) (33) جاء وصف الجنتين كدليل على أن الله تعالى تفضل على صاحبهما بالعطاء ولم ينقصه شيئا ، فالأُكُل : هو ما يُؤكل ،"الأُكُل" في لغة التنزيل هو كل ما يُجنى ويُؤكل من ثمار، وفي قوله (آتَتْ أُكُلَهَا) إشارة إلى أن الأرض قد **بلغت ذروة جودها، فاستجابت لجهد غارسها** . أي أن الأرض أعطتْ الثمرة المطلوبة منها وافيةً مستوية

وقوله (وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . .) فالأرض لا تبخس المحسن إحسانه ، يعني أنها **أعطت الثمار بقدر العمل فيها**، فالأرض –على كونها جماداً– لا تظلم صانعاً، ولا تُضيع أجر عامل، ولا تهدر له كداً أو تعباً؛ بل إن من صفاتها الوفاء والعدل، تقابل الجهد البشري بالجزاء الأوفى.

وقد أشار الشعراوي لسخاء الأرض عندما يحسن العامل فيها ، فمن عدل الأرض وسخائها أنها تأخذ من الإنسان البذرة الواحدة لتثمر آلافاً، وتستقبل الكيلة لتُخرج إردباً، فإذا كان هذا عدل الأرض وسخاؤها وهي مخلوقة، فكيف بتقدير الخالق سبحانه وتعالى وشكره لسعي عباده وتعبهم؟!

فالأرض تُشبه في عطائها وسخائها بالأم الرؤوم؛ فكلاهما يفيض بالخير والمحبة : الأم تجود على ابنها بالرعاية والحنان دون مقابل، بل قد تحنو عليه حتى في حال جحوده وعقوقه. وكذلك الأرض، قد تجود على الإنسان بإنبات ما لم

[1]) الدكتور المهندس محمد عبد الهادي الشيخ : دكتوراه في الهندسة الزراعية بفرنسا
https://f.zira3a.net/showthread.php?t=10705
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5404

يزرعه، وإخراج ما لم يتعب فيه، فكيف يكون عطاؤها وإكرامها إذا قابلها الإنسان بالبر، وأحسن التعامل معها حَرْثاً وغَرْساً ورعاية؟ لا شك أنها ستضاعف له العطاء، وتفتح له أبواب النماء.

لكن يجب الفهم إذا كان قانون الأرض يقتضي أن تأتي الثمار على قدر العمل والجهد، غير أن **الاستفادة الحقيقية من هذا الرزق تخضع لقانون رباني آخر وهو "البركة"**؛ فالجهد يضمن وفرة المحصول، لكن البركة هي التي تضمن نماءه ونفعه، ولها شروط ومفاتيح:-

فالرزق الحلال يجلب البركة ، والصدقة تجلب البركة ، وإن لم تكن في صورة صدقة حقيقية ، فلتكن في صورة صدقة مستترة ، أي بالبيع والشراء لكفاية حاجة الناس ، وليس لأجل الاحتكار وظلم الناس ، إن عرض الفائض من الرزق في الأسواق بهدف كفاية حاجات الناس والتيسير عليهم -بعيداً عن الجشع والاحتكار- هو صنيع يبارك الرزق ويُنميه.

وقد علل الشعراوي سبب سخاء الأرض وأنها تعطي عطاء يكفي العاملين فيها وغيرهم ، فيقول (اليد التي تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، ولو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل؟ إذن : **فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي العاجزين عن العمل**)[1]، فالعمل في المنظور الإسلامي ليس مجرد وسيلة لسد الحاجة الفردية، بل هو رسالة استخلافية ذات أبعاد تكافلية ، ولذلك مدح النبي ﷺ أحد التي تعمل ، فينفق العامل من كسب يده فقال : «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**)[2]

كذلك مدح الذي كان يعمل لأجل أن ينفق على تعلم أخيه أحاديث النبي ﷺ ، وألمح له أنه يرزق ببركة طلب أخيه العلم ، فالعلاقة بين طالب العلم والعامل تكافلية تضامنية في المفهوم الإسلامي الاجتماعي . فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ **لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ**)[3].

قوله (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) (33) إتمام النعمة بتفجير الأنهار خلال الجنتين هو إحكام من الله للابتلاء ، لكي يرى العبد أثر نعمة ربه عليه فيزداد شكرا ، فالبحث عن مصادر الري أمر شاق ، وشق الترق أشق ، ولكن الله يسر على عبده ففجر له نهرا ما بين الجنتين بلا تعب أو مشقة .

فهذا الوصف المتقدم للجنتين يعني أنه لا خوف من تقلبات المناخ وعاديات الظروف. وهذا الإحساس بالأمن والاستقلال قد يغري الإنسان ، فينشأ عنه فكر منحرف يفضي بصاحبه إلى الهلاك ، فيقول لن تبيد بفضل توفر أسباب الحياة..)[4] ، إذ تجلّت عظمة البيان الإلهي في قوله عز وجل (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) ، لتكشف عن ملمحٍ دقيق من ملامح إتمام **النعمة** الربانية، التي **جعلها الله سبحانه ميزاناً لابتلاء** العبد واختبار

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5404
[2]) رواه البخاري ج7 ص 235 رقم 1930
[3]) رواه الترمذي ج8 ص 343 رقم 2267 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 345
4) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

شكره؛ فبينما يمثل البحث عن مصادر الري عناءً وجهداً بالغاً، ويغدو شق القنوات والترع كدحاً أشد مشقة وأعظم كلفة، ساق الله إلى عبده رغد الحياة ميسراً هنيئاً، ففجر له نهراً يتدفق بين الجنتين كفاحاً **بلا نصب ولا وصب**.

كما أوضح السياق القرآني أن **صاحب الجنتين لم يتكلف شيئا لكي تؤتي ثمارها** ، بل كل شيء حصل فيها دون جهد منه ، فلم يتكلف نَقِيرًا ولا قِطْمِيرًا لتجود أرضه بعطائها، ولم يبذل قطرة عرق لتؤتي الأرض أكلها؛ بل تهيأ له كل شيء بغير جهد منه.وانسابت النعم إليه رغَدًا دون أدنى كدٍّ أو مجهود. وإنما أنفق نفقة سوف يتحسر عليها فيها بعد .

إذ يقودنا التأمل اللغوي في توزيع الضمائر وإسناد الأفعال في هذه الآيات إلى الكشف عن سرٍّ بلاغيٍّ بديع؛ إذ تجرد الرجل تماماً من أي "فعل" يؤثر في النماء، بدا منزوع الفاعلية تمامًا، عاطلًا عن الحركة والعمل، بينما تتوزع الأفعال في المشهد بين شرف الإيجاد الإلهي وطواعية الأسباب الكونية.

فمن جهة، تبرز ثلاثة أفعال مسندة إلى الله تعالى بضمير العظمة والقدرة" **:جعلنا"، و"حففنا"، و"فجرنا"**، وهي أفعال تدل على الخَلْق والإنشاء والتدبير الرباني للمكان.

ومن جهة أخرى، يبرز فعلان مسندان إلى الطبيعة والأسباب العادية التي خلقها الله " **آتت" و"لم تظلم"**، وهما يفيدان غاية المطاوعة والاستجابة السلسة لمراد الله، دون عوائق أو آفات.

أما الرجل، فقد بقي عاطلاً عن العمل، معزولاً عن أدنى مجهود يؤهله لاستحقاق هذه الملكية، فلا ذكر له في مضمار السعي والشقاء؛ لم يحرث أرضًا، ولم يسقِ زرعًا، ولم يلقَ عناءً. مما يجعل جحوده بعد ذلك قمة في الخسران ونكران الفضل

وطرافة هذا التصوير المعجز تكمن في حصار الرجل بضميرين اثنين فقط: أحدهما في البداية يثبت قيد الملكية ، والآخر في النهاية يثبت تسلّم الغلات والأرباح (وكان له ثمر) .وكأن البيان الإلهي يستحضره في اللحظة الأولى متسلّمًا لزمام الجنتين، ثم يطوي مراحل الزمن والجهد، ليحضره في اللحظة الأخيرة متسلّمًا للمحصول، وما بين اللحظتين دلالة واضحة على ترفٍ ممتد وعطاءٍ مغدق... فكيف لا يكون هذا الرجل إذًا "مدلَّلًا" قد سِيقَ إليه رزقه رغدًا وهو وادعٌ مستريح؟)[1].

وإذا تتبعنا أسرار اللسان العربي في هذا الموضع، نلحظ أن الوصف القرآني للجنتين قد عَمَدَ إلى إبراز معاني "**الاستمرارية**" و"**البقاء**"؛ فغلال الأرض من العنب والتمر مما يقبل الادخار والتخزين، ليتجاوز المرء بهما تقلبات المواسم وعاديات الفصول. وإن أسباب هذه الديمومة قائمة في الجنة، مستقلة بها، تتجسد رأي العين في ذلك النهر المتفجر الخالد. غير أن هذا **الأمن الرغيد والاستقلال الظاهر، قد يتحول في نفس العبد إلى فتنة ومغواة**؛ فيورثه طمأنينة خادعة تفضي به إلى الهلاك، حين يظن – بجهله – أن نعمته لن تبيد بفضل توفر أسباب الحياة المادية من حوله.

هذا الصنيع الإلهي يستنهض في الوجدان الإنساني وعياً عميقاً بضرورة شكر هذه النعمة، عبر السعي الدؤوب لتوفير مصادر المياه للناس كركيزة أساسية من ركائز النماء الزراعي؛ وفي هذا المحمل يقول الإمام العز بن عبد السلام (فجره

1) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

بينهما ليكون أقل مؤنة من سوقه إليهما وأكثر ريعاً)[1]. وهي لفتة تحث الفكر على استشعار الأهمية البالغة لشق الترع والقنوات من الأنهار الفياضة، توسيعاً للرقعة الخضراء، واستدامةً للحياة والنبت طوال فصول العام دون انقطاع.

ولما كان الماء عصب الوجود وأجلّ القربات، عظم الشارع الحكيم شأن بذله وسقياه؛ فقال رسول الله ﷺ **(والشربة من الماء يسقيها صدقة)**[2].

والسقي الماء هو أفضل الصدقات ، فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ الْمَاءُ قَالَ فَحَفَرَ بِئْرًا وَقَالَ هَذِهِ لِأُمِّ سَعْدٍ)[3]، وعَنْه –سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ– قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ سَقْيُ الْمَاءِ)**[4].

قوله (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) الإتيان بالفعل الماضي "كان" إشارة إلى تبدل الحال سريعا ، حيث انقلب حاله من صاحب جنتين وله ثمر من أجود الثمار الصالحة للتجارة بما يدر المال الوفير عليه إلي متحسر ، يقلب كفيه من الحسرة علي هلاكه .

فقد حق له أن يتحسر منذ اللحظة التي اغتر فيها بهذا المتاع الزائل ، ساعة قال لصاحبه (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) متكبرا عليه بنعمة ربه التي رزقه إياها ، يقول النبي ﷺ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) وقال (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)[5]أي احتقار الناس .

وفي قوله (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) دلالةٌ للغراء على أن مخالطة الناس ومحاورتهم باعتبار أن ذلك ركيزةٌ أصيلة من ركائز السلوك الإسلامي .إذ أضفى القرآن الكريم عليهما وصف "**الصحبة**" تنبيهًا على عمق الروابط الإنسانية، فغدا كلٌّ منهما صاحبًا للآخر. وفي هذا التعبير القرآني حثٌّ لطيف على **استحباب اندماج المؤمن في مجتمعه، ومحاورتهم بالتي هي أحسن**، وإن باينوه في سموّ الخلق أو نبل المبدأ.

ويعضد هذا الملمح الإنساني توجيهٌ نبويٌّ شريف يُعلي من شأن الصبر والاحتساب، حيث يقول الرَّسول ﷺ **(المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)**[6] ؛ فالخيرية هنا معقودة بلواء الصبر والمواجهة الإيجابية، حتى وإن قيل بأن بين المنزلتين مرتبة وسطى، إلا أن ميزان الأفضلية يميل يقينًا نحو مَن يمد جسور التواصل ويتحمل في سبيل ذلك المشاق، مقارنةً بمن آثر الانكفاء على الذات واعتزال الناس طلبًا للسلامة وانقطاعًا عن التوجيه والإصلاح[7].

---

[1]) تفسير العز بن عبد السلام ج1 ص 620
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 152 رقم 422 صحيح الأدب المفرد ج1 ص 175
[3]) رواه أبو داود ج4 ص 497 رقم 1431 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 366
[4]) رواه النسائي ج11 ص 439 رقم 3605 صحيح وضعيف سنن النسائي ج8 ص 237
[5]) رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131
[6]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 162 رقم 388/300
7) في هذا المعنى : يوسف بن موسى بن محمد، أبو المحاسن جمال الدين الملطي الحنفي : المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص 219

ولا غروَ أن هذا المنهج الدعوي المرن لا يتصادم بحالٍ مع العزلة الإيمانية التي لجأ إليها فتية الكهف؛ فكلا المسلكين—مسلك صاحب الجنتين ومسلك أهل الكهف—يدور في فلك الصواب والحكمة الشرعية؛ بيد أن الفارق يكمن في تقدير المصلحة وحجم المفسدة:

أهل الكهف :ألجأتهم الضرورة القصوى واضطرهم الخوف الشديد على عقيدتهم إلى الفرار بدينهم، بعد أن بلغ السيلُ الزُّبى، وتجاوز الطغيان المدى، فخَشُوا الفتنة والهلاك.

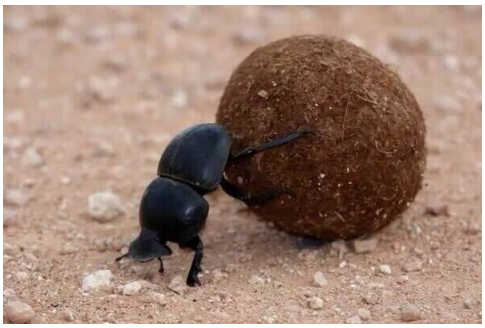
أما المؤمن مخالط صاحب الجنتين :آنس من نفسه قدرةً على الصبر والتحمل أمام الأذى اللفظي والصلف الفكري، فلم يجد في هذا الإيذاء مسوغًا شرعيًا لقطع حبال التواصل، أو التخلي عن أمانة الدعوة والبيان.

في قوله (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) يتشوه المظهر العام بصورة قاتمة من التفاخر المذموم بالثروة والولد، وهي نزعةٌ حرّمها الشرع الحكيم ونأى بالمسلم عنها؛ إذ يقول النبي ﷺ **(لا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)** [1].

إن آفة العُجب وكبرياء النفس من أشد المهالك التي تحبط العمل وتُظلم القلب؛ وقد جاءت الشريعة الغراء بقطع دابر المفاخرة وصون كرامة الإنسان، داعيةً إلى التواضع والاعتراف بفضل المنعم سبحانه.

فليس لمخلوقٍ أن يستطيل بمحاسنه كِبراً، أو يرفع قدر نفسه على الأنام زهواً وعُجباً. **ومَن أعجب بما يملك، فقد وقع في حبائل الغرور، وأبان عن قلبٍ خلا من الشكر، وغفل عن فقه الابتلاء بالنعمة**. وكما أثر عن الأصبهاني قوله :(وليس للمختال في حسن الثناء نصيب، ولا للوالي المعجب بقاء في سلطانه، إنه لا تمام لشيء مع العجب). [2]

فمن جهة وجب تطهير النفوس من عصبية الآباء ومفاخر الجاهلية ، ولقد أولى الشرع عناية خاصة لاستئصال التفاخر بالآباء والأنساب، لكونه مباهاةً بأمادٍ ولّت وأقوامٍ أفضوا إلى ما قدموا وحسابهم على الله. وفي هذا المعنى يقرر الرسول الكريم ﷺ قائلًا:(إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد **أذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ**، مؤمِنٌ تَقِيٌّ وفاجِرٌ شَقِيٌّ، أنتُمْ بَنُو آدَمَ وآدَمُ من تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُمْ بأقْوامٍ إنَّما هُمْ فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ من الجِعْلانِ التي تَدْفَعُ بأنْفِها النَّتِنَ)[3].



[1]) رواه مسلم ج14 ص 24 رقم 5109
[2]) أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ج1 ص 166
[3]) رواه أبو داود ج13 ص 320 رقم 4452 وصححه الألباني : صحيح الترمذي 243/3 وحسنه صحيح وضعيف سنن أبي داود 116/11

إن الترياق الشافي من هذا الداء العضال هو لزوم التواضع؛ وقد لخص الإمام ابن القيم حقيقته وجوهره بقوله : **(والتواضع انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، حتى لا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل الحقوق للناس عليه)** [1]

وحسماً لكل مادة تؤدي إلى الفخر أو المعايرة، جاء التوجيه النبوي القاطع :**(إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد)**، بل إن النبي ﷺ حذر من مجاراة أهل الطيش في سبابهم حين سُئل عن الرجل يُسَبُّ في الملأ فيردّ مظلمته، فقال عاصماً الألسنة من السقوط :"**المستبّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان**"[2].

وفي سياق صون القلوب من الغرور، حظر الإسلام "التألي على الله" برجم الغيب في مصائر العباد وتزكيتهم بغير علم. وتبرز هذه المعرفة الإيمانية العميقة في حديث أم العلاء رضي الله عنها، حين اختصمت الأنصار على سكنى المهاجرين، فصار عثمان بن مظعون في سهمهم، فمرّضته حتى توفي. فلما دخل رسول الله ﷺ قالت" :رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله"، فبادرها المعلم الأول ﷺ قائلاً: "وما يدريكِ؟" فقالت:" لا أدري والله"، فقال ﷺ :"أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري –وأنا رسول الله– ما يُفعل بي ولا بكم". فقالت أم العلاء إثر هذا الدرس النبوي البليغ" :فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً."[3]

إنَّ تقديمَ وصْفِ الحَالِ بالظُّلْمِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ اللِّسَانُ بِغُرُورِهِ يُؤَكِّدُ أَنَّ الِارْتِكَانَ إِلَى الأَسْبَابِ وَالِاغْتِرَارَ بِهَا هُوَ جِنَايَةٌ قَلْبِيَّةٌ تَعْتَمِلُ فِي دَوَاخِلِ النَّفْسِ أَوَّلًا، قَبْلَ أَنْ تَفِيضَ بِهَا الأَلْسُنُ تَصْرِيحًا. **ما يعني طغيانُ المادَّة وحِجَاب الأسباب** عن نسبة الفضل للمنعم

إذ تتجلى البلاغة القرآنيّة في تقديم الجملة الحاليّة ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ على القول، إيذانًا بأنَّ الانحراف العقدي يبدأ من غفلة الجنان"القلب" قبل فلتات اللسان؛ فالظلم هنا –كما يرى الزمخشري – هو إعجاب المرء بما أُوتِي، واستيلاء طول الأمل والحرص عليه، حتى ران على قلبه الاغترار بالمهلة. وتلك آفةٌ ممتدة؛ لسان حال كثير من المترفين ينطق بها وإن سكتت ألسنتهم[4].

لقد دخل هذا العبد جنته مستندًا إلى حسابات المادّة المحضة، فرأى نخلها المحيط بها كسياج يصد عواصف الرياح، وأعنابها المظللة تحمي زرعه، وأنهارها المتفجرة بالريّ الغمر تغنيها عن تقلبات السماء، فعمي عن تَدَبُّرِ قُدرةِ مُسبِّب الأسباب، وظنَّ أن هذه الحصانة المادية كفيلةٌ بديمومة النعمة وأبديتها، فقال بملء كبره: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

إنَّ هذا لَهو عينُ الكفران بالنعمة والجحودِ بالمنعم؛ إذ غفل عن مقام العبودية الذي يقتضي منه أن يلوذ بمقام: "**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**"، وأن يفزع إلى طاعة ربه مستلهمًا هدي النبوة في سؤال الله الخير كله عاجله وآجله، والاستعاذة من الشر كله، والرضا بالقضاء وجعل عاقبته رشدًا.

---

[1]) فيض القدير ج2 ص 274
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 153 رقم 428 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 177
3) رواه البخاري ج21 ص 388 رقم 6500
[4]) الكشاف ج4 ص 13

وفي قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ فالاغترار بالدنيا يقلل الشفقة من الآخرة ، ويبعد الظن من اقتراب يوم الحساب ؛ ولذلك انتقل السياق ليُعري لوثة فكرية أخرى نشأت عن طغيان الدنيا في قلبه، إذ إن **الاستغراق في شهوات العاجلة يُوهن الشفقة من الآجلة**، ويُباعد في أوهام النفس حسابَ يوم القيامة، وهو يومٌ قريب هـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.بل هو أقرب إلى أحدنا من شراك نعل كما أخبرنا النبي ﷺ .

ولم يقف طغيانه عند إنكار الميعاد، بل تجاوزه إلى قياسٍ فاسد؛ فظنَّ أن حظوته في الدنيا تدل على كرامته عند الله في الآخرة، وهو الملحظ الذي أشار إليه أبو حيان في **غمط أهل المادة والفلسفة والدهرية لعلوم الأنبياء، واتكالهم على معارفهم القاصرة**[1].

وقد دحض القرآن الكريم هذا التلازم الوهمي بين العطاء الدنيوي والرضا الإلهي في مواضع شتى، مؤكدًا أن النعمة في أيدي الجاحدين ما هي إلا استدراجٌ وإملاء:

- فتنقطع الأسباب العارضة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ..﴾.
- ويتبدد وهم المسارعة في الخيرات: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- وتنتفي مظنة القربى بالماديات: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾.
- ويتحول الإمهال إلى زيادة في الإثم والوعيد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.
- ويأتي الختام بسُنّة الاستدراج الخفيّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

وفي **قوله** (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) تجلت في محاورة العبد المؤمن لصاحبه أسمى آداب النصيحة والدعوة إلى الله؛ إذ بادر بإنكار المنكر والرد على أهل الغرور والكبرياء في حينه، مستعينًا بالتذكير بأصل الخلقة وعظيم قدرة الباري جل وعلا. ونظرًا لأن ادعاء الاستغناء عن الخالق والتقول عليه هو عين الافتراء وأعظم الظلم، فقد توعد الله فاعله بالحرمان من الفلاح، فقال سبحانه: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

وقد تلمس العلماء والمفسرون مناط الإنكار في هذه الآية، فظهر أن كفر صاحب الجنتين وإشراكه قد تلبّس بوجهين [2]:-

الأول :اعتقاده الفاسد بأن الأسباب المادية المؤثرة والمولدة للثمر تنفع وتضر بذاتها، غافلًا عن مشيئة الله وقدرته التي تسيرها.

---

[1]) في هذا المعنى : البحر المحيط ج9 ص 444

[2])

الثاني :استبعاده قيام الساعة ويقين الآخرة، مع توهمه الفاسد بأن حظه في الآخرة مضمون كحظه في الدنيا، بناءً على العطاء المادي الدنيوي.

وعلى الضد من ذلك، يتجلى حال المؤمن الوجل؛ إذ يجمع في قلبه بين إحسان العمل ومخافة العاقبة، مصداقًا للحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه جل وعلا: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[1]. وهذا الوجل الخلاق هو ما درج عليه الصدر الأول؛ فقد نقل ابن أبي مليكة رحمه الله قائلًا: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[2]، ويُذكر عن الحسن البصري في وصف الخوف والأمن: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»[3]، مما يوجب الحذر من الإصرار على المعاصي والنفاق بلا توبة، كما أثنى الله على المتقين بقوله: (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

أما ما ذهب إليه النيسابوري وغيره في تفسير قوله "أكفرت"، من أن المعنى يؤول إلى مواجهة بالخروج من الملة كأنه قال: "أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد"[4]؛ فإن ميزان أهل السنة والجماعة وقواعدهم الأثرية في باب التكفير والأسماء والأحكام تقتضي التدقيق وعدم المسارعة إلى تكفير المعين. ولعل العدول عن صيغة الإخبار (أنت كافر) إلى صيغة الاستفهام والسؤال (أكفرت؟) جاء مساقًا لفتح باب المراجعة والتوبة، والتثبت قبل إطلاق اللفظ.

والأقرب في توجيه حال صاحب الجنتين وفق السنن الشرعية، أنه شابه من وُصف بالكفر لارتكابه ذنبًا أو فعلًا كفريًا مع بقاء أصل الإيمان، وهو ما يُعرف في اصطلاح السلف بـ "الكفر العملي" أو "الكفر الأصغر". وهذا التوجيه يتسق مع المأثور عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) إذ قال: «إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكن كفر دون كفر»[5].

وبمثل هذا التفصيل استدل أهل السنة بحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[6]، حيث جُعل القتال كفرًا دون أن يخرج صاحبه من دائرة الإسلام بالكلية.

قال الترمذي في مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ **قِتَالُهُ كُفْرٌ لَيْسَ بِهِ كُفْرًا مِثْلَ الِارْتِدَادِ** ، وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ قُتِلَ مُتَعَمَّدًا **فَأَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءُوا قَتَلُوا وَإِنْ شَاءُوا عَفَوْا)** [7]، قالوا (**وَلَوْ كَانَ الْقَتْلُ كُفْرًا لَوَجَبَ)** أي الحد ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٍ وَعَطَاءٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ **قَالُوا كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ وَفُسُوقٌ دُونَ فُسُوقٍ**[8].

وحينما هبَّ الرجل المؤمن لينصح صاحب الجنتين ويعظه، لم يجد أبلغ في قمع كبريائه، وإطفاء نيران غطرسته، من أن يذكره ببدء نشأته وأصل خلقته؛ ليردَّ جموح نفسه إلى التواضع، ويكبح جماع فخره وخيلائه. فذكّره بأن أباه آدم –

---

[1]) تفسير ابي السعود ج4 ص 260

[2]) رواه ابن حبان ج2 ص 406 رقم 640 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 173

[3]) رواه البخاري ج1 ص 81

[4]) تفسير النيسابوري ج5 ص 182

[5]) رواه البيهقي في سننه ج10 ص 207 رقم 21427 واستند العلماء على ذلك كابن تيمية وغيره ورواه الحاكم في المستدرك 342/2

[6]) رواه الترمذي ج9 ص 226 رقم 2559

[7]) رواه الترمذي الحديث السابق ، وكذلك رواه البيهقي في سننه الكبرى ج8 ص 32 رقم 16350

[8]) رواه الترمذي ج9 ص 226 رقم 2559 صححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 135

عليه السلام– أبا البشر جُبل من تراب، فإذا كان الأصل الذي تفرعت عنه البشرية طينًا لازبًا، فإن النسل جارٍ على سنّة أصله، مستمد من مادته؛ إذ تتقلب الأطوار بالمرء من نطفةٍ ممتزجة تنطلق في رحم الأنثى، لتستحيل جنينًا، ثم وليدًا يرضع، فطفلاً يدرج، ثم شابًا يافعًا، حتى يبلغ أشده ويسويَّ رجلاً كامل العقل والرشد.

فأين يذهب المرء بنفسه؟ وهل يليق بمن هذه مسيرته، وتلك أطواره، أن يجحد نعمة ربه، أو يشرك به سبحانه، أو يتعاظم ويتفاخر بما أوتي من عرض الدنيا الزائل؟ إنما كان هذا الوعظ البليغ ليوقظ قلبه الغافل، فيحمله الذكر على الفكر، ويفضي به الفكر إلى السكينة والتواضع، وينأى به عن دركات الشرك والظلم؛ مصداقًا لقوله جل في علاه: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)، وتحقيقًا لما جرى به البيان النبوي الشريف في قوله ﷺ (وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ)[1] وفي رواية (أنتم بنو آدم وآدم من تراب)[2]

فيا عجبًا لآدمي يغتر بماله وجاهه! وأوله نطفة مَذرة، وآخره جيفة قَذرة، وهو بين هذا وذاك يحمل في جوفه العَذِرة!

ويقول العتيبي (خلقت يا ابن آدم من تراب .. فسبحان من يجعلك بعد الموت تُدخل في التراب) [3] .

علامَ التّكبّر يا ابن التّرابْ أبِالجاهِ..بالمالِ..أم بالثّيابْ
وتزعمُ أنَّكَ تملكُ فخراً تحلّقُ فيهِ لأعلى السحابْ
فَطِرتَ بوهمكَ دونَ جناحٍ ولاحقتَ طيفاً بدا من سرابْ
وزادكَ كبراً نفاقُ أناسٍ أروكَ بأنّكَ فيهم مُهابْ
أضعتَ حياتكَ خلفَ خيالٍ إلى أن كبرتَ وشعركَ شابْ
وشمسكَ حتماً ستغربُ يوما بدونِ شروقٍ سيتلو الغيابْ
وسوفَ تموتُ فكيفَ ستلقى إلهاً عظيماً شديدَ العذابْ
فهلّا ارعويتَ فعمركَ يمضي وقد فازَ من للإلهِ أنابْ[4]

إذ يتمحور المعنى الموضوعي الذي استظهره الشاعر في هذه الأبيات حول حقيقة الكبر الزائف، والتحذير من الاغترار بمتاع الدنيا الفاني، ودعوة الإنسان المخطئ إلى الإنابة والرجوع إلى الله قبل فوات الأوان.

فقد استهل الشاعر قصيدته بوقفة توبيخية واستفهام يحمل في طياته التعجب والإنكار، مخاطبًا هذا الإنسان المتكبر ومذكّرًا إياه بأصله الطيني الضعيف؛ فمن أي أبواب المظاهر يتسلل إليك العجب؟ أبحطام مالٍ فانٍ، أم بجاهٍ زائل، أم بثياب بهية تبلى مع الأيام؟ إنها لخلة عجيبة أن يرى المرء نفسه في علياء الفخر، ظانًا أنه يحلق بزهوه فوق هام

---

[1]) رواه الترمذي وصححه الألباني سبق تصحيحه
[2]) رواه أبو داود ج13 ص 320 رقم 4452
[3]) أحمد خالد العتيبي : صيد الفوائد ، http://saaid.org/rasael/792.htm
عندما تولد يؤذن فيك من غير صلاة .. وعندما تموت يصلى عليك من غير أذان..
عندما تولد لا تعلم من الذي أخرجك من بطن أمك .. وعندما تموت لا تعلم من الذي حملك على الأكتاف..
عندما ولدت تغسّل وتنظّف .. وعندما تموت تغسّل وتنظّف..
عندما تولد يفرح بك والديك وأهلك .. وعندما تموت يبكي عليك والديك وأهلك..
خلقت يا ابن آدم من تراب .. فسبحان من يجعلك بعد الموت تُدخل في التراب..
عندما كنت في بطن أمك كنت في مكان ضيّق وظلمة .. وعندما تموت تكون في مكان ضيّق وظلمة..
عندما وُلدت يغطى عليك بالقماش لكي يستروك .. وعندما تموت تكفن بالقماش لكي يستروك..
عندما ولدت وكبرت يسألك الناس عن شهادتك وخبراتك .. وعندما تموت لا تسأل إلا عن عملك الصالح فقط..
[4]) د وائل جحا : بوابة الشعراء https://poetsgate.com/index.php

السحاب، بينما هو في الحقيقة يطير بأجنحة من وهم وخيال، ويركض خلف طيف خادع لا يعدو أن يكون سرابًا يحسبه الظمآن ماءً.

ثم ينتقل الشاعر ليوضح سبب تمادي هذا الإنسان في طغيانه، فيعزوه إلى نفاق المحيطين به الذين يزينون له الباطل، ويوهمونه كذبًا وزورًا بأنه مهاب الجانب وعظيم الشأن، فأضاع المسكين زهرة حياته يلهث خلف هذا الخيال الخادع، حتى انقضى العمر بغتة، واشتعل الرأس شيبًا دون أن يدرك حقيقة وجوده.

وفي ختام الأبيات، يقرع الشاعر جرس الإنذار مذكرًا بالنهاية الحتمية لكل حي؛ فشمس العمر آذنت بالرحيل، وستغرب يوماً غربةً لا شروق بعدها في هذه الدنيا، ليجد الإنسان نفسه في مواجهة الموت الذي لا مفر منه. وهناك، في ساحة الحق، سيقف عاريًا من ماله وجاهه ليقهر بعجزه أمام إله عظيم شديد العقاب. وينتهي هذا العرض المؤثر بدعوة حانية مشفقة: أما آن لهذا القلب المقيد بالغرور أن يستفيق ويزدجر؟ فالعمر يمر مر السحاب، والسعيد الفائز حقًا هو من أسرع بالرجوع والندم، وأناب إلى رب العباد مستغفرًا تائبًا.

قوله (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) (38) عبارة تدل على التبرؤ من صنيع صاحب الجنتين ، وإقرار بالوحدانية لله تعالى ، فحين تميل النفوسُ مع الغرور وتطغى على البصائر نشوةُ النعم، يقفُ العقلُ السويُّ ليقطعَ حبالَ الأوهام، ويهزّ جذعَ اليقين، ناطقاً بكلمة التوحيد الخالصة :(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) معتزا بدينه ، متنزها عن أي قيمة أرضية .

قال السيوطي أصل "لَكِنَّا" "لَكِنْ أَنَا " ، وَالْمَعْنَى أنا لا أقول مثل قولك ولكن (أَنَا أَقُول هو الله ربي)[1] ، إنها "لكنِ" الاستدراك التي تُقيمُ الفارقَ السحيقَ بين من تعلقَ بالتراب وظنّ أسبابه أبديّة، وبين من تعلق برب الأسباب. فكأنَّ القائلَ في إعلانه الباذخ يقول" :لستُ كمن رأى زهرَ جنّته فظنَّ أنه باقٍ لا يزول، ولا كمن استشعر القوة في كَفِّهِ فنسيَ مُسديَ النعمة؛ أنا أعترفُ، وأشهدُ، وأُسْلِمُ: هو الله.. لا شريكَ له في مُلكه، ولا ندَّ له في ربوبيته."

وذلك هو السرُّ الدفين في التخصيص والتقديم؛ فالكبرياء مرضُ القلوب إذا استشرى، أفضى بصاحبه —حين يغترُّ بحولِه وقوّتِه— إلى شركٍ خفيّ، أو جحودٍ جليّ، يوم يظنُّ أن الحارسَ لجنتِه هو الجدار، وأن الباقيَ لملكه هو سعيُه، لا فيضُ خالقه. وحينئذٍ يأتي النداءُ الإلهيُّ الصارم ليقررَ قاعدةَ القبول والاصطفاء **(أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ)**[2].

فالعملُ الصادقُ الخالص لله هو ذاك الذي لم يشُبه التفاتٌ إلى عيونِ الخلق، ولم يتدنّس بمنٍّ أو أذى؛ إذِ الرياءُ شركُ الخفيّات، والمنُّ مفسدُ العطايا، والكفرُ العمليُّ —حين يُستباحُ فيه حدودُ الله— ربما جَرَّ صاحبه في غفلةٍ من حيث لا يشعرُ إلى شفا الهلكة، إن لم يتداركه عفوُ الله.

فيا من أُوتيتَ من حطام الدنيا شيئاً، أو رُزقتَ من زينة الأرض قبساً: اخلع نعلَ كبريائك على أبوابِ النِّعم، وتذكَّرْ أن الذي أبدعَ البداياتِ قادرٌ على إرجاعها إلى العدم، وأن العبودية الحقَّة لا تليقُ إلا بقلبٍ لا يرى في الوجودِ أحداً يستحقُّ الإجلالَ سوى الله.

---

[1]) تفسير الجلالين ج5 ص 189 نُقِلَتْ حَرَكَة الْهَمْزَة إلَى النُّون أَوْ حُذِفَتْ الْهَمْزَة ثُمَّ أُدْغِمَتْ النُّون فِي مِثْلهَا

[2]) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300

إنَّ التلازم بين ظواهر الأعمال وبواطن الاعتقادات في أبواب الدين ليس مطردًا على نسقٍ واحد، بل هو محكومٌ بحقائق التشريع ومنازل الأفعال.

فمن جهةٍ، **لا يلزم من تلبُّس العبد بالشرك العملي –كالرياء ويسير التصنع – أن يكون مشركًا في أصل اعتقاده،** بل قد يجتمع في قلب العبد أصل الإيمان الفطري مع عوارض النفاق العملي. **ومثلما لا يسلبه الشرك العملي إيمانه بالكلية، فإنه لا ينتفي عنه كذلك أن يكفر اعتقادًا ويخرج من الملة لكونه قد اقترف كفرًا عمليًّا؛** إذ إنَّ **من الأعمال ما جُعلت قرينًا لزوال أصل الدين وهدم ركائزه.**

إنَّ العمل مرآةٌ قد تعكس عارضًا من عوارض المعصية لا يقدح في أصل اليقين، وقد تكون هي النواة التي تنبئ عن زوال حقيقة الإيمان بالكلية؛ فالأعمال في ميزان الشريعة طرائق شتى، منها ما يخدش كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يهدم صرح الدين من القواعد، وبذا استقام منهج أهل السنة وسطًا بين الغلو والجفاء.

فالآية تفيد بأن العُجب إذا وصل بالإنسان إلى التفاخر والتباهي أصابه بالتكبر والغرور ، وهذا الخُلق المذموم قد يوصل بصاحبه أن يكفر بنعمة ربه عليه ،وهذا كفر عملي ، لكن صاحبه قد يصل بالشرك العملي إلى كفر اعتقادي ، وذلك عندما يظن أن الأسباب قادرة على حفظ جنته فيعظمها ولا يعظم خالق الأسباب .

وبين إفراط الغلاة وتفريط الجفاة، ينهض ميزان أهل السنة والجماعة في قضايا الإيمان والكفر حاكمًا بالعدل، ومستبيًّا مواضع الزلل التي تاهت في شعابها الأفهام؛ ليخطّ الشيخ حسن أبو الأشبال معالم هذا التمايز بعبارات قاطعة ومحاكمة علمية رصينة. فالقول في الكفر يقع على شطرين:-

الكفر الاعتقادي :وهو ما استقر في وِجدان المرء وانطوت عليه سريرته من جحود وتكذيب، فهذا مخرجٌ من الملة بغير مراء، ومُحبطٌ للعمل بقاطعِ صريحِ الوحي، وعنده يزول أصل الإسلام بالكلية.

الكفر العملي :وهو مكمن المزلّة ومفترق الطرق بين السَّنَن والبدعة، وبيت القصيد الذي باينت فيه السُّنَّة سائر النِّحَل.

فقد توهّم طوائف من الناس أن الكفر العملي كتلة واحدة لا ينفذ منها صاحبها إلى الخروج من ربقة الإسلام مطلقًا، فجعلوا كل عملٍ بمجرده "كفرًا دون كفر" لا يسلب صاحبه اسم الإسلام؛ وفي هذا لَبْسٌ عريض، وغفلة عن حقائق الشرع.

إن الميزان الدقيق في "الكفر العملي" يقتضي سَبْرَ غَوْرِ العمل ونوعه:

عملٌ يهدم أصل الدين :وهو كل فعلٍ نضح بالكفر نصاً أو إجماعاً (كالسجود للصنم أو الاستهانة بالمصحف)، فهذا كفرٌ عمليٌّ ينقلب بصاحبه إلى مروقٍ تام من الملة، وإن لم يصحبه جحود قلبي.

عملٌ يقدح في الإيمان الواجب :فإنها لا ترفع أصل الإسلام، بل ترفع كماله الواجب، ويبقى صاحبها في دائرة الإسلام تحت الوعيد والمشيئة , وهي الذنوب التي شرع فيها الإسلام حدوداً وزواجر (كالزنا، والسرقة، والقتل، وشرب الخمر)، فهذه المعاصي وإن سُمِّيَت في بعض النصوص كفراً ، فهي التي يقصد منها كفر دون كفر .

وعليه؛ فإن نفي الإيمان في نصوص الوعيد إنما يتوجه إلى الإيمان الواجب -الذي بتركه يستحق العبد العقاب-، لا إلى الإيمان الكامل -الذي يتعلق بالمستحبات والمندوبات-؛ فمن ترك الواجبات وارتكب الكبائر فقد نقص إيمانه الواجب، ومن ترك المستحبات فقد فاته الإيمان الكامل المستحب)[1].

هذا الميزان القائم على القسط، والبعيد عن شطط المرجئة وغلو الخوارج، هو عينه الغيث الذي أفاض ببيانه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إذ أقام عليه صرح مجلده السابع من "الفتاوى"، فجاء مَسْطوراً من فاتحته إلى خاتمته في تحرير مسائل الإيمان والكفر، وضبط مناطاتها برباط العلم المتين وهدي الوحي المستبين

قوله (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) قال ابن كثير (هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك) [2]، و(استدل أهل السنة بالآية في أنه لا يدخل في الوجود شيء إلا بأمر الله ومشيئته)[3] ، قال أهل اللغة (الحول الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى)[4] .

والحوقلة تعني أنه لا يكون في كونه إلا ما أراد ولا يكون في هذا الكون شيء إلا ويعلمه"، (والتيقن بذلك يؤدي إلى حسن التوكل على الله وحسن الاستعانة بالله كما تؤدي إلى تخلية القلب من القبيح والتحلي بالحسن من الأخلاق كما تؤدي إلى التسليم والرضا)[5] .

قال ابن تيمية (وَقَوْلُ " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ " يُوجِبُ الْإِعَانَةَ ؛ وَلِهَذَا سَنَّهَا النَّبِيُّ ﷺ إذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ : " **حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ** . فَيَقُولُ : الْمُجِيبُ : **لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ** فَإِذَا قَالَ : **حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ** قَالَ الْمُجِيبُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ") أي لا طاقة لنا ولا حول ولا قوة للنهوض والقيام للصلاة إلا بحول الله وقوته .

وَقَالَ الْمُؤْمِنُ لِصَاحِبِهِ : (وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ) وَلِهَذَا يُؤْمَرُ بِهَذَا مَنْ يَخَافُ الْعَيْنَ عَلَى شَيْءٍ ، فَقَوْلُهُ : مَا شَاءَ اللَّهُ . تَقْدِيرُهُ : **مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ** ، فَلَا يَأْمَنُ ؛ بَلْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ ، وَيَقُولُ : لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ، **وَهِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ** " و" الْكَنْزُ " مَالٌ مُجْتَمِعٌ لَا يَحْتَاجُ إلَى جَمْعٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا **تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ وَالِافْتِقَارَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى** ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ إلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ مِنْهُمْ شَيْءٌ إلَّا مَا أَحْدَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ ، قَالَ تَعَالَى (**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) ، فَإِذَا انْقَطَعَ طَلَبُ الْقَلْبِ لِلْمَعُونَةِ مِنْهُمْ وَطَلَبَهَا مِنْ اللَّهِ فَقَدْ طَلَبَهَا مِنْ خَالِقِهَا الَّذِي لَا يَأْتِي بِهَا إلَّا هُوَ ، ففِي الْأَثَرِ (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ**) [6].

---

[1]) حسن أبو الأشبال الزهيري : شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة ج 7/39 https://shamela.ws/book/37436/770

[2]) تفسير ابن كثير ج5 ص 158

[3]) تفسير النيسابوري ج5 ص 182

[4]) تحفة الأحوذي ج9 ص 301

[5]) https://www.elbalad.news/5510140

[6]) مجموع الفتاوى ج13 ص 326

وقال (افْتَرَقَ النَّاسُ هُنَا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ لَا يَعْبُدُونَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ ، وَصِنْفٌ يَقْصِدُونَ عِبَادَتَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا حَظَرَ لَكِنْ لَمْ يُحَقِّقُوا التَّوَكُّلَ وَالِاسْتِعَانَةَ فَيَعْجِزُونَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ وَيَجْزَعُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَصَائِبِ ، ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ هُوَ الْمُبْدِعَ لِأَفْعَالِهِ ؛ فَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَسْتَعِينُونَهُ وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ صَلَاحَ قُلُوبِهِمْ وَلَا تَقْوِيمَهَا وَلَا هِدَايَتَهَا ، وَهَؤُلَاءِ مَخْذُولُونَ كَمَا هُمْ عِنْدَ الْأُمَّةِ كَذَلِكَ ، وَقَوْمٌ -صنف ثالث- يُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ قَوْلًا وَاعْتِقَادًا ؛ لَكِنْ لَمْ تَتَّصِفْ بِهِ قُلُوبُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا كَمَا اتَّصَفَتْ بِقَصْدِ الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ ؛ فَهُمْ أَيْضًا ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ ،وَصِنْفٌ - رابع- نَظَرَ إلَى جَانِبِ الْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُعْطِي وَالْمَانِعُ وَالْخَافِضُ وَالرَّافِعُ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ التَّوَجُّهُ إلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَالِافْتِقَارُ إلَيْهِ لِطَلَبِ مَا يُرِيدُونَهُ فَهَؤُلَاءِ يَحْصُلُ لِأَحَدِهِمْ نَوْعُ سُلْطَانٍ وَقُدْرَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ وَقَهْرٍ لِعَدُوِّهِ ؛ بَلْ قَتْلٍ لَهُ وَنَيْلٍ لِأَغْرَاضِهِ ؛ لَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُمْ ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى ؛ بَلْ آخِرَتُهُمْ آخِرَةٌ رَدِيَّةٌ

قال رسول الله ﷺ **(إذا رأى أحدكم من نفسه و أخيه ما يعجبه فليدع بالبركة فإن العين حق)** [1]. فهذا البيان النبوي يضابط خطرات القلوب ولحظات العيون، ليرتقي بالإعجاب البشري من مظنة الأذى إلى سمو الدعاء. من خلال مراعاة الآداب التالية : –

أولاً: إشراقة الاستحسان وتدفق النعمة

فعند تقليب النظر في ملكوت النعم، قد تقع العين على بهاءٍ يسلب اللب؛ إما في مرآة الذات (صحةً، أو مالاً، أو ولداً)، أو في ساحة الأخوة ، يشير الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أن **الإعجاب بالنعمة جبلّة بشرية**، لكن النفس قد يتداخلها استحسان مشوب بـ "انبعاث نفسيّ" لا يقصد الأذى ابتداءً، لكنه قد يحمل في طياته سموماً خفية إذا خَلا من ذكر المنعم [2].

ثانياً: ترياق التبريك وحصن النماء

فقوله ﷺ «فليدع بالبركة» توجيه نبوي بالاستعانة بهذا الترياق الإلهي الذي يطفئ لظى الوهج النفسي. فالدعاء بالبركة (كقولك: اللهم بارك له فيه، أو تبارك الله) فهو إعجامٌ لشره العين وإطفاءٌ لشررها؛ لأن العبد بدعائه يربط النعمة بواهبها، ويمزج إعجابه بالرضا والتسليم، فتنقلب النظرة الجارحة إلى غيمة حانية تمطر نماءً وزكاة.

يؤكد **الإمام النووي** أن (هذا الأمر النبوي يحمل في طياته شحذ المروءة، وتصفية القلوب من الكدر؛ بحيث يصبح المسلم حصناً لأخيه لا سهماً يرميه، فيتحول الثناء المجرد إلى دعاء متصل بالسماء) [3]

وتلمح النصوص هنا إلى لفتة لطيفة؛ وهي أن الإنسان قد يحسد نفسه وماله إذا تملكه العُجب وغاب عنه الشكر، فكان التوجيه النبوي بالدعاء بالبركة **شاملاً لحماية الإنسان من نفسه ومن غيره** .

ثالثاً: حقيقة السهم المستتر

فقوله ﷺ "فإن العين حق" جاء خاتمة كالبرق في حسم الحقيقة؛ تأكيد صريح لا يدع مجالاً للمراء بأن للعين أثراً حقيقياً يخرق الأسباب المادية بإذن الله وقدره.

يفصل **الإمام المناوي** في كنه هذا الأثر، مبيناً أن "العين حق" تعني أن الله سبحانه أجرى العادة بخلق مسببات وتأثيرات خفية عند التقاء النظرات المعجبة بالشيء دون تبريك، تماماً كأثر السموم والأرواح الخبيثة، وهي لا تؤثر بذاتها بل بأمر الله وقضائه)[4].

فالحديث يثبت الأثر الغيبي للعين رداً على الماديين، وفي الوقت نفسه يسلبها سلطة التأثير المستقل، ليربط كل شيء بمشيئة الله .

إن هذا الحديث الشريف يرسم للمجتمع المسلم **لوحة أمانٍ نفسية وأخلاقية**؛ فهو يهذب غريزة التطلع، ويحول نظرة "العين" من سهم قاتل إلى دعاءٍ واصل. إنه يعلمنا أن سلامة الصدور تبدأ من انطلاق الألسنة بالدعاء بالبركة

---

[1]) رواه الحاكم ج4 ص 240 رقم 7499 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 71 رقم 2572
[2]) فتح الباري ج10 ص 205
[3]) شرح مسلم للنووي ج14 ص 171
[4]) فيض القدير ج6 ص 168 التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 308

للآخرين، لتبلغ الأمة مرامها من قوله ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1]"، فتغدو النعم مشاعة بالبهجة، محروسة بالبركة، مصونة من غوائل الأذى .

ولالتزام الذكر والحوقلة فوائد جمة منها :-

- أنه سبيل غفران الذنوب جميعا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا **كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**)[2]

- وأنه سبيل للوصول غراس الجنة مباشرة ، فعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ أكثروا من غراس الجنة فإنه عذب ماؤها طيب ترابها فأكثروا من غراسها قالوا يا رسول الله **وما غراسها** قال (ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله)[3]

- وأنه سبيل للوصول إلى أغلى شيء في الجنة ، فهو كنز من كنوزها ، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ لِي يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ **فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ** أَوْ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ بِهِ)[4]

قال العلماء (سبب ذلك أنها كلمة **استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئا في الأمر**) [5]

وقال الصنعاني أي (أن ثوابها مدخر في الجنة وهو **ثواب نفيس** كما أن **الكنز أنفس أموال العباد** فالمراد مكنون ثوابها عند الله لكم وذلك لأنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله واعتراف الإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئا من الأمر والحول والحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله)[6] .

قوله (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) (39) فهو بذلك القول يلقي باللوم عليه . أن نظر له نظرة استحقار له ، واستصغار لشأنه ، وتكبر عليه ،قال البغوي معناه: (إن ترني أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت علي) [7] ، قال الخازن (أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت)[8] ، أي لا تتعاظم علي لأنني أقل منك مالا وولدا ، لأن محل الفخر ليس بالمال ولا الحسب والنسب والأولاد ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)[9].

---

[1]) رواه مسلم ج1 ص 158 رقم 64
[2]) رواه الترمذي ج11 ص 363 رقم 3382
[3]) رواه أحمد في مسنده ج48ص45 رقم 22450 ، كنز العمال 1/ 252حديث رق 3949 ، والبيهقي في شعب لإيمان ج1ص443 رقم 657 ، وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 116 رقم 1584
[4]) رواه البخاري ج22 ص 385 رقم 6838
[5]) تحفة الأحوذي ج9 ص 301
[6]) سبل السلام ج4 ص 218
[7]) تفسير البغوي ج5 ص 172
[8]) تفسير الخازن ج4 ص 312
[9]) رواه مسلم ج12 ص 427 رقم 4651

فالمسلم لا يستشعر نقصا في نفسه لقلة ما بيده من مال ، وما حوله من ولد ، بل يستشعر العزة بدينه ، والقوة من معية الله له ، فكأنه أراد ألا يكون سببا في فتنة صاحب الجنتين ، فنبهه على خطورة التفاخر بالمال والولد ، وأراد أن يتحلل من إثمه بنصيحته ، فلا يستصغره ولا يحقره ، إشفاقا على خصمه من أن يلج النار بسببه ، وتبرأ من إثمه ألا يكون قد وعظه وتركه على هذا الحال من الضلال ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)[1].

قوله (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) استظهار لطمع المؤمن في فضل الله ، وجواز سؤال ربه من خيري الدنيا والآخرة . لينتفع به ويتصدق طالما أنه يستشعر الفضل ويصل الطلب بالشكر ، فالمؤمن يطمع أن يرث ما قد يستخلفه الله عليه ليستعمله في شكر المنعم كما في قوله (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (الأعراف 128) ، وكقول يوسف (**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ** إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(يوسف 55) .

فهو لم يطلب من ربه جنة مثل جنتي صاحبه ، وإنما سأل الله أن يعطيه جنة خير من جنته لأمرين :-

الأول إذا كان يطمع في شيء من الدنيا فذلك من باب تحمل المسئولية ، وذلك يتفق مع قواعد الاستخلاف والاستبدال كما في قوله (**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**) (الدخان/28) ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ **لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**)[2] ، قال السندي أي : (فلا أطلبه من حيث إنه مال فإنك قد أغنيتني عنه من هذه الحيثية بل **أطلبه من حيث إنه من بركاتك** ، ولا غنى بي عنه من هذه الحيثية)[3]، هذا إن كان محل السؤال لأجل شيء من الدنيا.

ومن جهة أخرى فإن أصحاب الآخرة مشغولون بها ، كقوله (**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (القصص/83) ، فإذا سألوا خيرا من الدنيا فإنه بقدر استعماله في طاعة الله لينالوا بذلك جزاؤهم في الآخرة ، فيكون بذلك **محل الطلب حقيقةً شيئا من الآخرة** .

ويستبعد أن يطلب شيئا من الدنيا لأجلها وحسب ، لقوله ﷺ (**مَنْ رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ هُوَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ**)[4]

فالشغل الشاغل لأهل الحق هو خيري الدنيا والآخرة ، لأجل تطويع الدنيا لنيل مرضاة الله في الآخرة ، ومن قبيل ذلك كذلك الالتزام بسنة النبي ﷺ القولية ، فقد كان يقول (**اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم** وأسألك الجنة وما قرب إليها من

[1]) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650
[2]) رواه البخاري ج11 ص 186 رقم 3140
[3]) حاشية السندي على صحيح البخاري ج1 ص 67
[4]) رواه الترمذي ج6 ص 421 رقم 1702 ضعفه الألباني

قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك مما سألك به محمد وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا)[1].

ألمحت الآية الكريمة إلى جواز معاملة المتكبر بمثل كِبره، مع فارقٍ جوهريّ في الدوافع والغايات؛ فبينما يتكبر العاصي عُجبًا وخُيلاءً بعرَضٍ من أعراض الدنيا الزائلة، يتسامى المؤمن فوق أهل الكبر اعتزازاً بالله تعالى وثقةً بنصره، مستعلياً بإيمانه في هذا الموقف بالذات، دون أن يستشعر في نفسه خيريّةً ذاتية عليه، أو يغتر بظاهر حاله فيحتقر غيره، أو يقطع لنفسه بحسن العاقبة؛ إذ لا يعلم الخواتيم إلا الله، وقد قال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

فليس في ذلك من الكبر المذموم شرعا ، بل هو مظهر من مظاهر الاستعزاز بالله والانكسار له وحده، لا سيما في مواجهة من يستقوي بماله أو سلطانه على عباد الله ، فالعزة المحمودة حين تكون لإظهار القوة والأنفة أمام المتجبرين والمتكبرين لكسر شوكتهم وردع غرورهم، وقد نصّ العلماء على أن التكبر على المتكبر صدقة ، وامتثلوا لقول الشاعر:

وَإِذا جَهِلْتَ عَلى الجَهولِ فَحَسْبُكَ المِجْدُ المؤَثَّلْ ... وَإِذا بُليتَ بِشامِتٍ كُفْرٍ فَكَبِّرْ ثُمَّ كَبِّرْ وقيل قديماً: "الكبر على المتكبر تواضع ".

فالمؤمن لا ينكسر لفقره، ولا يخضع لتعالي صاحبه، بل يستقوى بالله وحده، ولذلك جاء الردّ هنا عليه مفعما بالثقة والعزة ، متوسلاً برجاء الله تعالى واليقين بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن زوال ما عند المتكبر قريب هين على الله.

فقد قابل المؤمن افتخار صاحبه بالمال والجاه بالتسليم لله واللجوء إليه (لكنا هو الله ربي) ، واثقاً بأن الله قادر على أن يعوضه خيراً في الدنيا أو يخبئ له الأفضل في الآخرة، وهو درس في عدم الخضوع لأصحاب النفوذ الدنيوي حين يطغون.

فهذه الآية أصل في تعزز أهل الإيمان بالله وطاعة الرحمن في مقابل ذلة الكفر والطغيان، فالمؤمن لا ينبغي له أن يهن ولا يحزن لقلة حظه من الدنيا أمام استعراض المتكبرين لثرواتهم.

وفي هذا المعنى يؤكد ابن القيم أنه حين يتغلغل في قلب المؤمن نور "المنة"، ويستشعر الوجدان معنى اسم الله "المنان"، عندئذٍ، يقف العبد على عتبة الافتقار التام لمولاه، ناظراً بقلبه إلى" سبق فضله "الذي غمره قبل كل حركة وعمل؛ فينقشع عنه كل غرور، وينقطع تماماً عن الالتفات إلى أي حول أو قوة أو حال ينسبه إلى نفسه

فالعبد الفقير الحقيقي، يشغله رؤية منة مولاه وفضله السابق عن أي حال يرجو فيها لنفسه عِزّاً أو شرفاً

أما من انشغل المرء برؤية "حاله" أو استعراض مقامه، فإنه ينفصل عن مشاهدة عزة مولاه وفاطره، وغاب عن ملاحظة عظمة صفاته سبحانه. فصاحب "الأحوال" العارضة، إذا استغرقه إعجابه بنسكه أو مقامه، حجبته عزة نفسه عن شهود عزة مولاه[2] .

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص222 رقم 639 وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ج1ص243

[2]) طريق الهجرتين ج1 ص 50

كما قرّر الإمام ابن القيم في كتبه (مدارج السالكين وروضة المحبين) أن العزة الحقيقية مستمدة من عبودية الله وحده، وكلما استغنى القلب بالله، انكسرت أمامه أطماع الدنيا وزخارفها، وأن من أعظم آفات القلوب التذلل لأصحاب الثروات والسلطان على حساب الدين والكرامة

فقال في "**المفسد الثالث: التعلق بغير الله تبارك وتعالى، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق؛** فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكَله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به... ومَثَلُ المتعلق بغير الله: كمَثَل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وهو أوهن البيوت" [1]

كما فصل ابن القيم في كتاب الفوائد بين التواضع المحمود والذل المذموم الذي يقع فيه من يتذلل لأصحاب الجاه والمال، موضحاً أن العزة الحقيقية هي الاستغناء بالله ، فمن كان في خلقه التواضع المحمود :**أعز نفسه بالطاعة، ورفعها بالاستغناء بالله عن خلقه؛** فلم يتذلل لأصحاب الثروات والسلطان تذللاً يضع من قدره، بل جعل ذله وانكساره كله لله عز وجل)

فقال – نصا – في بيان هذه التفرقة بين التواضع والمهانة (**التواضع** وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقا بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله وهذا خلق إنما يعطيه الله عز و جل من يحبه ويكرمه ويقربه

أما تواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله **ضعة** لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة)[2] .

كما أشار الإمام ابن تيمية في مواضع متفرقة من مجموع الفتاوى إلى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المؤمن مأمور بأن يقابل المتكبر بعزة وثبات، لئلا يكون سبباً في تمكين أهل الباطل من طغيانهم. واستشهد بقوله تَعَالَى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وقال (**فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَهُوَ الْأَعْلَى كَائِنًا مَنْ كَانَ**)[3]

كما ذكر العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس أن عبارة (التكبر على المتكبر حسنة وفي لفظ صدقة)، هي نقل القاري عن الرازي ، لكن معناه مأثور[4] ، وقيل ليس الكبر حينئذ كبراً بل **سمي تكبراً من باب المشاكلة** فحسب[5].

وقال صاحب كتاب بريقة محمودية (**التكبر على المتكبر صدقة**)[6]، لأنه إذا تواضعت له تمادى في ضلاله وإذا تكبرت عليه تنبه)[7].

وأكد الشيخ ابن عثيمين — في شرحه لرياض الصالحين – وغيره من المعاصرين مراراً أن من حق المؤمن بل من واجبه ألا يظهر بمظهر المذلة أمام من يتطاول عليه بماله أو جاهه، بل يتسلح بالإيمان والعزة التي أعزّه الله بها.

---

[1]) مدارج السالكين ج1 ص 458
[2]) الروح ج1 ص 234
[3]) مجموع الفتاوى ج3 ص 252
[4]) كشف الخفاء ج1 ص 313
[5]) فتاوى الشبكة الإسلامية ج10 ص 3027
[6]) اللباب في علوم الكتاب ج8 ص 6 تفسير الرازي ج7 ص 248 أسنى المطالب ج1 ص 116
[7]) برقية محمودية في شرح طريقة محمودية ج3 ص 176

ومن الأدلة الشرعية المؤيدة لوجوب الاستقواء بالله والعزة في وجه المتكبرين قوله تعالى (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)(المنافقون8) فالعزة حق حصري لله ومن أخذها بصلته بالله فهو العزيز. فالثبات أمام الطغاة يمنع استعباد البشر للبشر

كما ورد النهي عن التذلل لغير الله لطمع دنيوي لاسيما إذا كان فيه شبهة حرام : قال رسول الله ﷺ (**اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ**)[1].

وعن النبي ﷺ قال (**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**)[2]

ومن نصائح النبي ﷺ (**وَأَجْمِعْ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**) [3]

وقد ورد عن السلف الصالح "**أعزّ المؤمنين من استغنى عن الناس**"، فمن استغنى بالله لا تضرّه مظاهر الزيف الدنيوي لأصحاب الجنات والقصور.

يقول الاستاذ سيد قطب (فأما صاحبه الذي لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر . . فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى . **معتز بعقيدته وإيمانه** . **معتز بالله** الذي تعنو له الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور **منكراً عليه** بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار ، وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالي المال والنفر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا **يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال** . وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله) [4].

قوله (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) (41) عسى هنا لا تفيد الترجي كما سبق في طلب الجنة ، وإنما تفيد الإشفاق من أن يحصل ذلك له إذا ما تمادى صاحب الجنتين في كبره وتحقيره لغيره[5] ، وفي ذلك إثبات ليقين صاحبه بعاقبة التكبر على الخلق.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا** وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ **وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**)[6].




فالمطر إذا زاد عن حده يفسد الأرض ، كما في حديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **هَلَكَتْ**

1) رواه الترمذي ج8 ص 275 رقم 2227 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 4 رقم 930
2) رواه بن ماجة ج 12ص124 رقم 4092 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 392 رقم 3310
3) رواه بن ماجة ج 12ص207 رقم 4161 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 405 رقم 3363
4) في ظلال القرآن ج5 ص 64
5) إذا دخلت "عسى" على أمر مكروه ومخوف (مثل هلاك الجنة والمال)، فإنها تخرج عن معناها الأصلي (الترجي) إلى معانٍ بلاغية سياقية أخرى، أبرزها:
- الإشفاق والتخويف :وهو ما عبرتَ عنه بدقة؛ أي :إيقاع الخوف في نفس المخاطب وتحذيره من عاقبة أمره لعلّه يرتدع.
- التوقع والتحقيق :الإخبار بالوقوع القريب كما في قوله (عسي أن يكون قريبا)
6) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650

الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا قَالَ أَنَسٌ وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ قَالَ فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ فَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ** فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا قَالَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالظِّرَابِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ** قَالَ فَأَقْلَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ)[1].

هنا أراد صاحبه أن يبين له هوان الاعتماد على الأسباب ، وعدم الاعتماد على الله ، فإبادة حديقته يحصل إما بأسباب سماوية أو أرضية ، وفي كلا الحالتين إما أن يتحسر على ما أصبحت عليه الأرض حين تصير ترابا زلقا كناية عن خرابها بعد أن يفسد الزرق لكثرة المطر ، وتحتاج لوقت طويل حتى تجف ويتم إصلاحها ونفقات أخرى .



أو أن يغور الماء من الأرض ، أي تبتلع الأرض الماء ، وهنا تنقطع عنها أسباب الدوام فلا يجد ماءً ليسقي به الزرع بسبب انخفاض مستوى الماء عن مستوى سطح الأرض ، وهنا يتحسر أكثر وهو يرى عجزه عن طلب الماء ، بل إنه ليراه لكنه عاجز أن يرفعه فيموت الزرع ولا يقدر على فعل شيء .

قوله (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) (42) الإحاطة بالثمر تعني هنا تفقده والنظر فيه ، فإذا به يتفاجأ بالصدمة التي لم يكن يتوقعها ، فقد هلك ثمره كله في لحظة واحدة ، وضاعت كل أحلامه التي كان يحلم بها ، وآماله التي طالما علق طموحه لتحقيقها ، وانهار صرحُ الأماني التي طالما بنى عليه غروره ، ليصبح مع إشراقة الصبح صفر اليدين ، ويجد أنفاسه تقطعت حسرةً على ما أنفق.

قال أهل البيان (عندما وصف الله نشأة الجنتين أسهب واسترسل وفصل سبع جمل "جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب- وحففناهما بنخل-وجعلنا بينهما زرعا-كلتا الجنتين آتت أكلها-ولم تظلم منه شيئا -وفجرنا خلالهما نهرا-وكان له ثمر"....كذلك الحياة تنشأ شيئا فشيئا .. وتنمو جزءً فجزءً .. وتحتاج إلى رعاية وتربية وتدبير ، لكن إذا جاء الموت أتى كلمح بالبصر ليضرب ضربة واحدة...)[2].

---

[1]) رواه البخاري ج4 ص 106 رقم 958

2) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

قوله (..وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) (42) وهنا يبدو أنه انتبه لحقيقة واحدة كثيرا ما أغفلها ، **وهي أن الله تعالى هو الذي قدر له هذا الرزق وهو الذي سلبه منه** ، فتذكر ما كان منه من لحظات الغرور والكبر والزهو بما آتاه الله من متاع الدنيا ، وتنبه إلى أن **الرزق عاريّةُ المالك**، لكنه تنبه متأخراً إلى ما سها عنه طويلاً.

إذ أشرك بربه لما قال (مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً)[الكهف:35-36] . فلم يستثن في الجملة الأولى ، ولم يقل (إن شاء الله لم تبيد هذه أبدا) ، فلم يعلق الأمر على المشيئة ، لزهوه بزرعه واغتراره بالدنيا ، واعتماده على الأسباب ، فأسباب التمكين أغرته بأنها لن تهلك أبدا ، أما الجملة الثانية ففيها إما معنى إنكار البعث أو إنكار أن تباغته الساعة ، وكلاهما فيه معنى الاعتزاز بالقيم الأرضية ، ونسيان لقاء الله .

يقول صاحب الظلال (وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء ، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب ، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته . ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن **اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن** ، ويندم عليه ويستعيذ منه)[1]،ولعل الأوان لم يفت ولا يزاله صدره يجيش بالنفس ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**)[2].

قوله (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) (43) يؤكد أنه كما خذلته جنته وبادت، فقد خذله أيضاً مَن كان يستند إليهم؛ فلم يعتزّ بولدٍ ولا نصيرٍ من أتباعه. وبذلك تبدّد زَهْوُه القديم حين قال متبجحاً (**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**)، لِيؤول به الحال مجرداً من ماله، عاجزاً عن دفع البلاء عن نفسه، دون ناصرٍ يعينه في هذه الجائحة أو مواسٍ يخفف عنه مصابه.

قوله (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..) (44) يعني : (أن **المحبة والنصرة إنما هي لله –جل وعلا– وليست لغيره**)[3] .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[المائدة:55-56]

وقد أشار ابن عجيبة إلى ذلك المقام العليّ، في تلك الحال السَّنيّة، حيث تَتجلّى الولايةُ الحقّة لله وحدَه؛ وتنفردُ الذاتُ العليّة بسُلطان النُّصرة، فلا يَقْدِرُ على كفايتها قادِر، ولا ينهضُ بعبئها سِواه. إنّها الرعايةُ الربّانيّة الشاملة، والحياطةُ الإلهيّة الدائمة التي يَحفّ بها سبحانه أولياءَه في عاجلِ الدُّنيا وآجلِ الآخرة؛ فلا يَعتريهم خِذلانٌ في مَوطن، ولا يَخلقُ رجاؤهم في مَشهد. بل يتولّى الحقُّ جلّ وعلا سياستَهم بلُطفه، ويَمُدُّهم بنصرِه، ويَهْديهم بنورِه؛ **جَزاءً لِما اعتصموا بعزّته، وتبرّؤوا من الاعتزاز بسِواه**. وجِماعُ الأمرِ وخاتمتُه: تنزيه لشأن من اعتز بالحق واعتصم بحبله، عمن استمسك

[1]) في ظلال القرآن ج5 ص 65
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 304 رقم 4243 وحسنه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 418 رقم 3430
3) دروس الشيخ : صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ التمهيد لشرح كتاب التوحيد ج2 ص 13

بأوهام السراب واعتز بالباطل. أنّ مَن تّولّى اللهَ وآوى إلى رُكنه المنيع، كان حقاً على الله نصرته، فكانت النُّصرةُ عاقبتَه ومَآلَه، ومن استنصر بغيره وتولى سواه كُتب عليه الذل والخسران.[1]

قوله (..هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا..)(44) يعود الضمير (هو) في الآية الكريمة إلى رب العزة سبحانه؛ فهو " خَيْرٌ ثَوَابًا " من كل ما سواه. فشتان بين جزاء الخالق وجزاء المخلوق؛ فالعبد إن كافأ على صنيعٍ لم يزد على مِثله إلا اليسير، أما الله جل وعلا فيجزي على العمل الواحد بعشرة أمثاله، ويضاعفه إلى سبعمائة ضعف، بل إلى أضعاف كثيرة لا يحصيها عدّ.

وليس هناك ثواب عند الله أعظم من ثواب التوحيد بلا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ (يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ فَيُنْشَرُ لَهُ **تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا** كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ثُمَّ يَقُولُ أَلَكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ **فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** قَالَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ **فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ**)[2]

وهو سبحانه (.. وَخَيْرٌ عُقْبًا)(44) ؛ إذ مآل الأمر ونهايته خير ولابد ، فولاية الله خير من كل شيء ؛ فكل العواقب التي يرجوها المرء من بني البشر مآلها إلى زوال، أما العاقبة التي يدّخرها الله لعباده فثابتة خالدة لا تحول ولا تزول.

ونظيره قوله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * **وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) (الأعلى 17) ، وقوله تعالى (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **وَالْآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**) (الزخرف 35) .

يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[3]

---

[1]) البحر المديد ج3 ص 401

[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 356 رقم 4290 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج9 ص 300 رقم 4300

[3]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021

تتمة المحور الثاني

تهوين الحياة الدنيا وتعظيم أحداث الآخرة

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)

لما ذكر الله سبحانه غطرسة صاحب الجنتين وتكبره والتكثر بهما ، كان من المناسب تهوين شأن الدنيا ، وذم السعي وراءها بلا ضابط ، وفي المقابل ذكر شيئا من القيامة حتى يستفيق كل متعلق بها منها ، ثم ذكر قصة إبليس لبيان عاقبة التكبر ، وتبكيت بني آدم من اتباع ذريته ، ثم عادت الآيات لتذكر بالآخرة والنار حتى لا يتعاظم المتكبرون ، وينتبهوا إلى ما خلق الله فتنكسر حدة الكبر عندهم .

قال أبو حيان (ذكروا في ارتباط هذه الآيات بما قبلها أنه تعالى لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بمجالسة الفقراء وكان أولئك المتكبرون قد تأنفوا عن مجالستهم ، وذكروا للرسول ﷺ طردهم عنه وذلك لما جبلوا عليه من التكبر والتكثر بالأموال والأولاد وشرف الأصل والنسب ، وكان أولئك الفقراء بخلافهم في ذلك ناسب ذكر قصة إبليس بجامع ما اشتركا فيه من التكبر والافتخار بالأصل الذي خلق منه) [1].

قوله (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) (45) يلخص الله الحياة الدنيا في هذا المثال مبينا هيئتها في إقدامها لتلبية حاجات الناس استهلالها بذكر الماء النازل من السماء كالغيث يُغاث به نبات الأرض ، ثم يزدهر عندما يختلط به ، لكنه لا يلبث حتى يذبل سريعا كأي شهوة من شهوات الدنيا تزدهر ثم تخبو وتضعف ..وهكذا.




[1]) البحر المحيط ج7 ص 471

ومن هوانه ترى الرياح تلعب بما بقي من الهشيم المحطم من النبات الذابل ، قال ابن جزي ومعنى المثل : (تشبيه الدنيا في سرعة فنائها بالزرع في فنائه بعد خضرته)[1].

وتتجلى بلاغة الآية الإيجازية في **طيّها لمرحلة زهو النبات وقوته**، فأسقطتها من حساب الزمن كأن لم تكن؛ إشارةً إلى ضآلة تلك الفترة التي تأنّق فيها النبات وازدهى، إذا ما قِيست بامتداد زمن ذبوله وولوعه حتى غدا هشيماً تذروه الرياح.

قوله (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يشير إلى حقيقة المتاع الدنيوي؛ فكلا من المال والبنون اللذين يزينان هذه الحياة ، وإن كانا في ظاهرهما بهجةً وتجملاً لأهل الدنيا، إلا أن حكمهما كحكم الماء الذي اختلط به نبات الأرض فما لبث أن ذبل وفني. فالإنسان لا يدوم له مال ولا ولد أبدا ، وكل ذلك يتركه وراء ظهره عند دخول القبر، ولا يرافقه في رحلته الأخروية إلا العمل الصالح.

ولما كانت الدنيا دار ممر لا مقر، فإن المال والولد لا يُطلبان لذاتهما، وإنما يُشرع طلبهما من الله تعالى للاستعانة بهما على مرضاته سبحانه. روي عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قال :(**الْمَالُ وَالْبَنُونَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ لأَقْوَامٍ**)[2] .ويؤكد هذا المعنى توجيه النبي ﷺ : «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ **صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ **وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[3] ، فبين كيف ينقلب المتاع الزائل عملاً باقياً بالنية الصالحة.

من هنا ناسب التعقيب بذكر العوض الدائم؛ فجاء قوله تعالى :(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [4] حضاً للعباد على الاستكثار من الطاعات وأعمال البر، وعدم الركون إلى فاني المتاع؛ تماشياً مع قوله سبحانه: (**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ**). وقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**اسْتَكْثِرُوا** مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»، قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**).

وفي هذا الميزان الإيماني، يوضح **الإمام ابن القيم** فضل ثواب الطاعة وبقاء أثرها مقارنة بزوال لذة الدنيا، حيث يقول :(**لو رزق العبد الدنيا وما فيها ثم قال: الحمد لله، لكان إلهام الله له بالحمد أعظم نعمة من إعطائه له الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا يزول، وثواب الحمد يبقى**) [5]

كما قرر **الإمام الرازي** هذا الدليل العقلي والشرعي بقوله: «تقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة؛ لأن خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية، والعقلية أشرف من الحسية بكثير

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 951
2) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص207 ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه" الزهد"
3) رواه البخاري في الأدب المفرد ج 1 ص 28 رقم 38 صحيح الأدب المفرد ج1 ص 17
4) رواه النسائيُّ وابنُ حِبَّان في «صحيحه»
[5]) الفوائد

أما قوله تعالى :(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)، فمعناه أن العمل الصالح هو وحده الذي يُرجى ثوابه حقيقةً عند انقطاع العبد من الدنيا وإقباله على الآخرة، وهو الأمل الحقيقي لكل مؤمن حصر رجاءه في الله.

ويجلي الإمام ابن عاشور في تفسيره هذا الفرق اللطيف في "الأمل" بقوله :(ومعنى "وَخَيْرٌ أَمَلاً" أن أمل الآمل في المال والبنين إنما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله، ومقصور على مدته. وأما الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد، ويأمل شيئاً تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة)، كقوله تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [1].

قوله (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (47) انتقلت الآيات لتعرض مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، بعدما زهدت الناس في الدنيا الدنيا ، لتعظم شأن الآخرة ، حيث الجبال سيرت فلم يبقى جبل شامخا ، والأرض أضحت بارزة لا اعوجاج فيها ولا مكان فيها للاختباء ، لا شجر فيها ولا بيت ولا ظراب[2] ولا آكام [3]، يقول أبو حيان أي (**منكشفة** ظاهرة لذهاب الجبال والظراب والشجر والعمارة ، أو ترى أهل الأرض بارزين من بطنها) [4] ، فهي أرض **مستوية لا انحدار فيها ولا مرتفعات** ، ليس فيها مستظل ولا متفيأ [5]، يحشر عليها الناس ، ويجمعون من أولهم لآخرهم ،من آدم حتى قيام الساعة.

قوله (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (48) يدل على علم الله بدقائق الأمور ، ولابد وأن يفقه الإنسان ذلك ، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيء ، قال سبحانه **(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ)** (النساء/108) .




فالإنسان سوف يعرض على ربه **عريانا** لا يستره شيء كما خلقه ربه أول مرة ، فعن عثمان بن عبد الرحمن القرظي يقول قرأت عائشة رضي الله عنها قول الله عز وجل (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) فقالت : يا رسول الله وا سوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ! فقال رسول الله ﷺ **لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض)**[6] .

---

[1]) التحرير والتنوير ج15 ص 78
2) جمع: ظِرابٌ. [ظ ر ب]. 1 : .ما نَشَأَ مِنَ الحِجارَةِ وَحُدِّدَ طَرَفُهُ .
3) تلّ صغير، أو موضع يكون أكثر ارتفاعًا ممّا حوله
[4]) البحر المحيط ج7 ص 468
[5]) شهاب الدين الهائم المصري : التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 276
[6]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 609 رقم 8689 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج29 ص 11

قوله (بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا) (48) رد على قول صاحب الجنتين (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)، أي استبعد قيامها وهو لا يزال في الدنيا ، ولم يعلم أن من مات قامت قيامته ، ونظير ذلك قوله سبحانه (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) (المؤمنون/115) ، وقوله (**إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**) (النبأ/27) .

قوله (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ)(49) قال ابن القيم (هذا وصف لحالهم في الآخرة عند **معانية العذاب أو عند الموت** فهذا الإشفاق مقرون بالاستيحاش لأنه قد علم أنه صائر إليه **كمن قدم إلى العقوبة** ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها لعلمه بأنه صائر إليها)[1] .

وهذا الإشفاق والخوف الذي يصيب المجرمين في الآخرة هو المصداق العملي لما جاء في الحديث القدسي عن عقوبة الأمن من مكر الله في الدنيا.فعن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا قال: "**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**"[2].

قوله (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي..... يَا عِبَادِي **إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا** فَمَنْ وَجَدَ **خَيْرًا** فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ **فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**)[3] .

قال الملا القاري (وتحقيق المرام في هذا المقام أن أفعال العباد وإن كانت **غير موجبة** للثواب والعقاب **بذواتها** إلا أنه تعالى **أجرى عادته بربطهما ربط المسببات بالأسباب** وأنشد بعض أرباب الألباب أخاف عقابه وأرجو عفوه وأعلم حقا أنه حكم عدل فإن يك عفوا فهو منه تفضل ، وإن يك تعذيبا فإني له أهل)[4].

قوله (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) فلا مهرب لهم اليوم من أعمالهم ،وقد شخصت أمامهم ، فهم يرونها ولا يقدرون على أن ينكروا منها شيئا ، قال تعالى (**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) (النور/25) .

وليس ذلك فحسب فالأمر لا يقتصر على الشهادة بل إن **تمثيل مسرح الجريمة حاصل** كذلك يوم القيامة ، فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتَبِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ثُمَّ

[1]) طريق الهجرتين ج1 ص 426
[2]) رواه ابن حبان ج2 ص 406 رقم 640 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 173
[3]) رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674
[4]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 36

خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ **يَحْمِلُ بَعِيرًا** لَهُ رُغَاءٌ أَوْ **بَقَرَةً** لَهَا خُوَارٌ أَوْ **شَاةً** تَيْعَرُ **ثُمَّ** رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي)[1] .

فكل **من ارتكب جريمة في الدنيا فإنه يعيد تمثيلها يوم القيامة ولكن بشيء من العذاب والمهانة** ، فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا قَالَ فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا قُلْنَا لَا قَالَ لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ – قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى– إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ ، قُلْتُ مَا هَذَا ؟

قَالَا انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ ، قُلْتُ مَنْ هَذَا ؟

قَالَا انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا ؟

قَالَا انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ ، .. وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ ، فَقُلْتُ مَا هَذَا ؟

قَالَا انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا.... قُلْتُ طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ قَالَا نَعَمْ

أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ **فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ** فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ **وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ** يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ **فَهُمْ الزُّنَاةُ** ، وَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ **آكِلُوا الرِّبَا**)[2] .

والآية تحمل على المعنى المقابل كذلك حيث يجد أهل الإسلام الأنبياء وأتباعهم ما عملوا في الدنيا حاضرا لهم يوم القيامة ، ففي الحديث المتقدم (قَالَا انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا **شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ** وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنْ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ قُلْتُ طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ) [3]

[1]) رواه البخاري ج21 ص 324 رقم 6464
[2]) رواه البخاري ج5 ص 183 رقم 1297
[3]) رواه البخاري ج5 ص 183 رقم 1297

وقد فسرا له القصة فقالا (**وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام** وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ **مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ** وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ **فَدَارُ الشُّهَدَاءِ** وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ فَارْفَعْ رَأْسَكَ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ **السَّحَابِ** قَالَا ذَاكَ مَنْزِلُكَ قُلْتُ **دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي** قَالَا إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ) [1]

قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)(49) قال تعالى (**وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين**) [الزخرف : 76] ، وفي ذلك احتراز من أن يشفق البعض على حال المعذبين يوم القيامة ، فيخبر المولى بأن ذلك حق مستحق وليس فيه ظلم ولا يحق معه إشفاق .

قوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) مايعني أن إبليس كان ضمن الطائعين لله لكنه خرج عن هذا الوصف بتلك المعصية التي تدل على تكبره ، فهي وإن كانت معصية واحدة إلا أنها تضمنت كل معاني الخروج عن الطاعة ، يقول النبي ﷺ (**يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ**)[2] ،قال الماوردي (في "الفسق" وجهان : أحدهما : أن الفسق الاتساع ، ومعناه اتسع في محارم الله تعالى ، الثاني : أن الفسق الخروج أي خرج من طاعة ربه)[3] .

والسجود لآدم كما ذكرنا هو الإذعان لأمره باعتباره خليفة هذا الكون وسيدا عليه ، وليس بمعنى العبادة ، ذلك أن طاعة الخليفة من طاعة الله ما لم يأمر بمعصية ، وهكذا أراد الله تعالى أن **يعد المكلفين من الجن للخطاب التكليفي بقيادة أنبياء من البشر** .

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ قَالَ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالَ فَقَالُوا مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ قَالَ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَبْتَغُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ قَالَ فَانْصَرَفَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدًا إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ قَالَ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ وَقَالُوا هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ قَالَ فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا " **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** " الْآيَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ "**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ** " وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ)[4].

---

[1]) رواه البخاري ج5 ص 183 رقم 1297
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 211 رقم 4164 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج 2 ص 405 رقم 3365
[3]) النكت والعيون ج2 ص 481
[4]) رواه أحمد في مسنده ج4 ص 129 رقم 2271 : وصححه الألباني : صحيح وضعيف سن الترمذي ج7 ص 323 رقم 3323

قوله (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (50) قال ابن جزي (هذا توبيخ ووعظ ، وذرية إبليس هم الشياطين واتخاذهم أولياء بطاعتهم في عصيان الله والكفر به) [1]، ونظير ذلك قوله تعالى (**يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**) [الأعراف: 27] ، وقوله تعالى " إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا " إلى قوله " **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**".

إنَّ موالاة الشيطان تنبتُ في مستنقع التكبّر، فمَن تعال على خَلْق الله فقد اتبع درب الشيطان النكِد ؛ فغدا لشرير الخَلْق وليًّا، ولربّ العزّة ندًّا وعدوًّا، ولبئس البدل الذي ارتضاه لنفسه، وبئس المآل الذي ساقه إليه طغيانه! وكيف لا يكون هالكًا وقد قال المصطفى ﷺ (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**)[2]

وفي هذا المعنى ينجلي فقه الإمام الرازي في تفسيره، مبيّنًا تقريع الحق سبحانه لأولئك الجاحدين الذين تطاولوا بنسبهم الرفيع وجاههم المنيع على ضعفاء المسلمين وفقرائهم، فكأنّ الآي الحكيم يخاطبهم قائلًا: إنكم بزهوكم هذا قد **اقتفيتم أثر إبليس يوم استكبر على آدم**[3]؛ فواعجبًا لكم! كيف علمتم عداوته لكم ثم اتخذتموه في الرذيلة إمامًا، واتبعتم خطاه في تلك المسالك المذمومة؟!

إن الكِبر ـــوهو غمط الحق وازْدراء الخَلْقـــ لهو أنفذ سهام الشيطان إلى القلوب، وأقصر الطُرق إلى الخذلان؛ فما أورد إبليسَ موارد الهلاك واللعنة، وما أخرجه من رَوح الله ورحمته صاغرًا طريدًا، إلا استكباره عن طاعة ربه، وإباؤه السجود لآدم. [4].

ومن جهة أخرى ففي الآية دليل على أن أولاد إبليس يتناسلون ، قال قتادة " أولاد الشيطان يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ، وهم أكثر عدداً "[5] ، ما يعني أن ابتلاء بني آدم بعدو الله إبليس قائم إلى يوم القيامة ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ** قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ)[6].

وفي قوله (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (51) تتجلى قوارع الحق التي تهدم صروح الكبرياء الإنساني؛ ففي الآية برهانٌ ساطعٌ يُبطل دعاوى الخيلاء والغرور. فكيف لخلائق طرأت على هذا الوجود ـــإنسًا وجنًّاـــ أن تتطاول بأعناقها كبرًا، وهي لم تشهد فجر التكوين، ولا عاينت إبداع السموات والأرض؟! بل إن أسرار خلق أنفسهم قد حُجبت عنهم، وبقيت غيبًا لم تدركه أبصارهم.

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 954
[2]) رواه مسلم
[3]) تفسير الرازي ج10 ص 220
4) عبد الله بن جار الله آل جار الله : الأسباب التي يعتصم با العبد من الشيطان ص3
5) لقط المرجان في أحكام الجان للسيوطي : ص51 لوامع الأنوار البهية ج2 ص 222 لشمس الدين أبو العون السفاريني
[6]) رواه مسلم ج13 ص 428 رقم 5034

بيد أن الإنسان—في طغيانه—تجاوز حدود المباهاة والتفاخر، وتردّى في مهاوي الاحتقار والازدراء لنظرائه، بل بلغت به الجرأة أن نازع الألوهية مقامها الرفيع؛ مقتفيًا في ذلك أثر إبليس الذي غواه الكبر، فأراد أن يُصيّر نفسه معبودًا من دون الله، فاستزلّ الشيطان بني آدم ولا يزال يفتنهم، وقد حذرهم الله من غوايته قائلًا: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ).

فيا لعجبًا من مخلوقٍ واهنٍ، يعجز عن إدراك كينونة نفسه ونشأتها، **كيف ينصب نفسه إلهًا متصرفًا في ملكوتٍ لم يشهد بناءه**، وجودُه فيه مسبوقٌ بعدم، **وخلقه تالٍ لخلق هذا الكون العظيم!** وكيف يتوهم في نفسه القدرة على السيطرة وتدبير الشؤون، وهو العاجز عن قضاء أيسر حاجاته استقلالًا عن فيض المدد الإلهي؟ إن ادعاء الشراكة مع الله في القدرة والتدبير هو محض ضلال وافتراء، وتنزه سبحانه وتعالى في عليائه عن ندٍّ يشاركه، أو ظهيرٍ يعاضده.وفي

وفي قوله (..وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (51) يتجلّى في النفي الوارد في الآية الكريمة التأكيد على أسمى معاني التنزيه للذات الإلهية العليّة، مبرئاً إياه من شائبة الاستعانة بالغير، ومستأصلاً كل مظاهر الحاجة أو النقص في تدبير الملكوت. فقد ائتلف نفي (ما) مع **جحود** (كنت) ليصوّرا **استحالة** اتخاذ المضلين أعواناً أو نصراء، في غابر الأزمان، أو حاضر الأيام، أو قابل الدهور؛ وفي هذا برهانٌ قاطع على **كمال القدرة الإلهية المطلقة**، وانفراد الباري سبحانه بالخلق والتدبير والملك والملكوت، مستغنياً بذاته عن كل عون، ليقطع بذلك دابر الظنون، ويحسم كل وهم بوجود شريك له في سلطانه العظيم.

قوله (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) (52) تتجلى فيه مشهد من مشاهد التقريع والتوبيخ التي يواجه بها المشركون يوم القيامة؛ إقامةً للحجة عليهم، وإظهاراً لتباب سعيهم. فيُؤمرون—على سبيل الإهانة والتعجيز—أن يستنصروا بأندادهم التي طالما عبدوها من دون الله. وهنالك تتجدد الأوهام، ولا تنكشف الغمة عن بصائر غشاها الران، فيدعونهم دعاء المستغيث بغير الله ، ولكن هيهات! (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)، إذ تبرأ التابع من المتبوع، وظلّت عنهم افتراءاتهم. وعوضاً عن النجدة التي أمّلوها، يحيط بهم الخذلان من كل جانب، وينزل بهم عذاب غليظ يوبقهم ويهلكهم جميعاً، كما قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا).

فقد تجلّت حقيقة التّبايُن والانقطاع بين أهل الضلال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾؛ إذ تضافرت أقوال جهابذة التفسير كابن عباس وقتادة وغيرهما على أن "الموبق" هو المهلك الذي يقطع وصالهم[1]. وفي هذا السياق، يرى الإمام الشنقيطي أن الله جلّ جلاله جعل **الهلاك برزخًا بينهم**، لكونهم تنادَوْا في الدنيا على الإثم والعدوان، فكان كلّ فريقٍ منهم سببًا في رَدى الآخر؛ لِما سلف من تعاونهم على الكفر والمعاصي، فغدوا في الآخرة شركاء في الأصفاد والعذاب، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾، وقوله عزّ وجلّ:

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 170

﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾. ويخلص الشنقيطي إلى أن كافّة الروابط تتقطع يومئذٍ بين الكافرين وبين الأنداد التي اتخذوها من دون الله شُركاء، فيمسي ذلك الموبق مهلكًا يحجز بينهم وينفي مَظنّة النجاة. [1]

ويجلو الشيخ ابن عثيمين هذا المعنى بتمثيلٍ بديع، فيُبيّن أن "الموبق" هو مَوطن الهلاك وحائله المخيف، حائلٌ يقطع دابر التواصل فلا يملك المتبوعون إلى تابعيهم سبيلًا، ولا يجد الأتباع إلى نصرة أندادهم طريقًا. وصورة ذلك في الأذهان: كمن حِيل بينه وبين صاحبه **بخندقٍ يتدفق لظًى ونارًا**، فأنى لأحدهما أن ينجد الآخر أو يدفع عنه السوء؟! وهكذا يضرب الله بينهم ذلك الحائل المهلك يوم القيامة [2].

وهذا التفرق والانقسام ليس جديدا عليهم، بل هو طبيعتهم الحقيقية في الحياة الدنيا .فمن الداخل يعيشون في صراع ونزاع دائم، حتى لو ظهروا أمام الناس متماسكين ومتحدين. وهذا تماماً ما وصفهم الله به في القرآن الكريم عندما قال: ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ** بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه الكراهية والعداوة مستمرة بينهم بتقدير الله وعدله، كقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾.

والنتيجة أنهم سيبقون في خلاف دائم، يدمر بعضهم بعضاً، ويعيشون في ضياع وفشل في الدنيا، وينتظرهم هلاك وعذاب في الآخرة.

قوله (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) (53) أي أيقنوا أن مصيرهم إليها ،وذلك بتغليب الظن ، إذ لم يجدوا حسنة تصرفهم عنها ، فهم اليوم مفلسون ، لا تنفعهم كنوز الدنيا لو أرادوا أن يفدوا أنفسهم بها ، فقد تغير تقوُّم الأشياء ، **وأضحى العمل الصالح هو عُملة الآخرة** ، يُدفع به العذاب ويجازى صاحبه الجنان .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ **أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ** قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ **هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا** فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)[3] .

---

[1]) أضواء البيان ج3 ص 297
[2] ابن عثيمين ج6 ص 75
[3]) رواه مسلم ج12 ص 459 رقم 4678

باقي تتمة المحور الثاني

الإعراض عن التذكرة

قال تعالى (وَلَقَدْ **صَرَّفْنَا** فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ **جَدَلًا** (54) وَمَا **مَنَعَ** النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا **نُرْسِلُ** الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ **وَيُجَادِلُ** الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ **لِيُدْحِضُوا** بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56) وَمَنْ **أَظْلَمُ** مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ **أَكِنَّةً** أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ **الْغَفُورُ** ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ **مَوْعِدٌ** لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ **مَوْئِلًا** (58) وَتِلْكَ الْقُرَى **أَهْلَكْنَاهُمْ** لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (59)

ترسم هذه الآيات المباركة منهجاً بيانياً معجزاً في تشخيص **طبيعة النفس البشرية ومواقفها المعاندة** أمام أنوار الوحي والهدى .فالقرآن الكريم لم يترك مسلكاً من مسالك **الإقناع** والبيان إلا وطرقها، محفوفاً بالأمثال والعبر التي تقرب البعيد وتجلي الغامض، إقامةً للحجة وإعذاراً للخلق؛ بيد أن الطبيعة الإنسانية في غلوائها كثيراً ما تُؤثر **اللجاج والمراء** على التسليم والانقياد، وتستبدل باليقين جدلاً عقيماً، لتقف حائرةً أو مستكبرةً أمام الحق المشهود، وكأنها تستعجل مصير الغابرين أو تطلب عذاباً مستقبلاً دون وعي بعواقب الجحود.

وفي هذا السياق، يتجلى التدرج القرآني في **كشف عواقب هذا الإعراض**؛ حيث يضعنا النص الإلهي أمام مشهد يجمع بين كمال الحجة، وطبيعة مهمة الرسول القائمة على التبشير والإنذار، ومآلات الأمم التي اتخذت آيات الله هزواً.

وفي مقابل هذا العناد البشري والإعراض الذي يورث ران علي القلوب وصمم في الآذان، تبرز رحمة الله الغامرة وسُنته في **إمهال العصاة**؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة بل يفتح لهم أبواب المتاب، مذكراً بمصارع القرون الأولى التي ظلمت، ليظل الوعيد الإلهي عبرةً شاخصةً للمعتبرين، ومنطلقاً لفهم سنن الله الجارية في خلقه بين الترغيب والترهيب، والرحمة والعدل.

قوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) أي كررنا وأكثرنا من تصريف الأمثال ، بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة في هذا القرآن للناس ليهتدوا إلى الحق ويتعظوا به ، لكنهم عارضوا بالجدل والخصومة [1] ، قال تعالى (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ) ، قال ابن كثير (يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كي لا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة)[2] ، قال ابن عاشور (فإن ذلك يعم الناس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية، وهذا يعم الناس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله)[3].

[1]) أضواء البيان ج3 ص 299
[2]) تفسير ابن كثير ج5 ص 171
[3]) التحرير والتنوير ج15 ص 90

قال الزرقاني (جمع القرآن بين **الإجمال والبيان** مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس بل كلامهم إما مجمل وإما مبين ، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان ، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان ، ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة ، **فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد** ، أما أنها بينة أو مبينة – بتشديد الياء وفتحها – فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة ، فإذا أمنعت النظر فيها **لاحت منها معان جديدة كلها صحيحة** أو محتمل لأن يكون صحيحا وكلما أمنعت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد .. ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر ، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة شقاء أنفسهم وعقولهم فيه وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به ، ولا كذلك البشر في كلامهم فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل، وإذا قصدوا إلى إجمالها لم يتضح ما أرادوه وربما التحق عندئذ بالألغاز وما لا يفيد ، والأمر في هذه الخاصة ظاهر غني بظهوره عن التمثيل ، وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ففيها من ذلك الشيء الكثير (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [1].

قوله (..وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (54) أي يجادل في الحق بغير علم ولا هدى ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ** ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ "بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ"[2] ، والمعنى أن الجدل عقوبة الضلال أو ما كان ضلالهم ووقوعهم في الكفر إلا بسبب الجدال، والجدال هو الخصومة بالباطل مع نبيهم وطلب المعجزة منه عنادًا أو جحودًا.

بهذه الآية استشهد النبي ﷺ على مجادلة الإنسان بالحجج التي تعرقله عن النهوض لطاعة الله ، فعن حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ **أَلَا تُصَلُّونَ** فَقَالَ عَلِيٌّ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[3] ، قال ابن بطال (ضربه فخذه) يدل أنه ظن أنه **أحرجهم** وندم على إنباههم ، وكذلك **لا يُحرج الناس إذا حُضوا على النوافل ، ولا يُضيق عليهم** ، وإنما يذكروا فى ذلك ويشار عليهم)[4] ، قال النووي (المختار في معناه أنه تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا ولهذا ضرب فخذه ، وقيل قاله تسليما لعذرهما ولا عتب عليهما)[5].

قوله (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا) (55) هذه الآية تبين سبب تلكؤ أو إعراض الكفار عن الإيمان ، بأن ذلك راجع إلى مجادلتهم بالباطل وتحديهم النبي ﷺ أن ينزل الله عذابه عليهم ، وإرهاقه بمجادلتهم له دون وجه حق ، كما بينت الآيات من قبل أن سبب

[1]) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ج2 ص 323
[2]) رواه ابن ماجة في سننه ج1 ص 55 رقم 47 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 14 رقم 45
[3]) رواه البخاري ج22 ص 328 رقم 6801
[4]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 ص 116
[5]) شرح النووي على مسلم ج6 ص 65

إعراضهم هو التكبر أن يكون محمدا رسولا الله من بينهم كما قال تعالى **(وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً)** [الإسراء : 94] .

إنَّ ما حجب القلوب عن نور الهداية، وصرف الألسن عن الاستغفار حين لاح الحق، ليس قصوراً في البرهان ولا خفاءً في السبيل، وإنما هو لُجاجٌ أعمى، وتكبُّرٌ يأبى إلا انتظار المصير الذي حاق بالسابِقين، أو مكابرةً تستميت في طلب العذاب عياناً قبل أوانه.

قوله (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ..)(56) وليس للرسل من الأمر شيء؛ فما هم بمالكي الحزي ولا منزلي العقاب، وإنما بُعثوا بُشراً ونُذُراً، يُقيمون الحجة ويبلغون الرسالة، أما العواقب الكبرى فمرجعها إلى الواحد القهار، حيث يحلّ الهلاك بالمعاندين وفق سنته التي لا تتبدل، حين يبلغ التكذيب مداه، وتستنفد الآياتُ قدرَها في إيقاظ الضمائر الميتة.

يقول سيد قطب (فأخذ المكذبين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب . . كله من أمر الله . أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون)[1].

قوله (..وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا)(56) يتجلى في هذه الآية الكريمة مشهدٌ صاخب من مشاهد الصراع الأزلي بين النور والظلام؛ حيث يندفع الذين كفروا في عماية الباطل، ممتشقين زيف الجدال، ومتوسلين بالخصومة العقيم؛ يرومون بباطلهم المتهالك أن يطفئوا منار الحق الأبلج، ويزلزلوا أركانه الراسية.

ويبرز الشنقيطي هذا المعنى بأن الله لم يبعث رسلَهُ ونذرَهُ ليكونوا مادةً للمراء، أو غرضًا لخصوماتٍ تائهة، وإنما جُعلوا ينابيعَ للرحمة والتبشير، ومناراتٍ للتحذير والنذير. غير أن النفوس التي أُشربتْ العنادَ، ورانَ عليها الجحود، لم تجد في مواجهة هذا النور إلا أن تشهر أسلحة اللدد والتعنت؛ فرموا الرسولَ تارةً بالسحر والشعر، ووصموا التنزيلَ تارةً أخرى بأساطير الأولين[2].

ويؤكد الطبري بأنها مجادلةٌ بائسة، لم تقم على طلب هدايةٍ أو التماسِ حقيقة، بل كانت تخرصًا مدفوعًا بالهزء والخصام؛ ظنًّا منهم أن زَبَدَ باطلهم يمكن أن يحجبَ ضياءَ الحق، أو أن تعنتَ أسئلتهم في الروح وأصحاب الكهف قادرٌ على إدحاض الحجة البالغة. فما كان جدالهم إلا حلقةً من حلقات العناد المتوارث، التي تبتغي عبثًا إسقاط المطلق بالزائل، وطمسَ الحقائق الساطعة بركام الأوهام. [3]

في قوله تعالى :﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.وفي هذا المقامِ الإلهيِّ الرَّهيب، يَتجلَّى البيانُ القُرآنيُّ إنَّ أظلمَ الخَلْقِ جُرْأةً، وأشدَّهم عُتُوّاً ونُفوراً، هو ذلك الذي أُقيمَتْ عليه حُجَّةُ الله، وبانَتْ له آياتُ رَبِّه الساطعة، فما كان منه إلا أنْ ولَّى مُستكبراً، وأعرضَ بكُلِّيَّتِه عن مَواطِنِ الهُدَى.

---

[1]) في ظلال القرآن ج5 ص 69
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 306 تفسير أبي السعود ج4 ص 270 ،وابن عجيبة البحر المديد ، البيضاوي498/3
[3]) تفسير الطبري ج18 ص 50

إذ تَستفتِحُ الآيةُ الكريمةُ بصيغةِ التفضيلِ" **أَظْلَمُ** "لِتُقرِّرَ أنَّ هذا الصَّنيعَ هو غايةُ الجَورِ والنِّهايةُ في قُبحِ المسلَك؛ إذْ كيف يَعصي المخلوقُ خَالِقَه بَعدَ جَلاءِ الحَقّ؟ وتَرسمُ الآيةُ صورةً بلاغيَّةً بليغةً في قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وهي كِنايةٌ عَن الالتفاتِ التَّامِ ومُخاصمَةِ الإسلامِ وأهله، فكأنَّ المعرِضَ يَدفعُ الحَقَّ بظَهْرِه جُحوداً ونُفوراً.

ثم يَنغمِسُ في دَياجِيرِ الغَفلةِ عَمَّا اقتَرفَتْه يَداه مِن قَبائحِ الآثامِ ووبيلِ الأوزار، كما يُفصِّلُ ذلك **الإمام ابن كثير** في تفسيره قائلاً : "يقول تعالى: وأيُّ عبادِ اللهِ أظلمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ فأعرضَ عنها، أي: تناساها وأعرضَ عنها، ولم يُصغِ لها، ولا ألقى إليها بالاً. وقوله: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: مِن الأعمالِ السيئةِ والأفعالِ القبيحة."

إنَّ عَقيدةَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعة تَقومُ على أنَّ اللهَ تعالى سُبحانَه عَدْلٌ لا يَظلمُ أحداً، وأنَّ خَتْمَه على القُلوبِ وجَعْلَ الأكِنَّةِ عليها إنَّما هو جَزاءٌ وِفاقاً لإصرارِ العَبْدِ على الكُفْرِ واختيارِه للضَّلالةِ بَعْدَ مُعايَنةِ الهُدَى. فالعُقوبةُ الإلهيَّةُ هنا هي أَنْ يُخَلِّيَ اللهُ بَينَ العَبْدِ وبَينَ ما اختارَه لنَفْسِه، فَيُغَلِّفُ قَلْبُه عُقوبةً له على كِبْرِه، وتَصيرُ تِلْكَ الأغطيةُ مانِعاً مَعنويّاً له عَن قَبولِ الحَقِّ لا عَن سَماعِ الصَّوْت.

وفي هذا المعنى يُبَيِّنُ **الإمام ابن كثير** حَقيقةَ هذا الحِجابِ بلفْظِه المأثور: بأن قوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قُلوبِ هؤلاء، ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لِئلَّا يَفْهَمُوا هذا القُرآنَ والبيانَ، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمٌ مَعنويٌّ عَن الرَّشاد."[1]

وحَتَّى لا يُتَوهَّمَ أنَّ العَبْدَ مَجبورٌ بلا مَشيئةٍ لَه، يُوضِحُ **الإمامُ الفخرُ الرَّازيُّ** هذا التَّشابُهَ البلاغيَّ بَيْنَ القَدَرِ واخْتِيارِ العَبْدِ بقوله "ليسَ المرادُ كَوْنَهم ممنوعينَ مِن الإيمانِ [جَبْراً ابْتداءً]، بَلِ المرادُ تَشبيهُ حالِهم في إصرارِهم على الكُفْرِ بِمَنزلةِ المجبورِ على الكُفْر[2]."

ويُجلِّي **الشيخُ محمَّد متولي الشَّعراويّ** هذا المعنى الإيمانيَّ العَميقَ تبياناً لِمشيئةِ اللهِ الحَكيمةِ في خَلْقِه بوجيزِ عِبارتِه "لأنَّ اللهَ تعالى لا يُريدُ منهم أنْ يَفْهَمُوا القُرآنَ رَغْماً عَنهم، بَلْ بِرضاهم وعَن طِيبِ خَاطِرٍ منهم بالإقناعِ وبالحُجَّةِ، فاللهُ لا يُريدُ مِنَّا قوالبَ تَخْضَع، بَلْ يُريدُ قُلوباً تَخْشَع، وإلَّا لو أرادَنا قوالبَ لَمَا استطاعَ أحدٌ مِنَّا أنْ يَشُذَّ عَن أَمْرِه، أو يَمنعَ نَفْسَه مِن اللهِ تعالى، فالجميعُ خاضعٌ لأَمْرِه وتَحْتَ مَشيئتِه"[3].

إنَّ سُنَّةَ اللهِ جاريةٌ في خَلْقِه؛ فمَنْ تَعامَى عَن النُّورِ أَوْرَثَه اللهُ ظُلْمةً بِمَا كَسَبَتْ يَداه، وتِلْكَ الصُّورةُ هي عَيْنُها التي ذَكَرَها اللهُ في مَواضِعَ أُخرى كَقَوْلِه جَلَّ ثَنَاؤُه في سُورةِ الإسراء:﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾.

فالْبَلاغُ قائِمٌ، والحُجَّةُ داحِضةٌ لِكُلِّ عُذْر، غَيْرَ أَنَّ مَنْ رَضِيَ لِنَفْسِه بالْهَوانِ وطَرَدَ قَلْبَه عَن رِحابِ الهدى، طَبَعَ اللهُ على قَلْبِه فَلَنْ يَجِدَ له وَلِيّاً مُرْشِداً.

وقد علل الألوسي سبب حجبهم لاسيما وقت القراءة بأنه إنما كان حِجابُهم أسمك، وانغلاقُ قلوبهم أشدّ حين يُتلى القرآن؛ لأنهم إذا عُمُوا عن النور في جَلوته، وكَانوا أبْعدَ ما يكونون عن الهدى في مَظانّه، فهم في غسقِ الأوقات الأخرى أشدّ عَمًى وأمعنُ ضلالاً.

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 173
[2]) تفسير الرازي ج2 ص 213
[3]) تفسيرالشعراوي ج1 ص 5216

لقد رانَ على أفئدتهم كِثافُ الغفلة، وضربت عليها الطبيعةُ البدنية حجابًا مستورًا؛ فغدت في "أكنّةٍ" غليظةٍ تَمنعُها أن تنفُذَ إلى أنوار الفهم، أو تذوقَ حلاوةَ الفقه. وكيف يفقهون البيان، والقرآنُ كلامُ الباري وصفةٌ من صفات جلاله؟ إنهم لما جهِلوا مَقامَ الرسول المرْسل، عمُوا عن مَعرفةِ المرْسِل جلّ جلاله، ومَن جَهِل الرّبّ ذهل عن صفاته، ومَن ذهل عن الصفات حُرِم فَهْمَ آياتِ كلامه.

ولم يقتصرْ خِذلانُهم على مَواطنِ الفهم، بل عَدَا إلى حواسّ السمع؛ إذ "جعلنا على قلوبهم" من أوساخِ التعلّقات الدنيوية، ورواسخِ الشهوات الفانية، سدًّا منيعًا يَصمُّ آذانَ أرواحِهم عن سماع آيات الذكر الحكيم. وما هذا الحرمانُ المطبقُ، والصدودُ التام، إلا ثمرةٌ خبيثةٌ نبتت في مَغارسِ جَهلِهم بملَكوتِ الله، وعَماهم عن دقيقِ صُنعِه وأفعالِه سبحانه)[1].

قوله (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) (58) افتتح الله جل وعلا هذه الآية بوصف نفسه بالمغفرة والرحمة الواسعة، وبيّن أن من كمال حلمه وعدله أنه لا يعاجل العصاة والجاهلين بالعقوبة. وفي هذا المعنى يُقاسِمُ الآيةَ الحديثُ الصحيحُ عن النبي ﷺ :**(مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)**. [2]

- **قال الإمام النووي** (معناه أن الله تعالى واسع الحلم، حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند)[3]
- **قال القاضي عياض** (و"الصبور" من أسماء الله تعالى، وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو قريب من معنى "الحليم" في أسمائه سبحانه، والحليم هو الصفوح مع القدرة على الانتقام).
- **يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية** هذا المعنى ببيان أن كمال صبر الرب سبحانه مبني على كمال قدرته وغناه، وصبره ليس عجزاً، بل هو إمهال لحكمة؛ فهو سبحانه يرى كفرهم ويسماع أذاهم ولا يستفزه ذلك المعصية لعظمته وكبريائه.
- **ويضيف الإمام ابن القيم** في كتابه"طريق الهجرتين" مُفرّقاً بين حلم الرب وصبره: (إن الله سبحانه يُسمى بالصبور والحليم، والصبر في حقه هو تأخير العقوبة عن المستحق لها مع القدرة عليه، بخلاف العبد الذي يصبر تارة عجزاً، وتارة مخافةً. أما الرب تعالى فيصبر حِلماً ورأفة **وإعطاءً للنفس مهلة لعلها تتوب**).

أثار الإمام ابن الجوزي إشكالاً عقائدياً وأجاب عنه بقوله: «قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار هو برحمة الله، ومعلوم أن الكفار لا نصيب لهم في رحمته (الخاصة الأخروية)؛ وفيه جوابان:-

أحدهما : أن الرحمة هاهنا بمعنى النعمة ، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر ، فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى ، فليس للكافر فيها نصيب

والثاني : أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة ، فأما في الدنيا ، فإنهم ينالون منها العافية والرزق)[4] .

---

[1]) تفسير الألوسي ج11 ص 32
[2]) رواه البخاري ج22 ص 371 رقم 6830
[3]) شرح النووي علي مسلم ج17 ص 146
[4]) زاد المسير ج4 ص 234

قوله تعالى: (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) "الموئل" اسم مكان من الفعل (وأَلَ، يَئِلُ) إذا لجأ واعتصم؛

قال الحبر ابن عباس رضي الله عنهما :"موئلاً" أي: "ملجأً".[1]

قال الشنقيطي أي: (ملجأ يلجؤون إليه فيعتصمون به من ذلك العذاب المتوعد به).

والمقصود أن الله تعالى وإن أمهلهم حِلماً ورحمة في الدنيا، إلا أن هذا الإمهال له غاية ونهاية، فإذا جاء الموعد المضروب لعذابهم فلن يجدوا من دون الله مهرباً ولا ملجأً.

قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) **يبين سنن الله في إهلاك الأمم وعلاقتها بالظلم**:إذ يضرب الله تعالى هنا الأمثال بالقرى السابقة (كعاد وثمود وأصحاب الأيكة) ليعتبر بها كفار مكة وغيرهم؛ فيبين سبحانه أن رحمته وحلمه بالخلق مشروط بحدود، فإذا تمادوا في الظلم والاستكبار حقت عليهم كلمة العذاب في الوقت المكتوب الذي لا يتقدم ولا يتأخر.

- **قال إسماعيل حقي في روح البيان** :(المعنى: إنما أهلكنا أهل تلك القرى بعد أن كان من سنتنا أن تعم رحمتنا المؤمن والكافر في الدنيا؛ لأنهم ضموا مع كفرهم الظلم، ومن سنتنا أن لا نُهمل الظالم وإن أمهلناه. وقد قيل في السير السياسية" :**الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم**)[2].
- **قال العلامة الشنقيطي** (في هذه الآية بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة؛ أن هلاك الدنيا ودمار الدول إنما يكون بفساد الدين والظلم، وأن أمن القرى، وطمأنينة العالم، واستقرار النظم لا يكون إلا بالحفاظ على الدين وإقامة العدل)[3]
- **وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية** القاعدة المشهورة التي تتوافق مع الآية تماماً حيث قال :(**إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة**)[4]؛ لأن العدل هو نظام كل شيء، فإذا أضيف الكفر إلى الظلم عُجلت عقوبة الدنيا والآخرة.
- **ويرى الإمام ابن القيم** أن الله تعالى جعل للذنوب والظلم آثار مُدَمِّرة كما جعل للطاعات آثاراً مُصْلِحة، فالظلم **يرفع الأمان**[5]، **ويجلب الخوف، ويزيل النعم**[6]، **ويهلك الحرث والنسل**؛ ولذلك جعل الله لمهلك القرى الظالمة موعداً حتمياً لا يتخلف، ليكون عبرة للمعتبرين وسنة جارية في الخَلْق.

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 213
[2]) تفسير روح البيان ج5 ص 202
[3]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج8 ص 216
[4]) مجموع الفتاوى ج28 ص 63
[5]) بدائع الفوائد ج3 ص 577
[6]) مفتاح السعادة ج 1 ص 168

المحور الثالث

قصة موسى والخضر

قال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

لقد ذكر النبي هذه القصة في حديث طويل لابد وأن نذكره في هذا المقام ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَقَالَ أَنَا فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ بَلَى لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ أَيْ رَبِّ وَمَنْ لِي بِهِ ، –أو قال–أَيْ رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ قَالَ تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ حَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ وَرُبَّمَا قَالَ فَهُوَ ثَمَّهْ وَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَرَقَدَ مُوسَى وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ "فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا" فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ فَقَالَ هَكَذَا مِثْلُ الطَّاقِ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ الْغَدِ "قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا"وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ قَالَ لَهُ فَتَاهُ "أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا" فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا قَالَ لَهُ مُوسَى "ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا" رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عَلَيْهِ فَقَالَ وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ قَالَ أَنَا مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي " مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا" قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ قَالَ هَلْ أَتَّبِع "قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ

بِهِ خُبْرًا إِلَى قَوْلِهِ إِمْرًا " فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ إِذْ أَخَذَ الْفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا قَالَ فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقَدُّومِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى مَا صَنَعْتَ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا "لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا" فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ الْبَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ مُوسَى "أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ" مَائِلًا أَوْمَأَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ سُفْيَانُ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئًا إِلَى فَوْقُ فَلَمْ أَسْمَعْ سُفْيَانَ يَذْكُرُ مَائِلًا إِلَّا مَرَّةً قَالَ قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ "لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا قَالَ سُفْيَانُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوْ كَانَ صَبَرَ لَقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ)[1].

وفي رواية يَقُولُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (بَيْنَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فِي قَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَأَيَّامُ اللَّهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ إِذْ قَالَ مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي قَالَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنِّي أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ مِنْهُ أَوْ عِنْدَ مَنْ هُوَ إِنَّ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ يَا رَبِّ فَدُلَّنِي عَلَيْهِ قَالَ فَقِيلَ لَهُ تَزَوَّدْ حُوتًا مَالِحًا فَإِنَّهُ حَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ قَالَ فَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَعُمِّيَ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ وَتَرَكَ فَتَاهُ فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمَاءِ فَجَعَلَ لَا يَلْتَئِمُ عَلَيْهِ صَارَ مِثْلَ الْكُوَّةِ قَالَ فَقَالَ فَتَاهُ أَلَا أَلْحَقُ نَبِيَّ اللَّهِ فَأُخْبِرَهُ قَالَ فَنُسِّيَ فَلَمَّا تَجَاوَزَا (قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) قَالَ وَلَمْ يُصِبْهُمْ نَصَبٌ حَتَّى تَجَاوَزَا قَالَ فَتَذَكَّرَ (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) فَأَرَاهُ مَكَانَ الْحُوتِ قَالَ هَا هُنَا وُصِفَ لِي قَالَ فَذَهَبَ يَلْتَمِسُ فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ مُسَجًّى ثَوْبًا مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَفَا أَوْ قَالَ عَلَى حَلَاوَةِ الْقَفَا قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ قَالَ وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ مَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا مُوسَى قَالَ وَمَنْ مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ مَجِيءٌ مَا جَاءَ بِكَ قَالَ جِئْتُ لِ (تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) قَالَ انْتَحَى عَلَيْهَا قَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا) غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ قَالَ فَانْطَلَقَ إِلَى أَحَدِهِمْ بَادِيَ الرَّأْيِ فَقَتَلَهُ فَذُعِرَ عِنْدَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام ذَعْرَةً مُنْكَرَةً (قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ

[1]) رواه البخاري ج11 ص 202 رقم 3149

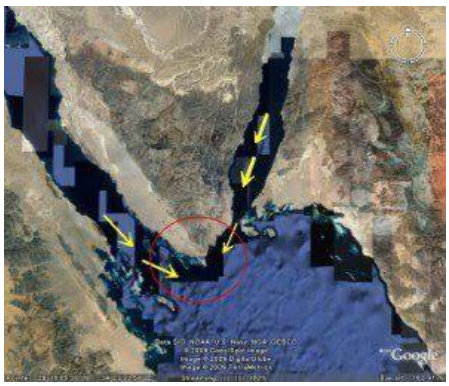
ذَمَامَةٌ (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ قَالَ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي كَذَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) لِئَامًا فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَـ (اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) وَأَخَذَ بِثَوْبِهِ قَالَ (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَإِذَا جَاءَ الَّذِي يُسَخِّرُهَا وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً فَتَجَاوَزَهَا فَأَصْلَحُوهَا بِخَشَبَةٍ (وَأَمَّا الْغُلَامُ) فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [1]

قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) (60) ففي صحيح مسلم أن الله أَوْحَى إِلَيْ موسى **إِنَّ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ** قَالَ "يَا رَبِّ فَدُلَّنِي عَلَيْهِ" قَالَ فَقِيلَ لَهُ تَزَوَّدْ حُوتًا مَالِحًا فَإِنَّهُ حَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ) [2] ، تلك هي بداية قصة موسى والخضر عليهما السلام ، ومنها تتجلى أسمى المعاني التربوية والمنطلقات العملية التي تخطّ لطالب المعرفة منهجاً متكاملاً؛ إذ لم تكن هذه الرحلة التاريخية مجرد تنقّل في الجغرافيا، بل كانت **جهاداً نفسياً وبذلاً مستمراً يبرهن على أن العلم عبادة تفتقر إلى إخلاص النية ومفارقة الراحة طوال العمر.**

إذ تنطلق الرحلة بدرس بليغ في **التواضع للمعرفة وعلو الهمة**؛ فبالرغم من مكانة موسى عليه السلام العالية ككليم الله ومن أولي العزم من الرسل، إلا أنه لم يتردد فوراً في المبادرة بالارتحال صَوْبَ التعلّم حين علم بوجود من هو أعلم منه في بعض شؤون الغيب والمقادير. ولذلك قيل (**اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**)

وفي هذا الارتحال إعلاءٌ لشرف السعي لطلب العلم ، مثل قول القائل (**اطلبوا العلم ولو في الصين**) ؛ فالرحلة لمشافهة العلماء وتحصيل الحكمة هي عبادة جليلة يُتقرب بها إلى الله، وطريقٌ ممهد وبوابة موصلة إلى الجنة ، وقد أكد النبي ﷺ على هذا المعنى بقوله "**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**"

فطريق العلم تذوب في سبيله مشقات السفر الطويل، ويصبح بذل الجهد من أجل مسألة هدى واحدة ترشد المسلم أو تردّه عن ردى، هو السعي الرابح الذي لا يعرف ضياع الوقت. فصرف الوقت في غير ذكر الله وطلب العلم يضيعه، ولذلك حذرنا النبي ﷺ بقوله (**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**)[3].



[1]) رواه مسلم ج12 ص 90 رقم 4386
[2]) رواه مسلم ج12 ص 90 رق 4386
[3]) رواه ابن ماجة ج12 ص 136 رقم 4102

ولابد لطالب العلم أن يلتمس الأمارات في طريقه يستدل بها على السير الصحيح ، حتى لا يبذل جهدا في الطريق الخطأ ، إن هذا السعي الدؤوب يُمثّل أخذاً حقيقياً بالأسباب عبر اتخاذ الوسائل **والأمارات المتاحة** و**الصبر عليها مهما بدت بسيطة**، ليكون العلم والتعلم هما القيمة الحقيقية العاصمة للمرء من الغفلة، والرافعة لمقت الدنيا ببركة بقائهما وأثرهما.

ولهذا نجد أن الله دل موسى على مكان العبد الصالح بأمارة "فقد الحوت" ، ففي حديث أبي ابن كعب المشار إليه **قال رسول الله ﷺ**: «...**فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ**...)[1] يعني أن الله تعالى قد جعل لموسى علامة يعرف بها مكان العبد الصالح، وهي فقدان الحوت (السمكة).والحوت الذي كان معهما في المكتل كان ميتاً ومشوياً (ليأكلاه في السفر)، ولكنه عند مجمع البحرين دبت فيه الحياة فجأة، وقفز في البحر واتخذ طريقه في الماء بشكل عجيب (سرباً). وكان هذا الإحياء معجزة وعلامة على وجود الخضر في ذلك المكان.

ولا تكتمل العزيمة لطلب العلم إلا **بانتقاء الصحبة الصالحة** التي تعين على الطاعة، لاسيما الاستعانة بالشباب في رحلة العلم والدعوة؛ كون مرحلة الشباب هي الوقود الحيوي للتحصيل والعمل، تماماً كما تجسد في اصطحاب موسى لفتاه يوشع بن نون. فكان هو الفتى ساعد موسى في طلب العلم ، في سن أصحاب الكهف كانوا فتية كذلك ، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا **السن هو المحرك الأساسي لنشر الدعوة الإسلامية** .

ومناداة موسى فتاه بهذا اللفظ يتفق مع الهدي النبي الذي أرشد إليه الرسول ﷺ قال (لا يقل أحدكم عبدي أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله **وليقل غلامي جاريتي وفتاى وفتاتي**)[2] ، إذ ينبغي إكرام الصاحب والخادم وتطييب خاطره مادياً ومعنوياً، تماشياً مع الهدي النبوي الذي يرى في المعاونين إخوةً تجب مواساتهم والإحسان إليهم.

قال القرطبي (في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان في دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام)[3].

ولكي تؤتي هذه الرحلة ثمارها، رسمت القصة معالم المنهج العملي الذي يقوم أولاً على **العزيمة الصادقة والنفس الطويل**، والاستعداد لتكريس العمر والوقت في سبيل المعرفة، وهو ما يلوح في عزم موسى النافذ حين قال (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) فلم يبال موسى بعدد السنوات التي يقطعها في طريقه لملاقاة من هو أعلم منه ليتعلم منه ، ولذلك بوب البخاري بابا بعنوان (**بَاب الْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ**) وقال (وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ)[4]

كما أن اختيار العبد الصالح لمجمع البحرين ليكون مكانا له ليدل على أنه يعيش بعلمه بين الناس وأنه لم يكن معتكفاً في صومعة جبلية معزولة، بل **اختار مكاناً يضج بالحركة الملاحية والأنشطة البشرية**، مما يوضح أن "**الولاية**"

---

[1]) صحيح البخاري (حديث رقم 4725)
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 82 رقم 209 وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ج 1ص93 رقم 153/209
[3]) تفسير القرطبي ج11 ص 11
[4]) رواه البخاري ج1 ص 138

و"**العلم الرباني**" –في سياق السورة– **يرتبطان بنفع الخلق وإصلاح معايشهم** ، مثلما خرق السفينة ليمنع القراصنة من الاستيلاء عليها ، وأصلح جدار اليتيمين الذي تحته كنز لهما ، فقد أعطى دروسا في فقه الموازنة بين المفاسد والمنافع ، وارتكاب الضرر الأدنى لدفع الضرر الأكبر .

ومن هذا الأدب الرفيع ينبثق الحرص على **اغتنام لقاء العلماء** ومجالسة أهل الفضل وإن بَعُدت مسافاتهم وناءت الديار، وهو دأب السلف الصالح الذي أثمر رسوخاً في العلم وامتداداً في الأثر. قال الشعبي (لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في سبيل كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً).

إن العلم في جوهره ليس ترفاً ذهنياً تزجى به الأوقات، بل هو جهاد متواصل، وبذل دائم، وعزيمة لا تلين، يسيّجها الأدب وتحفّها الصحبة الصالحة؛ ومن أراد أن ترسخ في المعرفة قدمه، وتتصل بأسرار الحكمة أسبابه، فعليه بمفارقة الدعة، وملازمة العلماء، مستصحباً نية مخلصة تلازمه طوال العمر. وقد مضى موسى –بالفعل– حقبا في هذا الأمر .

قوله (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا) (61) مجمع البحرين هو المكان الذي أخبره الوحي بأنه سوف يجد عنده العبد الصالح "الخضر" ليسأله عن علمه ويستزيد منه ، فلما بلغ ذلك المكان قفزت السمكة من الإناء في البحر فكان ذلك علامة علي أن هذا المكان هو الذي فيه الخضر ، **وطالب العلم لا بد وأن يكون يقظا منتبها لكل أمارة وقرينة على وصوله لمطلبه** ، فلما قفزت السمكة في البحر ظهرت علامة في الماء كالسرب ، وهذه معجزة أن يتجمد الماء في المكان التي قفزت فيه السمكة ، ولكن فتاه يوشع بن نون نسي أن يخبر موسى بذلك ، فتجاوزا العلامة وسارا في البحر بعيدا عن المكان المستهدف ، وتلك نقيصة في طالب العلم وهي النسيان .

ولذلك قيل أن "آفة العلم النسيان" [1]، فالعقل البشري بطبيعته وعاء معرّض للانشغال والتدفق المستمر للمعلومات؛ فإذا لم يفتّش الإنسان في معلوماته ويستذكرها دورياً، فإنها تتلاشى وتُمحى من الذاكرة بمرور الوقت. ومن هنا قيل"وحياته المذاكرة"، فالمراجعة والدراسة المستمرة هما الحصن المانع من النسيان.

وقد وجه القرآن إلى أهمية مدارسة العلم في أكثر من موضع :-

كما في قوله (كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران 79)

وقوله (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأنعام 105)

وقوله (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (الأعراف 169)

وقوله (وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) (سبأ 44)

وقوله (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) (القلم 37)

كما وجه النبي ﷺ إلى مدارسة القرآن فقال (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[2]

---

[1]) أخرجه الدارمي في مسنده عن عبد الله بن مسعود

[2]) رواه أبو داود ج4 ص 248 رقم 1243 وصححه الألباني ورواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : من تعلم آية من كتاب بالله عز وجل استقبلته يوم القيامة تضحك في وجهه)[1]

فلما كان آفة العلم النسيان، تعين قبل طلب العلم تنشيط العقل وتقوية الذاكرة ، وذلك يحتاج إلى تدريب لمستويات كثيرة ، ويكون تلقي العلم بقدر الطاقة والوسع ، ولذلك لا يجوز تعليم الناس كل العلم بما يزيد عن طاقتهم ، وإلا كان هذا العلم وبالا عليهم ، ولذلك قَالَ عَلِيٌّ **(حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)** [2].

والنبي ﷺ كبشر ليس معصوما من النسيان – في غير مقام الدعوة والتبليغ – عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي سُورَةٍ بِاللَّيْلِ فَقَالَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا)[3]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ يَقُولُ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ بَلْ هُوَ نُسِّيَ اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنْ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا)[4]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ تَعَاهَدُوا هَذِهِ الْمَصَاحِفَ وَرُبَّمَا قَالَ الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنْ النَّعَمِ مِنْ عُقُلِهِ)[5].

وتؤكد هذه الحادثة أن السعي الجاد والحرص على طلب العلم لا يضمنان وحدهما نيله؛ فرغم أن موسى عليه السلام استنفد كافة السبل للوصول إلى الخضر، إلا أنه تجاوز المكان المحدد دون أن يشعر. وفي هذا درس بليغ للإنسان بأن العلم رزق خالص من الله، يقسّمه بين عباده بفضله وحكمته—حتى وإن كان طالب العلم نبياً مرسلاً—فلا تفتح خزائن المعرفة إلا بمشيئة الله وفي الوقت الذي يقدره.

قال ابن القيم : (حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" وكان شيخنا –يقصد الإمام بن تيمية – كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: "يا معلم إبراهيم علمني" ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رضي الله عنه حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته وقد رآه يبكي، فقال: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما)[6].

وقد قيل في مجمع البحرين عدة أقوال منها أنهما نقطة التقاء خليج العقبة مع خليج السويس عند رأس محمد

---

[1]) رواه الطبراني : المعجم الكبير ج8 ص 129 رقم 7604
2) رواه البخاري ج1 ص 217 رقم 124
[3]) رواه البخاري ج15 ص 455 رقم 4650
[4]) رواه مسلم ج4 ص 199 رقم 1314
[5]) رواه مسلم ج4 ص 200 رقم 1315
[6]) المستدرك على مجموع الفتاوى ج5 ص 150

وقيد أنهما كناية عن بحرين مختلفين من العلم بحر الشريعة وبحر الحقيقة ، فبحر الشريعة الذي أرسل الله به موسى متمثلا في أحكام التوراة ، وبحر الحقيقة وهو فقه المقاصد الذي عند الخضر ، وكلاهما يجتمعان لا يفترقان ، ودون استطراد لا دليل له في تحديد ماهية مجمع البحرين ، فإننا نتقصر عما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **وِعَاءَيْنِ** فَأَمَّا أَحَدُهُمَا **فَبَثَثْتُهُ** وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ[1]، قال ابن الأثير (أراد الكِنايَةَ عَن مَحَلِّ العِلْم وجَمْعِه فاسْتَعارَ لهُ الوِعَاءَ)[2]، وهو ما سوف نفصله في قوله (لن تصبر على ما لم تحط به خبرا).

قوله (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) (61) أي أن الحوت المملح قد عادت له الروح ، فقفز في الماء ، ففي حديث مسلم (فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمَاءِ فَجَعَلَ لَا يَلْتَئِمُ عَلَيْهِ صَارَ مِثْلَ الْكُوَّةِ[3])[4] ، والسرب، والسراب: الشيء الممتد الذي تراه من لا شيء، و(سرباً في البحر) أي: اتخذ طريقاً ويشق طريقه في الماء **كما لو جاء زورقاً ومشى بسرعة فإنه يترك وراءه سرباً في الماء** –علامة– كي يكون سلوكه في الماء محسوساً ملموساً يشاهده الإنسان)[5]



أي: (جاعلاً سراباً وراءه؛ ليعلم الناظر أن الحوت بعد أن أحياه الله ومشى في الماء ترك السراب وراءه، أي: جعل الماء منشقاً ليتأكد الرائي بأن الحوت قد عادت إليه حياته، ولم يكن مجرد سقوط في الماء ليرسب في قاعه أو يكون في وسط الماء)[6].

فهذه عجيبة من العجائب أن يحي الله الحوت ولا يلتئم الماء الذي قفز فيه ، لأن الشق في الماء يلتئم بعد برهة ، فكونه لا يلتئم ويتخذ شكل فجوة في الحائط ، فتلك علامة بارزة حتى يقف السير عندها ، ورغم ذلك فإن الفتى الذي رأى هذه المعجزة نسي أن يخبر موسى بذلك ، فتجاوزا المكان ، ولم ينتبها للعلامة .

قوله (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) (62) انشغل موسى بشكل إيجابي بتجهيز الطعام حتى يستقوى به على استكمال السفر ، فالإنسان عليه القصد في الرحلة ، ولذلك ورد في الأثر (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن **المنبت لا يقطع سفرا و لا يستبقي ظهرا**)[7]، والمعنى أن الدابة إذا حملت عليها في السير

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 203 رقم 117
[2]) النهاية في غريب الأثر ج5 ص 456
[3]) الكوة : هي الطاقة للضوء ، فتح الباري لابن حجر ج8 ص 447 ، أي نافذة للضوء ، فإذا كانت في الجدار فإنها غير نافذة للضوء ، لكن يوضع فيها المصباح انظر مشكاة المصابيح شرحه مرعاة المفاتيح ج1 ص 5 قال الجوهري الكوة نقب البيت انظر (مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج1 ص 348 للقاضي أبو الفضل عياض ،
[4]) رواه مسلم ج12 ص 90 رق 4386
[5]) شرح الأربعين النووي للشيخ عطية سالم ج8 ص 8
[6]) شرح الأربعين النووية للشيخ عطية سالم ج78 ص 3
[7]) البيهقي في شعب الإيمن ج3 ص 401 رقم 3885

وأجهتها ولم ترفق بها ، ولم تسترح فإنه يصيبها الإعياء والنصب وقد تنفق وتموت ، فلا تحصل مصلحة المسافر ولن يبلغ قصده ، لأن راحلته قد ماتت ، فيهلك معها لانقطاع الزاد عنه أو نفاذه أثناء السير .

من هنا نتعلم أن المسلم دائما بحاجة لزاد من الدنيا يستعين به على طاعة الله ، فكما أن أهل الكهف طلبوا طعاما ليستعينوا به في فرارهم إلى الله ، فكذلك طلب موسى طعاما في رحلته لطلب العلم

وقد استدل الإمام القرطبي بهذه الآية على جواز التزود في السفر، وردّ على الصوفية والجهلة الذين يخرجون إلى السفر بلا زاد زاعمين أنهم متوكلون. وقال: "في هذه الآية دليل على اتخاذ الزاد في السفر، وهو رد على الصوفية الجهلة الذين يخرجون بلا زاد زاعمين أنهم متوكلون، وموسى نبي الله قد اتخذ الزاد هو وفتاه.

كما أوضح الإمام ابن القيم (في مدارج السالكين) أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالأخذ بالأسباب، وأن إهمال الزاد ليس من الدين، بل هو إضاعة للمال والنفس. فالقلب يتوكل على الله، والجوارح تعمل وتأخذ بالأسباب.

كما أشار الحافظ ابن كثير إلى أن موسى –عليه السلام– لم يطلب الغداء ولم يشعر بالتعب (النصب) إلا بعد أن جاوز المكان المحدود له لقاء الخضر فيه، وفي هذا دليل على أن البشر –مهما بلغت منزلتهم من النبوة– تعتريهم الحاجات البشرية من الجوع والتعب، وعليهم الاستعانة بالطعام والشراب للاستقواء.

والأدلة على مشروعية التزود والأمر به استحبابا أو وجوبا :–

قوله تعالى في شأن الحج :(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة: 197).

وسبب نزولها :أن أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: "نحن المتوكلون"، فإذا قدموا مكة سألوا الناس واستجدوهم، فأنزل الله هذه الآية ليأمرهم بالاتكال على أنفسهم وحفظ كرامتهم باتخاذ الزاد.

كذلك قوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون: 51). فقرن الله عز وجل بين أكل الطيبات (التي تقيم الصلب وتمنح القوة) وبين العمل الصالح.

ومن الأدلة من السنة النبوية المطهرة :–

فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :**(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.**[1]**)**

إعداد النبي ﷺ للزاد في هجرته: في أعظم رحلة توكل في التاريخ (الهجرة النبوية)، لم يخرج النبي ﷺ بغير زاد، بل أعدت له أسماء بنت أبي بكر –رضي الله عنها– الزاد وشقّت نطاقها لتربط به السفرة، فلقبت بـ "ذات النطاقين."

وقول رسول الله ﷺ «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،** وفي كُلٍّ خَيْرٌ **احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ،** وَاسْتَعِنْ باللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ...»[2]. فالاستقواء بالطعام والشراب المباح يدخل في باب الحرص على ما ينفع البدن

1) رواه البخاري ج5 ص 404 رقم 1426
2) رواه مسلم ج13 ص 142 رقم 4816

لطاعة الله.فالزاد في الدنيا وسيلة وليس غاية؛ فالمسلم يستعين بمتاع الدنيا وطعامها ليقوى على عبادة الله، والقيام بواجباته، وعمارة الأرض

قوله (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) (63) أي عندما أوى نبي الله موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون إلى الصخرة، وضعا رأسيهما فناما، وأثناء ذلك اضطرب الحوت ، فخرج من المكتل (الوعاء الذي يحملان فيه الطعام) وسقط في البحر فاتخذ سبيله فيه عجباً ، فلاحظ ذلك يوشع بن نون ، ولعله من ثقل رأسه استغرق في النون ، ولما استيقظ يوشع بن نون، نسي أن يخبر نبي الله موسى بما حدث للحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى تجشما عناء السفر، فلما جاوزا المكان وجاعا، تذكر يوشع فقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: 63] ، ولعله تذكر بعد أن رفع عقد الشيطان عنه بعد نومته بذكر الله ، كما أشار لهذا المعنى حديث رسول الله ﷺ قَالَ (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ)[1]

وقد أوضح الإمام ابن كثير أن (ذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله سبب للذكر).[2]

فمقالة يوشع بن نون لموسى بعد تذكره بمثابة تدارك لآثار النسيان فور الاستيقاظ بسرعة تنبيه موسى قبل فوات الأوان ، وهذا الأدب ورد في قوله تعالى (**وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**) [الكهف: 24]، قال رسول الله ﷺ (**إن المؤمن خلق مفتنا توابا نساء إذا ذُكِّر ذكر**)[3] والمرادُ أنَّه إذا ذُكِّرَ باللهِ وعِقابِه؛ تذكَّرَ فيَرجِعُ عن ذَنبِه، فيَكونُ المعنى: أنَّه يَتوبُ، ثُمَّ يَنسى فيَعودُ، ثُمَّ يَتذكَّرُ فيَتوبُ، فكلَّما وقَعَ في الذَّنبِ؛ لم يَيأَسْ، بل يُسرِعُ الرُّجوعَ بالتَّوبةِ إلى اللهِ)[4] .

وهذه الحادثة لا ينساها أحد ، ولكن يوشع بن نون نسي أن يخبر موسى ذلك ، قال الألوسي (لعله شغله بوساوس في الأهل ومفارقة الوطن فكان ذلك سبباً للنسيان بتقدير العزيز العليم وإلا فتلك الحال مما لا تنسى)[5]

وقد عزي الشيخ مصطفى حسين سبب النسيان إلى أن يوشع بن نون قد شاهد من المعجزات العظيمة في عهد موسى عليه السلام ما يبهر الألباب؛ بدءاً من العصا حين تحولت حية تسعى، مروراً بمعجزة شق البحر، وصولاً إلى رفع الجبل فوق رؤوسهم، فما كان من أمر الحوت في نظره بمقارنة تلك المعجزات الهائلة ما يجعله يلتفت إليه أو يثبّته في ذهنه بالقدر الكافي[6].

وقد عزا يوشع بن نون النسيان إلى الشيطان ، فهو الذي أنساه ، بعدما استغرق في النوم ، وقد بيّن أبو حيان (أن الشيطان لا يقدر على خلق النسيان بذاته، وإنما يوسوس للإنسان، فتكون وسوسته سبباً للذهول والتفريط؛ ولأن

---

[1]) رواه البخاري ج4 ص 310 رقم 1074
[2]) تفسير ابن كثير ج5 ص 150
[3]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج10 ص 282 رقم 10688 ، وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج5 ص 346 رقم 2276
[4]) https://www.dorar.net/hadith/sharh/120839
[5]) تفسير الألوسي ج11 ص 312
[6]) إمام وخطيب مسجد المدينة بالإسكندرية وقام بتفسير القرآن الكريم وشرح الحكم العطائية uM6Rz-_J9https://www.youtube.com/watch?v=c-

الأنبياء ومن تبعهم في سلك الصلاح متقون لله، فما يصدر عنهم من تقصير إنما يكون من باب النسيان والخطأ غير المتعمد، ووصفهم بذلك دليل على براءة ساحتهم مما يُؤاخذ عليه العاصي) [1].

قوله (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) (63) تعجب يوشع بن نون من أن أثر نزول السمكة في الماء لا يزال موجودا لا يلتئم ، هنا أراد الله تعالى أن يريهما من الآيات العجاب ما لم يراهما من قبل ، في تمهيد منه سبحانه قبل ملاقاتهم للخضر وتلقي العلم منه ، وجمهور المفسرين قالوا هذه الآية كانت للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا ، إذ لو لم يحصل ذلك ولو وجدا الخضر دون أن تحدث هذه المشكلة ، لتذكروا المسافة الكبيرة التي قطعوها لأجل ملاقاته ، ما قد يجعلهم في فتور عند قدومهم لطلب العلم ، ولكن الله تعالى أراد أن يشغلهما عن ذلك ، ليحمدا الله أنهما لم يفقدا الطريق الموصل إليه ، **فالعجب ينسي الإنسان مشقة السفر ، بل ويحفزهما للتركيز واستقبال الخضر بهيئة مستجدة** ، وتلك وسيلة من وسائل التعليم السريع وتحفيز الذهن .

إذ يعتبر **تأثير الإبهار (Wow Effect) والاستعانة بوسائل تثير الإعجاب في التعليم** من الأدوات الإستراتيجية الحديثة التي تهدف إلى كسر جمود التلقين التقليدي وتحويل الموقف التعليمي إلى تجربة حيوية ومثيرة لاهتمام المتعلمين .يعتمد هذا المفهوم على إحداث حالة من الدهشة الذهنية والعاطفية لدى الطالب عند تقديم المعلومة، مما يدفعه غريزياً نحو الاستكشاف والتعلم.

قوله (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) هنا لم يلُم موسى فتاه أن فوَّت العلامة في البحر ولم يخبره آنذاك ، لأن اللوم على ما حصل لن يرجع ما فات ، وقد فهم موسى أن ما حصل لم يكن شرا لهما ، بل هو خير .

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال (وكل إنسان – في تجاربه الخاصة – يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم . ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذاً من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها . ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل) [2] .

انبهر موسى بما حصل ، ولكنه يركز على هدفه الذي يبتغيه ، وقد وصل إليه ، ولم يستطرد في الانبهار والتعجب ، بل اهتم بما ارتحل لأجله ، فلضمان أن يخدم الإبهار العملية التعليمية ولا يتحول إلى مجرد "استعراض"، يجب اتباع الآتي:

أولا : العلم بأن الوسيلة تخدم الهدف: إذ يجب ألا تستخدم وسيلة مبهرة إلا إذا كانت تحقق هدفاً سلوكياً أو معرفياً يصعب تحقيقه بالوسائل العادية.وقد أراد الله أن يعجبا من سلوك الحوت كتهيئة لموسى حينما يرى من الخضر أعجب من ذلك .

[1]) الزمخشري : الكشاف ج1 ص 251 ، البحر المحيط ج3 ص 138
[2]) في ظلال القرآن ج1 ص 204

ثانيا : التوقيت الذكي: يفضل استخدام الإبهار في بداية الدرس (كتهيئة حافزة) أو في نهايته (كتطبيق عملي مثير)، وليس طوال فترة الشرح.وهو ما حصل قبيل ملاقاة موسى الخضر تماما وقبل أن يشرع في تعليم موسى مما علم رشدا.
ثالثا : انتقال الطالب من المشاهدة إلى الفعل: تحويل الإبهار من "استقبال سلبي" (مشاهدة الطالب لعرض مبهر) إلى "مشاركة إيجابية" (قيام الطالب بنفسه بالتجربة أو التحكم بالتقنية). وهذا لم يحصل حين خرق الخضر السفينة ، فقد شاهد موسى هذا الأمر ابتداء ، ثم في قصة الغلامين اليتيمين قام الخضر ببناء الجدار ، وموسى يشاهد ولم يشارك ، فكان امتناعه عن المشاركة لاعتراضه . وكان ذلك سبب الفراق بينهما في المرة الثالثة .

ولنجاح ذلك لابد من توافر عنصري : "الثقة" و "الصبر" فهما من أهم عوامل التحول من مجرد المشاهدة إلى المشاركة الإيجابية في التجربة ذاتها ، فالعلم الذي لا يتم ترجمته إلى عمل سريع نسيانه ، ولم تكن عند موسى إشكالية في الثقة ، لكنها قلت بالتدريج لما رآه ما أنكره وقال للخضر "لقد جئت شيئا إمرا"، وقال "لقد جئت شيئا نكرا" ، أما الصبر فلم يصبر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ (وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا)[1].

قوله (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) (64) عَنْ قَتَادَة، فِي قَوْلِهِ:" فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا " ، قَالَ: عودهما عَلَى بدئهما"[2]، أي ارتدا إلي مكان الحادثة ، أي إلى الصخرة التي قفز عندها الحوت –السمكة الكبيرة – من المكتل ، فضرب خطا في البحر ، قيل أنهما تتبعا آثار أقدامهما [3]

قال الشعراوي أي (عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، أي : بدقة إلى أنْ وصلاَ إلى المكان الذي تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذي ضربه الله تعالى لموسى – عليه السلام – حيث سيجد هناك العبد الصالح)[4].

والسياق يظهر أن سفرهما كان عن طريق البحر (والعجيب أنهما ارتدا على أثر ذلك وهما على طريق البحر ، وذلك كله يدل على أنه كان لديهما خبرة بعلوم البحار ، وتتبع الأثر سواء في البر والبحر ، ولعل ذلك كان بالاستعانة بالنجوم ، فالبحارة يستعينون بها لمعرفة الطرق)[5] .

بذلك نتعلم طريقة **الاستدلال الصحيحة من خلال علم الأمارات والقرائن والتفرس فيهما** ، فما وصل موسى للخضر إلا بتتبع الأثر ، وهذا من علم القرائن والاستدلالات ، وليس بطريق الوحي ولا الأدلة المقطوع بها ، كذلك وصل الأعرابي لمعرفة ربه ، لما تتبع أثر قدرته في خلقه ، فقال الأثر يدل على المسير، والبعرة – أي الفضلات التي تخرج من البعير – تدل على البعير – أي البهائم –، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير.

[1]) رواه البخاري ج14 ص 351 رقم 4358
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 224
[3]) جمهور المفسرين
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5440
[5]) تتطلب الملاحة الفلكية مخططات النجوم التي تمكن الملاح من تحديد نجوم معينة في السماء من خلال موقعها داخل الأبراج المختلفة. أقدم وثيقة معروفة من العالم الإسلامي لفهرسة النجوم ورسم خرائط الأبراج هي النص العربي، كتاب صور الكواكب، كتاب النجوم الثابتة الذي جمعه عالم الفلك الفارسي عبد الرحمن الصوفي حوالي العام 964 ميلادية.

فمن المعلوم أصوليا أن الحُكم يَدور مع عِلّته وأماراته وجوداً وعدماً وفي هذا أشار شهاب الدين القرافي إلى أن الأحكام القضائية والسياسية تتبع العلامات الدالة على الحق ، **إذ تُستعمل القرائن حيث تَضعف وسائل الإثبات التقليدية ، وقلما تجد مسألة – في مجال القضاء والسياسة– اكتملت وسائل إثباتاتها بالوسائل التقليدية** ، ولذلك أشار الخطيب الشربيني إلى أهمية الأخذ بالقرائن المعاصرة لحفظ الأمن عند غياب الشهود ، كما **قرر** الإمام ابن القيم (أن القرائن القوية تُنزل منزلة الشهادة الإقرارية في كشف الجرائم ، وأن الفراسة باب عظيم في العلم والكشف عن الحقائق ، وأن هذا يعتمد كثيرا على التجربة والمشاهدة)[1] ، ولذلك ألف كتابه الطرق الحكمية في السياسة الشرعية. ويسمى هذا الكتاب أيضاً : الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية . كما ألف الشيخ شمس الدين محمد بن أبي طالب كتابه (السياسة في علم الفراسة) .

فمن أهمل الأمارات والقرائن؛ فقد ضيّع الحقوق، ولذلك يحذر الإمام ابن فرحون الماكي القضاة والولاة من جمود الظاهر الذي يُفضي إلى إبطال الحق ، **ومن ثم أبان ابن تيمية أن الفراسة عين السياسة، وبها يُعرف المحق من المبطل** مبيناً أن التفرس والذكاء في ربط الدلائل هو جوهر السياسة الشرعية العادلة [2]، فمن فاته علم القرائن والاستنباطات فاته خير كثير .

ولذلك قيل **العلوم عشرة** : علم التوحيد للأديان ، وعلم السر لرد الشيطان ، وعلم المعاشرة للإخوان ، وعلم الشريعة للأركان ، وعلم النجوم للأزمان ، وعلم المبارزة للفرسان ، وعلم السياسة للسلطان ، وعلم الرؤيا للبيان ، **وعلم الفراسة للبرهان** ، وعلم الطب للأبدان ، وعلم الحقيقة للرحمن)[3]

قوله (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)(65) العبد المشار إليه هو عبد من عباد الله ، وهو "الخضر" الذي نشد موسى الوصول إليه ليطلب العلم منه ، وقد ميزه الله بميزتين :-

الأولى أنه سبحانه آتاه من عنده رحمة ، وهو أمر سابق على العلم ، كما في قوله سبحانه (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة/282)

الأمر الثاني أن الله علمه علما من لدنه ، وهو ما يسميه العلماء بالعلم اللدني ، أي أنه تعلم من الله مباشرة ، ودون واسطة ، أي أنه يوحى إليه ، دليل علي أنه نبي من الأنبياء .

ففي الحديث (فَأَرَاهُ مَكَانَ الْحُوتِ قَالَ هَا هُنَا وُصِفَ لِي قَالَ فَذَهَبَ يَلْتَمِسُ **فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ مُسَجًّى ثَوْبًا** مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَفَا أَوْ قَالَ عَلَى حَلَاوَةِ الْقَفَا ، قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ ، قَالَ وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ أَنَا مُوسَى ، قَالَ وَمَنْ مُوسَى ؟ قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ مَجِيءٌ مَا جَاءَ بِكَ ؟ ..الحديث)[4]ففي سؤال الخضر لموسى دليل على أنه وإن كان لديه علم لدني من الله سبحانه ، إلا أنه لا يعلم الغيب إلا بمقدار ما علمه الله إياه فقط .

---

[1]) الجواب الكافي لابن القيم ج1 ص 126 ، الطرق الحكمية لابن القيم ج1 ص 17 ، بدائع الفوائد ج3 ص 636 ، مدارج السالكين ج1 ص 44 ، 45 ، مفتاح السعادة ج2 ص 217

[2]) درء تعارض العقل والنقل ج4 ص 82 إعلام الموقعين ج1 ص 177 ، الأمثال في القرآن ج1 ص 42 ، إغاثة اللهفان ج1 ص 48

[3]) تفسير الرازي ج1 ص 483

[4]) رواه مسلم ج12 ص 90 رقم 4386

والعلم اللدني هو علم قطعي لا ظن فيه ولا مجال فيه للاجتهاد ، لأنه من عند الله تعالى ، يؤتيه لعبده وحيا أو إلهاما ، قال ابن القيم (يشير القوم بالعلم اللدني إلى ما يحصل للعبد من **غير واسطة بل بإلهام** من الله وتعريف منه لعبده كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى)[1]، فهو من **قبيل الفهم الخاص** لما في الكتاب والسنة والذي يمن الله به على بعض عباده الصالحين

فعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ **مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ**)[2] ، (والمراد منه ما يستنبط به المعاني ويدرك به الإشارات التي تظهر **للعلماء الراسخين** في العلم)[3]

قال ابن جوزي (وقوله إلا فهما يعني ما يفهم من **فحوى الكلام** ويدرك من بواطن المعاني)[4]

وقال الملا القاري (**والمعنى أن التفاوت في العلوم لم يوجد من قِبل البلاغ وإنما وقع من قِبل الفهم**)[5].

قال ابن القيم (والعلم اللدني **ثمرة العبودية** والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من **فهم الكتاب والسنة** بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل : هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه) ، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي)[6] .

قال ابن تيمية (وَأَمَّا " الْعِلْمُ اللدني " فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ **يَفْتَحُ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ بِسَبَبِ طَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ** بِمَّا يَكْرَهُهُ وَاتِّبَاعِهِمْ مَا يُحِبُّهُ مَا لَا يَفْتَحُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ عَلِيٌّ " إلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ" ، وَفِي الْأَثَرِ " **مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** " [7]

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ

كَقَوْلِهِ : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

وقوله (وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)

وقوله (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ يَهْدِيهِ اللَّهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَقَالَ تَعَالَى (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وَقَالَ (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) وَقَالَ تَعَالَى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) وَقَالَ تَعَالَى (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وَقَالَ تَعَالَى (هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[8].

---

[1]) مدارج السالكين ج2 ص 476

[2]) رواه البخاري ج10 ص 258 رقم 2820

3) : السيوطي ، عبدالغني ، فخر الحسن الدهلوي :شرح سنن ابن ماجة ج1 ص 191

[4]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 137

[5]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج11 ص 23

[6]) مدارج السالكين ج2 ص 476

[7]) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص 342 ، الإيمان لابن تيمية ج1 ص 123

[8]) مجموع الفتاوى ج13 ص 245

وقال ابن تيمية (وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ ، فَقَوْمٌ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُجَرَّدَ الزُّهْدِ وَتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ وَرِيَاضَةِ النَّفْسِ تُوجِبُ حُصُولَ الْعِلْمِ بِلَا سَبَبٍ آخَرَ ، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ : لَا أَثَرَ لِذَلِكَ بَلْ الْمُوجِبُ لِلْعِلْمِ الْعِلْمُ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَمَّا الْوَسَطُ : فَهُوَ أَنَّ **ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ** مُعَاوَنَةً عَلَى نَيْلِ الْعِلْمِ ؛ **بَلْ هُوَ شَرْطٌ** فِي حُصُولِ كَثِيرٍ مِنْ الْعِلْمِ **وَلَيْسَ هُوَ وَحْدَهُ كَافِيًا** ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ آخَرَ **إمَّا الْعِلْمِ بِالدَّلِيلِ** فِيمَا لَا يُعْلَمُ إلَّا بِهِ ، وإما **التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية** (وهو ما يسمى بعلم الفراسة).

وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار، ويسعد به العباد، فلا يحصل إلا باتباع الكتب التي جاءت بها الرسل، قال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن) [طه : 123.127] . . . إلخ،وقال تعالى (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف : 36] ، فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل .

وأضل منهما من سلك في العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام، بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة، ولا العمل بموجب العلم أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف، بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة، ولا اعتبار العمل بالعلم، فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع، وأعرض أولئك عن العمل والشرع، فَضَلَّ كل منهما من هذين الوجهين، وتباينوا تباينًا عظيمًا، حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم، وأشبه هؤلاء النصارى الضالين، بل صار منهما من هو شر من اليهود والنصارى، كالقرامطة والاتحادية وأمثالهم من الملاحدة الفلاسفة)[1] .

وقال ابن القيم (وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتقيد بهما : **فهو من لدن النفس والهوى والشيطان** فهو لدني لكن من لدن من وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا : بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه عز وجل فالعلم اللدني نوعان : لدني رحماني ولدني شيطاني بطناوي والمحك : هو الوحي ولا وحي بعد رسول الله)[2]

وقال ابن القيم (وأما **قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد** ، وكفر مخرج عن الإسلام موجب لإراقة الدم ، والفرق : أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ، ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ،ولهذا قال له : أنت موسى نبي بني إسرائيل قال : نعم ، ومحمد مبعوث إلى جميع الثقلين فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان، ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم)[3]

---

[1]) مجموع الفتاوى ج13 ص 245
[2]) مدارج السالكين ج2 ص 476
[3]) مدارج السالكين ج2 ص 476

قوله (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)(66) قال ابن كثير (سؤال بتلطف ، لا على وجه الإلزام والإجبار)[1] ، وقال ابن جزي (مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه)[2] ، وأول هذا التلطف أن عرض عليه خدمته ، فقد كان أنس ابن مالك يخدم رسول الله ﷺ ، كما كان يوشع بن نون يخدم موسى عليهما السلام

والشواهد علي ذلك من سير الصالحين والعلماء كثيرة ، نذكر منها :-

- **موقف ابن عباس مع زيد بن ثابت** :أخذ الحَبْر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (وهو من آل بيت النبي ﷺ) بركاب دابة زيد بن ثابت (عالم المدينة) ليقودها له، فقال له زيد: "تنحّ يا ابن عم رسول الله"، فقال ابن عباس" :**هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا**"، فقبّل زيد يد ابن عباس وقال: "وهكذا أُمِرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا[3]."
- **موقف الإمام الشافعي مع الإمام مالك** :يقول الشافعي عن شدة هيبته وتأدبه في مجلس شيخه مالك" :**كنت أتصفح الورق بين يدي مالك تصفحاً رفيقاً هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها**"، وكان يخدمه بالاستماع التام والامتثال لتوجهاته.
- **موقف الإمام مسلم مع الإمام البخاري** : جاء الإمام مسلم إلى البخاري فقبّل بين عينيه وقال له" :**دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله**"، مبيناً بذلك أعلى درجات التوقير والخدمة النفسية واللفظية لشيخه.
- **موقف الربيع بن سليمان مع الشافعي**: يقول الربيع "تلميذ الشافعي" :(**والله ما جَسرتُ أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليّ هيبة له**).

وفيه دليل على **جواز المقايضة حتى في طلب العلم** ، ذلك أن المعلم لا يتسع له الوقت كله لأن يمضي في التعليم دون أن يعمل ويكسب ، فكان في إعانة المتعلم للعالم بشيء من الخدمة ما قد يساعده علي مواصلة وظيفته في تحصيل العلم وتعليمه للناس ، ولهذا قايض موسى الخضر علي أن يتبعه أي علي أن يخدمه مقابل أن يعلمه ، قال الرازي (فأثبت كونه تبعاً له أولاً ثم طلب ثانياً أن يعلمه ، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم ، فلم يطلب —موسى– على تلك المتابعة —الخدمة– شيئاً كان قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم)[4].

قوله (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (67) يتضح منه أن الخضر –عليه السلام– استشرف عاقبة الأمور بما أودع الله فيه من فراسة صادقة، وقراءة للقرائن الظاهرة، أو بما أوحاه الله إليه وعلمه إياه؛ فأدرك أن موسى –عليه السلام– لن يطيق صبرًا على مرافقة عالمٍ لم يُحط بظواهر أفعاله علمًا.

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 181
[2]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 960
3) أخرجه ابن عساكر (326/19) .[كنز العمال 37061] . انظر جامع الأحاديث للسيوطي ج35 ص 48 ، الدينوري : المجالسة وجواهر العلم ج1 ص 288 ، ابن كثير في البداية والنهاية ج8 ص 331 وذكره الشيخ مصطفى العدوي واستشهد به في دروسه 49 / 10
[4]) تفسير الرازي ج10 ص 232

وقد برر الخضر متواضعا سبب تحذيره موسى من عدم الصبر فقال (يَا مُوسَى **إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ**)[1]

فهذا الضرب من العلم اللدنيّ يستلزم صبرًا من نوع خاص، لا سيما وأن جِبلّة موسى –عليه السلام– تدفع به نحو الغيرة الغامرة على الحق وسرعة الانفعال إن رُئي ما يخالفه؛ وهي طبيعةٌ تجلّت في مواقف شتى، كأخذه برأس أخيه يجره إليه وإلقائه الألواح عند مواطن الحساب وتحمل المسؤولية.

بيد أن هذا الانفعال لا ينفي صفة الصبر عن كليم الله في مَقام الدعوة والرسالة؛ فقد ضرب أروع الأمثلة في الاحتمال ومجاهدة أذى قومه، حتى إن النبي ﷺ تذكره في مواطن الإيذاء متأسيًا به ومترحمًا عليه حين قال (رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ) [2].

ومع ذلك، فإن مقام "مرافقة الخضر" لم يكن مقام دعوة، بل كان مقام "فضولٍ معرفيّ وشغفٍ بالاستكشاف"، ولم يكن الصبر المطلوب فيه إيجابيًا بالسعي والعمل، بل كان صبرًا سلبيًا بالكف والامتناع، وهو أشد ألوان الصبر على النفس التوّاقة. فكأنما كاد موسى يتقطع غيظًا وهو يرى أمورًا تنكرها العقول بظاهرها، ثم يُؤمر ألَّا يسأل عنها أو يستفسر. وهذا الشغف الإنساني بالمعرفة، والفضول المحفوف بالنهي، يُذكرنا بوجوه الشبه بما جرى لآدم –عليه السلام– حين حركه فضول المعرفة والتطلع إلى ما نُهي عنه، فلم يقو على مقاومة الرغبة في الأكل من الشجرة، فكان ذلك سبب خروجه من الجنة.

إن العقل البشري، مهما بلغ من الاتساع والشغف، يظل عاجزًا عن الإحاطة بكنه الحكمة الإلهية في تدبير الكون. فكأن الخضر بلسان الحال يقول له :يا موسى، لقد ألقتك أُمُّك في اليمّ رضيعًا فما غَرِقت، وتربيت في قَصرِ عدوكَ اللدُودِ فِرعَون فما هَلِكت، وجَرتْ عليكَ تصاريف الأقدارِ الإلهيةِ العجيبة فما ضِعت؛ ومع ذلك، فإنكَ لن تَستطِيعَ بحدود بَشريتكَ أن تَفهمَ طوايا أقدارِ اللهِ الخفية، ولن تتصورَ روعةَ تدبيرِهِ المحكم، ولن تستوعبَ عُمقَ لطفهِ الدقيق، ولن تتخيلَ سِعةَ رحمتِهِ وجلال حِكمتهِ جلَّ وعلا، فاحتمِل غيبَ ما لم تُحِط به خُبرًا: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

ففي قول أبي هريرة (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ) [3] لدليل على أن معه وعائين من العلم ، فهو يحدث الناس بأحدهما ويكتم الآخر ، امتثالا لقول علي بن أبي طالب (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) [4]، من هنا جاء إشفاق الخضر على موسى أن يحدثه ما لا يقدر العقل عن استيعابه .

وقد حمل بعض العلماء الوعاء الذي لم يحدث به على إفشاء أسرار المنافقين ، فقال الحافظ ابن حجر رحمه الله " حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضهم ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم ،كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين ، وإمارة الصبيان ،

[1]) رواه البخاري ج1 ص 207 رقم 119
[2]) رواه البخاري ج10 ص 403 رقم 2917
[3]) رواه البخاري ج1 ص 203 رقم 117
[4]) رواه البخاري ج1 ص 217 رقم 124

يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية ؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة)[1]

وقد رجح الشيخ محمد رشيد رضا أن يكون هذا الوعاء مختص بأحاديث الفتن وفساد الزمان فقال: (**والذي عليه المحققون أن أبا هريرة يعني بما كتم من الحديث أحاديث الفتن ، وما يكون من الفساد في الدين والدنيا** ، مثلما ذكر من إفساد أغيلمة من سفهاء قريش ، وهم بنو أمية)[2]

(وأما **قول بعض غلاة الصوفية** أن ما أخفاه أبو هريرة من العلم هو العلم الباطني الذي يشتمل على وحدة الوجود : فهذا كلام باطل من وجوه كثيرة)[3]

قال الشيخ محمد رشيد رضا (فجهلة المتصوفة يزعمون أن عندهم من علم الحقيقة من قبيل الوعاء الآخر من وعاءي أبي هريرة ، وبعضهم يظن أن لشيوخهم سندا في تلقي علم الباطن ، ينتهي إلى بعض الصحابة أو أئمة آل البيت عليهم الرضوان)[4].

ولعل الراجح أن الوعاء الذي كتمه أبو هريرة أنه يختص **بالعلم الذي يصادف الحقيقة دون إخلال بقواعد الشريعة** ، كما هو حال الخضر ، فقد كان يعلم حقيقة غصب السفينة ، وكذلك كفر الغلام وإرهاق والديه الصالحين ،وكنز اليتيمين ،فتصرف وفقا لقواعد الشريعة بما علم من الحقيقة ، **والشريعة هي الحقيقة ولا حقيقة غيرها** .

وقال بعض الصوفية أن المراد بالأول —أي الاول من الوعائين– علم الأحكام والأخلاق

وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار المختص بالعلماء بالله من أهل العرفان

وهو نتيجة الخدمة وثمرة الحكمة لا يظفر بها إلا الغواصون في بحار المجاهدات ولا يسعد بها إلا المصطفون بأنوار المجاهدات والمشاهدات إذ هي أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة وأنوار لامعة في الغيوب لا تنكشف إلا للأنفس المرتاضة)[5]

فرد عليهم بعض أهل العلم (نعم ما قال ، لكن **بشرط أن لا تدفعه القواعد الإسلامية ولا تنفيه القوانين الإيمانية إذ ما بعد الحق إلا الضلال)**[6]

في قوله تعالى (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) تتجلى حقيقةٌ تربوية وتشريعية عميقة؛ فالعلم بمالات الأمور وخفاياها هو أساس الثبات ومفتاح الأناة .وقد لخص الإمام ابن كثير هذا المعنى بعبارة بليغة موضحاً أن المرء إنما يحكم على ظاهر ما يرى من موازين العدل المشهودة، بينما تحجَب عنه غيوب المقادير المحجوبة[7]. ويُعمّق الألوسي هذا الملمح مبيناً أن العبد الصالح—ولا سيما إن كان مبلّغاً عن الله ككليم الله موسى عليه السلام—لا يملك إلا أن تضيق نفسه

---

[1]) فتح الباري لابن حجر ج1 ص 216
[2]) تفسير المنار ج6 ص 390
[3]) https://islamqa.info/ar/answers/147659/
[4]) تفسير المنار ج6 ص 390
5) يذكر كبار الشُّرّاح (مثل الإمام بدر الدين العيني في *عمدة القاري*، والإمام ابن حجر العسقلاني في *فتح الباري*، والإمام الكرماني في الكواكب الدراري) هذا النص بصيغة التمريض أو النقل عن طائفة الصوفية
6) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج3 ص 365 : بدر الدين العيني الحنفي
[7]) تفسير ابن كثير ج5 ص 179

وتشمئز جوارحه عند معاينة ما ينكره ظاهراً، لما جُبل عليه من الغيرة والحِدّة في الحق، وهي الغيرة ذاتها التي دفعته يوماً للأخذ برأس أخيه يجره إليه[1].

إن إنكار المنكر جبلة راسخة في نفوس الصالحين، غير أن "فقه السياسة الشرعية" يرتقي بالمؤمن ليتغاضى عن أدنى المفسدتين جليّاً، استبقاءً لأعظم المصلحتين خفيّاً؛ تقديماً لدرء المفاسد على جلب المصالح، وارتكاباً للضرر الأخف لدفع الضرر الأكبر. ومَن حُرم هذا الفقه الدقيق والموازنة البصيرة، زاغت عنه مقاصد الشريعة، فربما سعى في هدمها وهو يحسب أنه يُشيد أركانها.

فهذا موسى عليه السلام قد خفي عليه شأن قومه عندما تركهم مع أخيه هارون وذهب إلى جبل الطور فرحا مسرعا لملاقاة ربه ، وقد أنزلت عليه التوراة ، فمن عجلته وفرحه بلقاء ربه ترك قومه خلفهم ، وهو لا يدرك حجم الفتنة التي تركها وراءه ، فأضلهم السامري وعوتب في ذلك بقوله تعالى (وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (طه 83) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (طه 84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (طه 85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (طه 86)

ولنا كذلك في السيرة العطرة شواهد ناطقة؛ منها ما كان من أمر أبي ذر الغفاري—رضي الله عنه—حين ملكته حمية الحق وغلب عليه الشوق للإعلان بالتوحيد، فلم يطق كتماناً ولا صبراً، رغم توجيه النبي ﷺ الشفيق له: «يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك...»[2]. فمضى يصرخ بالشهادة بين ظهران قريش حتى أوجعوه ضرباً وكادوا يفتكون به لولا غياث العباس له.

لقد كان المصطفى ﷺ يدير بحكمة النبوة وعمق البصيرة مآلات الدعوة، موقناً أن رسالته لم تأتِ لطلب المواجهة وإشعال الحروب، بل لتبليغ الحجة بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، مرجئاً الصراع المادي إلا أن تدعو إليه ضرورة قاهرة، وبقدر تلك الضرورة لا يزيد.

ولو تخيلنا—على سبيل الافتراض—أن ثأر الشهيدة "سمية" أم عمار بن ياسر قد وُكل يومئذٍ إلى حمية أبي ذر وجرأته، لربما جرت دماء وسُلت سيوف قبل أوانها، ولكن حكمة الله النافذة كبحت عواطف الصحابة، وحفظت حماستهم في تلك الحقبة الحرجة؛ لتتجلى ثمرة ذلك الصبر النبوي لاحقاً في يوم الفتح العظيم، حين دلف الناس في دين الله أفواجاً، وأسلمت قريش عن بكرة أبيها، لتتحول سيوف الأمس التي طعنت سمية، إلى دروع تحمي راية الإسلام وتذود عنها.

قوله (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) (69) وهنا أدب تضمن تعليق المشيئة الإلهية قبل العزم على فعل شيء ، فهو قبل أن يعده بالالتزام بالصبر قدم المشيئة ، تلك التي تغافل عنها صاحب الجنتين ، قال رسول الله ﷺ (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ **وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ** ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ **عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**)[3]، من الحديث نفهم أن الصبر بالتصبر ، ولا يكون ذلك إلا بالاستعانة بالله .

---

[1]) تفسير الألوسي ج11 ص 337
[2]) رواه البخاري ج11 ص 349 رقم 3261
[3]) رواه البخاري ج5 ص 318 رقم 1376

لقد عقد موسى عليه السلام العزم الشديد على اتباع الخضر والالتزام التام بنهجه دون شق عصا الطاعة أو عصيان أمره، وفي هذه التبعية الواعية أبلغ دلالة على نبوة الخضر؛ إذ إن مقامه اللدني اقتضى ريادة استثنائية في تلك الرحلة، فرغم أن موسى كان نبيًا مرسلًا إلى بني إسرائيل خاصة، إلا أنه عند اجتماع نبيين في مسير واحد، فلا بد أن تؤول القيادة لأحدهما حقًا وعدلًا. ومن هنا، كانت الإمارة للخضر بوصفه حائزًا من العلم ما لم يحط به موسى، وهو أمر قد علم به كليم الله سلفًا بوحي وإخبار من الحق سبحانه.

ولما كان معهما يوشع بن نون، فقد تحول المسير إلى رفقة ثلاثية توجب – بالضرورة – أن يأتمر بعضهم بأمر بعض، تنزيلًا للتوجيه النبوي الشريف (**إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**)[1] .وقد أفاض العلماء في بيان حكمة هذا الحديث، موضحين أن هذه الإمارة إنما شُرعت لتنظيم شؤون الرفقة؛ ليكون الأمير مرجعًا لهم في حلهم وترحالهم، وملاذًا للاستئذان والمشورة عند رغبة أحدهم في الانفصال لحاجة أو التخلف لغرض، وبذلك تلتئم شمل الجماعة ولا يتفرق بهم السبل، فلا يغدو كل امرئ أمير نفسه، ولا يمضي الواحد منهم لغايته دون علم صاحبيه. وليست هذه الإمارة ولاية سلطانية يترتب عليها إقامة حدود أو أحكام عامة، بل هي تدبير حكيم يضبط أحوال السفر ارتحالًا ونزولًا.[2]

ومما يستوقف اللبيب في النص النبوي قوله: «**فليؤمروا أحدهم**»، وهو ملمح دقيق يشير إلى أن الأمير لا يشترط فيه أن يكون أفضل الجماعة رتبة أو أعلاهم فضلًا، بل المدار على أهليته لتحمل المسؤولية وإدارة الشأن. فإذا كان المشرّع الحكيم قد حرص كل هذا الحرص على ألا تخلو عصبة من ثلاثة في فجاج الأرض من قائد يدبر أمرها، فما الظن بقطاعات المجتمع الحيوية ودوائره الكبرى؟ إنها بلا شك أحق بالتنظيم وأولى بتعيين المدبر والمدير.

وفي هذا السياق، يؤكد الشيخ ابن جبرين أن الغاية من إقامة هذا الأمير هي الرجوع إليه والاستئارة برأيه، وفي ذلك تربية عملية وحث بليغ للأمة على رعاية السمع والطاعة لولاة أمورهم.[3]

ومن جماع هذه الإشارات، يتبدى لنا بوضوح مدى حرص الإسلام على صهر أتباعه في كنف جماعات منظمة، تتآلف في بنيانها الصغير لتصب في نهر الجماعة الأم؛ حتى يغدو المسلمون في عين الوجود بنية متماسكة وكيانًا مشهودًا، لا آحادًا متفرقين في دروب الحياة بلا رابط أو نظام[4].

وفي قوله (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) (70) تأصيلًا لمنهجية التلقي والأدب مع العلماء، لتضع ميثاقًا تعليميًا فريدًا. فالخَضِرُ عليه السلام لم يحظر على موسى عليه السلام السؤال مطلَقًا، ولم يحرمه حق الاستفصال، وإنما نهاه عن عجلة المبادرة بالسؤال قبل أوانه وبلوغ إذن المعلم .لقد كان هذا شرطًا تأسيسيًا لصُحبَةٍ علمية تُعنى بالجانب التطبيقي والمنهجي، لا المجرد النظري والتأصيلي؛ ذلك أن العلم النافع يُورَث بالاتباع والاقتداء، قبل أن يُلقَّن بالبراهين والاقناع.

إن جوهر الاتباع يكمن في الانسلاخ من الابتداع، وهو ما رسّخه النبي ﷺ بقوله (**صلوا كما رأيتموني أصلي**) فمهما استوعب المسلمون أحكام الصلاة نظريًا، فلن يدركوا أسرارها ويذوقوا حلاوتها إلا بالامتثال العملي الذي يُجسّد معاني الخشوع والسكينة طاعةً واقتداءً.

---

[1]) رواه أبو داود ج7 ص 187 رقم 2242 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 396 رقم 1322
[2]) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج 14 ص 90
[3]) شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين ج3 ص 91
[4]) الشيخ علي بن نايف الشحود : المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ج14 ص 330

ومن أرفع آداب التعلم التطبيقي أن يتأنى التلميذ، فلا يستعجل شيخه بالاعتراض أو الاستفسار حتى تكتمل الدورة التعليمية وتتضح معالم الموقف. بيد أن هذه الطاعة وهذا التمهل محكومان بالثقة، وللثقة في المنهج الإسلامي حدود صلبة حدّها الشرع الحنيف؛ فإذا بدا من تصرفات المعلم ما يخالف الشريعة في عين المتعلم، وجب عليه الاستيضاح، وهو عينه المأخذ الذي تعجّله موسى عليه السلام مدفوعًا بغيرته على الحق، ولم يُطق عليه صبرًا قبل أن يأذن له المعلم بتأويله.

وهنا تبرز قضية محورية بالغة الخطورة :ميزان الثقة بين الشيخ وتلميذه .فلو كان المعلم فاقدًا للأهلية وصاحب هوى، لتحولت تلك الثقة المطلقة إلى أداة إفساد ومظلة للتبعية الزائفة. أما إن كان ربانيًا متمسكًا بحدود الشرع، غدت ثقة المتعلم في محلها الصحيح. ومن هنا حذر النبي ﷺ أمته قائلًا **(وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)**[1] .

فبينما يُطالَب المعلم بالفراسة والعمق في استنباط الأحكام من محكم الكتاب والسنة وفهم واقع الأمة، يُطالَب طالب العلم المقابل بامتلاك فراسة ناقدة تُقيّم أهلية الشيخ وسلوكه وهديه قبل الارتحال إليه، تصديقًا لمأثور الإمام محمد بن سيرين **(إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)**.[2]

قوله (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (71) ففي الحديث (فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ إِذْ أَخَذَ الْفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا قَالَ فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالْقَدُّومِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى مَا صَنَعْتَ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ، فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا)[3].

تتجلى من الآية ، وما واكبها من السياق النبوي الشريف في الحديث، معالمُ المنهج الشرعي في التعامل مع ظواهر الأمور. فعند التأمل في هذا الموقف الشرعي، قد يتساءل الناظر: ما الذي كان يسع نبي الله موسى عليه السلام أن يفعله غير الإنكار؟

والجواب أن إنكار موسى عليه السلام إنما كان انطلاقاً من وجوب الحكم بالظاهر الذي هو أصل التشريع الإلهي للأنبياء والبشر .بيد أن سياق الإنكار احتمل نوعاً من الاستعجال في استنباط الغاية والباعث؛ حيث ظن الكليم – بحسب الظاهر المشاهد– أن الفعل يؤول إلى إغراق أهل السفينة، فوصف الصنيع بأنه "إمر"؛ أي أمراً عظيماً منكراً. وهذا المسلك في التحليل المبني على ظاهر الحدث غاب عنه الباطن المستور الذي استأثر الله بعلمه وأطلع عليه الخضر. وهو شبيه من حيث الاعتماد على الظاهر بقول ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه)[4].

---

[1]) رواه أبو داود ج11 ص 322 رقم 3710 وصححه الألباني : ج9 ص 252 رقم 4252
[2]) رواه مسلم ج1 ص 33
[3]) رواه البخاري ج11 ص 202 رقم 3149
[4]) رواه مسلم ج9 ص 102 رقم 3231

وإغراق السفينة لا يلزم منه موت من على متنها ، فالسفينة لا تغرق بتسرب الماء إليها إلا بعد فترة زمنية طويلة ، قد تصل إلى ساعات ، مما يكفي لنزول الناس منها في قوارب ، فلما رأى موسى منه إفساد المال قال لقد جئت شيئا إمرا ، أي منكرا عظيما .

غير أن ميزان أهل السنة والجماعة يقتضي تنزيه مقام الأنبياء عن أوصاف السوء؛ فلا يُقال إن موسى عليه السلام "اتهم الخضر بنية إجرامية" أو "سبق إصرار"، بل يقال :إن موسى عليه السلام غلبت عليه الغيرة الشرعية، وحمل الأمر على مقتضى ظاهر الفساد المادي المشاهد، وهو خرق سفينة المساكين الذين أحسنوا إليهما.

ولم يكن صنيع موسى عليه السلام مجافياً لأصل الإنكار، بل إن عجلته في نكير الأمر كانت مدفوعة بقوة الغضب لله ورعاية حقوق العباد، وهي جبلة طبعية شهدتها مواقف أخرى كإلقاء الألواح. ومن هنا يؤخذ الأدب الشرعي: أن الغضب لله تعالى –وإن كان محموداً ومطلوباً عند انتهاك الحرمات في الظاهر– ينبغي أن يُحاط بالصبر الجميل، وألا يحجب التروي والاستيضاح؛ فالسؤال والفهم هما مفتاح حل المشكلات، والتحلي بالأناة مئنة لتلقي العلم ودفع الاستعجال في الأحكام.

قوله (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (72) هذا عتابُ المعلّم المشفق لتلميذه، وتذكيرٌ له بالعهد السالف، مع التجاوز عنه في أول بادرة؛ فالخطأُ في مطلع الطلب مظنّة القبول، لاسيما وأنّ آفة العلم النسيان. ومِن الطبيعيّ أن يعزبَ عن ذهن موسى –عليه السلام– ذلك الشرطُ الذي ضربه الخضرُ عليه. ولم يكن هذا العتابُ للإعنات أو الاستفاضة، بقدر ما كان تذكيراً وتعليماً؛ خاصةً وقد أبصر الخضرُ اندفاعَ موسى في النكير، إذ كان حَسْبُ الكليمِ أن يستفسرَ عن المسألة استعلاماً واطمئناناً، لا أن يشتدَّ نكيراً لقلّة الصبر. ومِن حُسن الأدب التربويّ أن يصفحَ المؤدب عن الهفوة ويُحاسبَ على الأخرى تيسيراً على تلميذه؛ تمثُّلاً بالمسلك القرآني في قوله سبحانه(**عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**)

قوله (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) (73) قَالَ رَسُول الله ﷺ (كَانَتِ الأولى مِنْ موسى نسياناً)[1] ، وهكذا يكون الغضب سبب للنسيان [2]، ويكون النسيان آفة للعلم ، يقول ابن رشد (ومما يفعل الغضب النسيان للأَشياءِ المهمة عندك حفظها)[3] ، قال الحجاج (العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال الغلام :صدقت العرب أصلح الله الأمير ، قال **فما آفة الحليم؟ قال الغضب ، قال: فما آفة العقل؟ قال العجب ، قال فما آفة العلم؟ قال النسيان**)[4] ، قال ابن الجوزي قيل أن معنى إذا نسيت إذا غضبت قاله عكرمة قال ابن الأنباري وليس ببعيد لأن الغضب ينتج النسيان) [5]

فموسى نسي أن الخضر معلمه ، وأن الله أمره باتباعه ، وأنه أعلم منه ، ما إن تذكر جدد الثقة فيه مرة أخرى واعتذر عن إتهامه له .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 216

[2]) https://www.alyaum.com/articles/6077645الأخبار /منوعات/التوتر والغضب المفرط يبيان فقدان الذاكرة دراسة كشف عنها استاذ جراحة المخ والأعصاب بكلية طب القصر العيني بالقاهرة د محمد لطفي

[3]) تلخيص الخطابة ج1 ص 58

[4]) اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج1 ص 79 ابن العماد : شذرات الذهب ج1 ص 94

[5]) زاد المسير ج5 ص 128

قوله (..وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) (73) قال القاسمي أي (لا تعسِّر عليَّ متابعتك ، بل يسِّرها عليَّ ، بالإغضاء وترك المناقشة) ، وفي ذلك تذكير بأدب إسلامي أشار إليه قول النبي ﷺ (**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**)[1].

قوله (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (74) وتلك هي الثانية من موسى ، أي الموقف الثاني الذي عجز فيه موسى –عليه السلام– عن الصبر؛ إذ دهمته دهشة عارمة وتملكه ذهول شديد وهو يشاهد الخضر يُنهي حياة غلام غرير لم يبلغ الحلم، ولم يجرِ عليه قلم التكليف بعد، مما يجعل قتله في ظاهر الأمر خطيئة كبرى لا مبرر لها.

وفي هذا الموقف، لم يكن إنكار موسى مستنداً إلى ظن أو التماسٍ لباعث خفي، بل انطلق من معاينةٍ بصرية لأدلة مادية قاطعة الدلالة على حدثٍ مفجع. ولذلك، جاء حكمه حاسماً ومباشراً دون التفاتٍ للنيات. وفي توجيه هذا الموقف، يذكر **الشيخ أبو بكر الجزائري** في تفسيره "أيسر التفاسير» :"**ولم تكن هذه نسياناً من موسى بل كان عمداً، لأنه لم يطق فعل منكر كهذا لم يعرف له وجهاً ولا سبباً**" .[2]

وعند تحليل هذا السلوك الإنساني من نبي الله موسى، نجد أن اعتراضه هذه المرة لم يكن وليد اندفاعٍ عاطفي مجرد، ولا ناتجاً عن سوء ظن، بل كان الدافع إليه هو "عِظَم الجناية"؛ إذ لا يستسيغ عقلٌ سويّ إزهاق نفس بريئة عمداً بغير حق، فكيف إذا كانت هذه النفس لطفل صغير؟ من هنا، جاءت عبارة الإنكار في هذه المرة أشد تقريعاً وأقوى سبكاً من المرة الأولى؛ فقال (لقد جئت شيئاً نُكراً)، لأن الجريمة هنا أصابت النَّفْس البشريّة، وهو أمرٌ لا يمكن تداركه أو إصلابه، بخلاف خرق السفينة الذي كان عيباً مادياً يسهل رتقه. وهو ما يؤكده **الإمام ابن عجيبة** في تفسيره "البحر المديد" بقوله : (**مُنكرًا، أي: أنكرُ من الأول، إذ لا يمكن تداركه، كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه**)[3].

إن هذا المشهد يبرز الفجوة بين شريعة الظاهر المبنية على الأسباب المادية، وبين حقيقة القدر المحجوبة بحجب الغيب. فالأدلة الظاهرة قد تبدو أحياناً على خلاف الحقيقة الباطنة، والعقل البشري يقصر بمفرده عن استيعاب أسرار التدبير الإلهي؛ ليبقى اليقين بأن قدر الله وقضاءه –وإن غابت حكمته عن العباد– هو محض الخير والرحمة، وأن تدبير العبد قاصر لا يستقل أبداً عن تدبير الله المحيط.

ومن لطائف هذه القصة، يتضح لنا أن ما حال بين موسى وبين الصبر في المرة الأولى كان "النسيان"، وهو عارضٌ من عوارض الأهلية الطارئة، بينما حال بينه وبينه في المرة الثانية "العاطفةُ والرحمة" الجبلّية التي ثارت في نفسه إزاء مشهد الغلام. وتُعد العاطفة في مقام التحصيل المعرفي آفةً تحجب العقل عن النظر التجريبي المجرد؛ فطالب العلم يلزمه أن يتجرد من الهوى والميل القلبي ليأتي استدلاله ناصعاً وخالياً من المؤثرات الذاتية[4].

فهناك دراسة علمية تؤكد أنَّ (الدماغ البشري يخوضُ نزاعاً دائماً بين مركز العاطفة ومركز العقل، فهنالك منطقتان في الدماغ تتنافسان للتحكم بسلوك شخص ما على وشك اتخاذ قرار بين إشباع العاطفة الفورية وتحقيق الأهداف

---

[1]) رواه مسلم ج9 ص 351 رقم 3407
[2]) أيسر التفاسير ج2 ص 394
[3]) البحر المديد ج3 ص 422
[4]) وهذا ما يقرره علماء النفس والأعصاب حديثاً؛ إذ يرى **العالم النفسي دانيال غولمان (Daniel Goleman)** في نظريته الشهيرة حول "الذكاء العاطفي" أن العاطفة قادرة على إحداث ما يسميه**" الاختطاف العاطفي(Emotional Hijacking) "**، حيث تسيطر اللوزة الدماغية (مركز العواطف) على القشرة المخية الحديثة (مركز التفكير العقلاني)، مما يجعل الإنسان يتصرف بناءً على مشاعره الآنية قبل أن يتمكن عقله من تحليل الأبعاد بعيدة المدى.
وتدعم دراسات الرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI) هذا الطرح؛ إذ تؤكد أن الدماغ البشري يعيش نزاعاً مستمراً بين مركز العاطفة الفورية ومركز العقل الإستراتيجي، حيث تتنافس هاتان المنطقتان للتحكم في السلوك عند اتخاذ القرارات المصيرية. كما أظهرت أبحاث عالمة الأعصاب **نايومي أيزنبرغر Naomi (Eisenberger**أن الألم الناتج عن جرح المشاعر والأحاسيس (كألم الحزن والتعاطف المفجع) هو**" ألم حقيقي "**يستثير نفس المناطق الدماغية (مثل القشرة الحزامية الأمامية) التي تشتعل عند شعور الإنسان بالألم الجسدي تماماً.

البعيدة المدى بمركز العقل) ، وهناك دراسة أُخرى أظهرت أنَّ (الألم بسبب جرح المشاعر والأحاسيس هو "ألم حقيقي" كالألم الجسدي تماماً ، فمناطق الدماغ التي تعمل عندما يشعر الشخص بألم جسدي تعمل أيضاً عندما تجرح مشاعر ذلك الشخص)[1].

بناءً على ذلك، فإن عاطفة الرحمة والمشاهدة المفجعة لقتل الغلام قد أحدثت في نفس موسى –عليه السلام– ألماً شعورياً غامراً، تلاشت معه شروط الصبر النظري التي قطعها على نفسه سابقاً، مما يثبت بصورة جليّة كيف تطغى سلطة العاطفة الإنسانية على محاكمة العقل الباردة في مواقف الأزمات الكبرى.

وفي قوله (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) (75) تجلّت –في عتاب الخضر لموسى عليهما السلام – معاني الحلم التربوي؛ إذ أعاد الخضر تنبيه موسى للمرة الثانية مؤكدًا ومذكّرًا، ولم يعاجله بفسخ عقد الصحبة والتعلم.فيرى الإمام الألوسي أن زيادة لفظ" لَكَ "في هذه المرة لم تكن عبثًا، بل جاءت لزيادة المكافحة والمواجهة على رفض الوصية، وعتابًا على قلة التثبت والصبر؛ لا سيما بعد أن تكرر من موسى عليه السلام الاشمئزاز والاستنكار، ولم يرتدع بالتذكير الأول بل زاد إنكاره في المرة الثانية. [2]

أما الإمام ابن عاشور، فقد استنبط من هذا الموقف أصلًا من أصول التعليم المنهجي؛ **يوجب على المعلم تنبيه المتعلم إلى ما قد يعترض طريقه من مشاق وصعاب** في موضوعات العلوم الملقنة.)[3]

وقد جاءت كلمة" صَبْرًا "نكرة في سياق النفي لتفيد عموم الصبر المنفي، كما أن **نفي" استطاعة الصبر** "يدل على أنه لو تجشّم موسى وتكلّف أن يصبر لم يطق ذلك، فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه وأبلغه.

ويُجلي الإمام القرطبي العذر الكامن وراء هذا العجز البشري عن الصبر، موضحًا طبيعة النفس الإنسانية بقوله : "وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب"؛ لِيُبين أن عدم الصبر هنا كان نتيجة طبيعية لغياب الحكمة الخفية عن عين الرائي[4].

وفي قوله (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) (76) وفي هذا المقام، تمثّل الحياءُ نبي الله موسى ـــعليه السلامـــ من صاحبه الخَضِر، بعد أن تتابع منه العجَلُ وقلّة الصبر في الموقفين الأوّلين؛ فرفع الحَرَج عن صاحبه، وأعفاه من مشقّة احتماله وصحبته إن هو عاد إلى الإنكار مرّة أخرى.

والمتأمّل في مسار هذه الرحلة يجد عذرًا لموسى ـــعليه السلامـــ في تفاوت إنكاره؛ ففي المرة الأولى (خرق السفينة) كان عذره مبنيًّا على احتمال الخطأ البشري؛ إذ حكَم بظاهر الأمر واسترسل في اللوم دون التثبُّت من مآلات الفعل، وهو أمرٌ يمكن تداركه بالتعلم والمدارسة والتدريب على الصبر والتأني. أما في المرة الثانية (قتل الغلام)، فكان إنكاره أشدّ وموقفه أقوى؛ لأنه شاهد جريمة مكتملة الأركان والتفاصيل أمام عينيه، ولا يبدو في ظاهرها إلّا تحقيق النتيجة الإجرامية المحضة، ومثل هذا الموقف يعزّ على أولي العزم من الرسل تحمُّله أو السكوت عنه. فإذا ما حصلت

[1]) أمجد الساري : صراع العقل والعاطفة لمن ترجح الكفة https://1-a1072.azureedge.net/blogs/2018/6/6/
[2]) تفسير الألوسي ج11 ص 351
[3]) التحرير والتنوير ج1 ص 2563
[4]) تفسير القرطبي ج11 ص 17

الثالثة وقد حصلت (بناء الجدار)، فإن موسى يعفي نفسه مسبقا من المتابعة قبل أن يعفيه صاحبه ، صيانةً لعقله وقلبه مما يشاهده من أعاجيب القَدَر الكوني التي لا يحيط بها علمه الظاهر.

قوله (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) تجلّت صورةُ الحاجة الإنسانية ؛ إذ ألمّ بعبدي اللهِ الصالحَيْنِ –موسى والخضر عليهما السلام– عناءُ السفر ، وإعياءُ الجوع الشديد، ونفادُ الزاد وبلوغ النصب ذروته ، فضاق بهما السبيل ولم يبقَ لهما طاقةٌ على كسبٍ أو عمل. وفي مثل هذه الحال الحرجة، شرع الحقُّ سبحانه لعابر السبيل المنقطع حقَّ الضيافة، ورخّص له في المسألة لدفع غائلة الهلاك، فهما ضيفان شرعًا على أهل تلك المحلّة، يطلبان ما يسدّ الرمق لا ما يوجب الترف.

وممّا استقرّ عليه الفقه الإسلامي : أنّ المسألة وعرْضَ الحاجة على الخلقِ أصلٌ حظره الشرع صيانةً لكرامة المسلم، ولم يُبحه إلا في أحوالٍ استثنائية ضيّقة وضوابطَ محددة على سبيل الحصر والاضطرار؛ رعايةً لمصالح العباد الضرورية وتأمينًا لأهل الحاجة . ومن ذلك ما دلّ عليه التنزيل الحكيم في شأن مصارف الزكاة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 60).

وقد جاءت السنّة النبوية المطهرة عاضدةً لهذا الأصل ومبيّنةً لشرائطه؛ فقرر النبي ﷺ حُرمة الصدقة على المستغني بماله أو بقوته، إلا إذا انقطع سبيل وصوله لماله ، قائلًا: «**لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، إلا في سبيلِ اللهِ، أو ابنِ السبيلِ، أو جارٍ فقيرٍ يُتَصَدَّقُ عليه فُيُهدِي لكَ**»[1]. وحثّ الشارع الحكيم العبادَ على التعفّف والاعتمادِ على النفقة الشريفة الناتجة عن كدّ اليمين وعرق الجبين، ونفّر من ذلّ السؤال ما وُجد إلى الكسب سبيل؛ تحقيقًا لسيادة الأمة وعزة أفرادها، كما في قوله ﷺ: (**لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ**) [2]

ويظهر هذا المنهج التربويّ النبويّ جليًّا في توجيهه ﷺ لمن أصابته فاقة وله قدرة على العمل، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ. قَالَ: ائْتِنِي بِهِمَا. قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ. فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا. فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ» [3].

فدلّت هذه النصوص المتضافرة على أن الشريعة الغرّاء تَسُدُّ ذريعة التكفّف، وترفع من شأن العمل، ولا تأذنُ في السؤال إلا لضرورةٍ قاهرة لا محيد عنها.

---

1) رواه أبو داود وصححه الألباني
2) رواه البخاري ج8 ص 197 رقم 2201
3) رواه أبو داود ج4 ص 449 رقم 1398

قوله (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) (77) نلمح أدبًا في الخطاب؛ فلم يُصرّح موسى عليه السلام بالاعتراض المباشر على صنيع الخضر، بل سلك مسلك التلميح والتعريض عبر قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. وكان هذا التلميحُ التفاتةً ذكيةً ولطيفةً منه، مدفوعةً بالحاجة والمسغبة، وطمعًا في جُعلٍ يسيرٍ يستعينان به على وعثاء السفر، ويتبلّغان به في مسيرتهما.

وهكذا يتجلّى لنا كيف أن التطلّع إلى المتاع العاجل — وإن كان ضرورةً لحفظ الحياة والبقاء — قد يغدو حجابًا يحول دون استكمال نيل العلم والاستمساك بالصبر. فلم يكن طمع موسى عليه السلام استكثارًا من الدنيا، بل كان قوامًا لزاد المسافر، وما يسدّ الرمق فحسب. فقد اجتمعت عليهما لغوب السفر، وضيق ذات اليد، وقسوة أهل القرية الذين أبوا أن يضيفوهما. فلم يجد موسى عليه السلام بدًّا من السعي وراء كسبٍ مشروعٍ لقاء عملٍ بَذلا فيه جهدًا، إذ إن إقامة الجدار المشرف على السقوط قد وفّرت لصاحبه منفعةً وإثراءً يستحقان العوض.

بيد أن موسى عليه السلام كان محجوبًا عن الغيب، جاهلًا بأن الجدار لغلامين يتيمين لا يملكان من حطام الدنيا شيئًا، فلم يتّسع صبره لانتظار الحكمة، وعجّل بطلب الأجر، قبل أن يتريّث ليفصح له الخضر عن سرّ صنيعه، وعن حاجة اليتيمين لمن يحفظ مالهما دون مقابل.

قوله (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) هنا وقع الشرط الفاسخ لعقد الصحبة والمتابعة ، فأضحى الخضر في حل من أن يتبعه موسى ويعلمه مما يعلم من علوم هو أعلم بها منه ، فالعلم له أهله ، وموسى لم يكن أهلا لتحمل وعاء ما لم يعلم ، فعلم الخضر ما يفوق طاقته ، وإن كان أهلا لأن يتعلم علم الشريعة كاملا ، ولذلك صنف البخاري بابا بعنوان (**بَاب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا**) وأورد تحته حديث عَلِيٌّ بن أبي طالب يقول (**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**) [1] قال بدر الدين العيني الحنفي (أي كلموا الناس بما يعرفون أي بما يفهمون والمراد كلموهم على قدر عقولهم)[2].

ومما لا تدركه العقول قدر الله تعالى ، إذ يقول النبي ﷺ (**إذا ذكر القدر فأمسكوا**)[3] ، قال الشيخ عبد الله الطوالة (فإذا كان موسى عليهِ السلامُ كليمُ الرحمن ورسولٌ من أولي العزم الكرام، إذا كان لم يُطِق صبرًا بأفعالِ الخضر عليه السلام، والذي فَعلَ ما فَعلَ بأمرِ اللهِ تعالى، وليسَ مِنْ قِبلِ نفْسِهِ، فكيف بغيره يصبر على قضاء الله وقدره ، فالقدر سِرُّ اللهُ، وأقدارَ اللهِ تعالى فوقَ إمكانياتِ العقلِ البشري، وأكبرُ من كلِّ تصوراته)[4]

فعلي المؤمن أن يثق بلُطف ربه ، ولو لم تنكَشِف حِكْمةُ القَدرِ، فعقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك ذلك ، وإنما عليه أن يتيقن بأنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ :﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود: 115) [5]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 217 رقم 124
[2]) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج3 ص 417
[3]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج2 ص 96 رقم 1428 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 55 رقم 546
[4]) الشيخ عبد الله محمد الطوالة : إنك لن تستطيع معي صبرا ، رابط الموضوع/https://www.alukah.net/sharia/0/140696 :
[5]) الشيخ عبد الله محمد الطوالة : إنك لن تستطيع معي صبرا ، رابط الموضوع/https://www.alukah.net/sharia/0/140696 :

(يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا)[1]، فلو صبر وقص علينا من أخبارهما لجاز لهذه الأمة أن تتلقى هذا العلم الذي عند الخضر لكنه لم يكن لموسى ولا لمحمد عليهما السلام.

قوله (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (78) وعد الخضر موسى بأن يؤوّل-يفسر- له خبر ما حصل من أمور لم يستوعبها عقله ، وذلك لأنه لو تركه على هذا الحال لجعله في حيرة من أمره ، فأجابه قبل أن يسأله ليشفي صدره مما هو فيه ، وفي ذلك خلق وأدب عظيم .

قال العلماء "**لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة**[2] ، وهذا حُكي فيه الاتفاق؛ لأن فيه تكليفَ ما لا يُطاق"[3]، ولم يلبث برهة حتى فصل له الأمر كله دون أن يضطره إلى سؤال أو يتركه في شوق ، وفي ذلك دليل على عدم جواز التلاعب بمشاعر الناس وإحساسهم ولو من باب التشويق أو المزاح .

قوله (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ **فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (79) نسب الإرادة لنفسه ، أي أراد هو أن يفعل ذلك ، ما يعني أنه تعامل مع المسألة بمقتضى علم الشريعة ، ومبادئ الشريعة تقضي إزالة الضرر الأكبر بالضرر الأدنى ، فمنع اغتصاب السفينة بإحداث خرق فيها يعيبها ، وهو أمر يمكن إصلاحه بعد ذلك ، وهكذا يكشف الله لعباده الحكمة من قضائه وقدره .

ويبدو من القصة أن علم الخضر بأحوال السفينة وظروف الخطر المحدق بها ليست من أمور الغيب ، فحكاية الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبا معروفة بين الناس ، لأنه فعل ذلك سابقا ، وأما كون السفينة لمساكين فهذا يبدو من هيئتها ، فذلك العلم الذي بنى الخضر عليه تصرفه كان نتيجة لفطنته واجتهاده ونظره وتأمله وليس بحاجة لوحي يطلعه على ذلك ، ففي ذلك آية للمتوسمين .

ولنتأمل خرقُ السفينةِ إذا أسقطناه على أحداثِ حَياتِنا، فهو قد يمثلُ فَشلًا لأحدِ مَشاريعنا أو تلفًا لأحدِ ممتلكاتنا، فهو في الظاهِرِ خَسارةٌ مَاديةٌ ، لكِنَّها في الحقِيقَةِ خسارةٌ تَمنَعُ شَرًّا أكبرَ منها ، كما في قوله ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (النور: 11)، فما ظنَّهُ موسى عليه السلام إسَاءة لمن أحسَنوا إليهما ، هو في الحقِيقَة عينُ الخيرِ والإحسانِ إليهم، فما أحدثه الخضر عليه السلام في السفينة من عيبٍ عَطَّلها، كانَ هو السببَ في وبقائها في مُلكِ أصحابها ليشرعوا في إصلاحها فيما بعد زوال الخطر .

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 89 رقم 4385

[2]) وقد نقل السمعاني الاتفاق على ذلك ، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله ج1 ص 279 ، أنوار البروق في أنواع الفروق ج5 ص 372 ، الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي ، الإحكام للآمدي ج1 ص 245

[3]) غاية السول في علم الأصول على مذهب الإمام المبجل والحبر المفضل أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تأليف جمال الدين يوسف بن حسين بن عبدالهادي المقدسي الحنبلي، تحقيق: بدر بن ناصر بن مشرع السبيعي، ص ٥.
رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/0/156106/

قوله (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) (80) وتلك رحمة من الله بالوالدين المؤمنين ، وذلك في مبدأ الأمر هو تقدير من الخضر بما علم من أمرهم ، ولم يكن بعد قد تصرف في المسألة إلا بعدما انكشفت له إرادة الله القدرية بأن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، فوافقت إرادة العبد إرادة الله ، فتصرف على وفق ذلك ، وليس لأحد أن يفعل ما فعله الخضر بزعم أنه يعلم إرادة الله الكونية ، لقوله سبحانه (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل/65) ، فهذا علم اختص الله به عبده الخضر ولم يعلمه لنبيه موسى عليه السلام ، فهو علم لا يعلمه إلا بعض الأنبياء ، ولا نبي بعد محمد ﷺ .

ولعل الله أطلع الخضر على الضرر الذي قد يصيب الصالحين بطريق الإلهام لأنه نسب الخشية لله وله بقوله (فخشينا) ، فكان ذلك الكشف في تقدير الضرر قد حصل له عن طريق الإلهام وليس بالوحي –في أول الأمر – ، ولم يهم بقتله إلا بعد أن صدر الأمر الإلهي بطريق الوحي ، وبذلك يمكن التمييز بين الوحي والإلهام ، فالوحي أمر الله المباشر لأنبيائهم ، أما الإلهام فهو طمأنينة في القلب لفعل معين لا يخالف قواعد الشريعة أو الخوف من حصول شيء يترتب عليه ضرر ، فقوله (فخشينا) إلهام ، فعَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ **مُحَدَّثُونَ** فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ ، قَالَ ابْنُ وَهْبٍ تَفْسِيرُ **مُحَدَّثُونَ مُلْهَمُونَ**)[1].

والضرر الذي خشي "الخضر" من وقوعه كما قال ابن جزي (أن **يحملهما حبه على اتباعه أو يضر بهما لمخالطته مع مخالفته لهما**)[2]، والمعنى أن الله يسخر الصالحين للصالحين ، **ويبعد عنهم الفاسدين ليزدادوا صلاحا** ، لما في الخلطة للفاسدين من أثر سيء على أهل الدين ، هذا هو الأصل وليس بشرط كما في قوله سبحانه (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة/124) ، وقوله (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان/74) .

وفي ذلك معنى لابد من الانتباه إليه وهو **أن الخلطة بأهل السوء تضر أهل الصلاح** حتى لو كانوا أقربائهم من الأبناء أو الآباء أو الزوجات ، قال ابن القيم (وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من **المخالطة بمقدار الحاجة** ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر :–

أحدها من مخالطته **كالغذاء** لا يستغنى عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام ، وهم العلماء بالله تعالى والقائمين بأمره ،الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله .

القسم الثاني من مخالطته **كالدواء** يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغنى عنه مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والإستشارة والعلاج للأدواء ونحوها .

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 118 رقم 4411
[2]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 963

القسم الثالث وهم من مخالطته **كالداء** على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ،ومنهم من كانت مخالطته كوجع الأسنان

القسم الرابع من مخالطته **الهلاك كله** ومخالطته بمنزلة **أكل السم** ،وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) [1]

قوله (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) (81) هنا نسب الخضر الإرادة له ولله تعالى ، فقوله (فَأَرَدْنَا) يدل على أنها إرادة مشتركة ، فهي تعني إرادة الله الكونية ، وقد وافق ذلك ما علمه الله للخضر من علوم ليطلع على إرادة الله الكونية التي أحدثها في الغلام بقتله .

وهنا لابد من التأمل في سنة الاستبدال ، **فالله تعالى ينقي ذرية هذين المؤمنين** ، ويفعل ذلك سبحانه لأنهما استسلما لأمر الله في الغلام الذي قتل ، **فمن رضي بقضاء الله أبدله الله خير مما ابتلي به** ،قال رسول الله ﷺ (عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)[2] ، وهكذا يدبر الله الأمر لهذا الغلام فيميته قبل أن يطغى أو يرهق والديه كفرا ، وكذلك يدبر الأمر لأبواه المؤمنين فيكرمهما بذرية طيبة خير مما ابتليا به ، كل ذلك وهما لا يدركان السر فيما حصل لهما ، والحكمة من قضاء الله وقدره.

قوله (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) (82) هنا نسب الإرادة لله تعالى ، فهو وحده الذي يعلم الحكمة في أن يؤجل اكتشاف الكنز للغلامين ، والحكمة من استخراج كنزهما عندما يبلغا سن الأشد ، وليس للخضر أي علم في ذلك ، كما ورد في الحديث (فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ)[3]، وهو ما يعني أن علم الله تعالى لا ينفد ، ولا يدركه وعاء حتى الخضر ، وتلك العلوم —والتي احتفظ الله سرها لنفسه– من شأنها حفظ حق هذين اليتيمين ، وذلك كرامة لأبواهما الصالحين ، يقول سبحانه (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) (النساء/9) .

فبناءَ الجِدارِ وحَبسَ الكنزِ هو تمثيل لتأخير الرزق ، وليس ذلك إلا عين المصلحة وكَمالُ التَدبيرِ، قال رسول الله ﷺ« **لاَ تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ** هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ مِنَ الْحَلاَلِ وَتَرْكِ الْحَرَامِ »[4]، فبناءُ الجدارِ وإن أَخَّرَ حُصولَ الغُلامينِ على الكنز ، فقد منع اللصوص والمختلسين الوصول إليه ، وبذلك ظل المال في حرز من إساءة الغُلامينِ أنفسهم التصرف فيه ، فهما لا يزالان قاصرِيْنِ ، وليسا براشدين .

---

[1]) بدائع الفوائد ج2 ص 499
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 38 رقم 4021 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 373 رقم 3256
3) رواه مسلم سبق تخريجه
[4]) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج5 ص 264 رقم 10707 والحاكم 4/2 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة6/108رقم2607

قوله (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ..) أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، فمن تدبَّرَ حِكمة الله في المنعِ والعَطاءِ، عرفَ أنَّ **المنعَ هو عينُ العطاءِ**؛ قال تعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 216).

قوله (..وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) **لكني أمرت به ووقفت فيه**، قال ابن كثير (وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام)[1] .

قال ابن عاشور (واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة ، فأول ما أسوه منها أن الخضر لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا، وأن العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنه إلهاما، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعا لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه..الخ) ، والأية قاطعة الدلالة في نفي ذلك كله وأنه كان نبيا ، فعَنْ قَتَادَة، فِي قَوْلِهِ (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنِ امْرِي**) ، قَالَ: **كَانَ عبداً مأموراً مضى لأمر الله**"[2] .

قال ابن كثير أي (ما فعلته عن نفسي)[3]، بل إن اجتهاد الخضر في هذه المسائل الثلاث لم يكن إلا في مسألة واحدة

ففي خرق السفينة قال (فأردت أن أعيبها) ، يعني أن ذلك كان اجتهاد شرعي منه مبني على علوم الشريعة التي اشترك فيها موسى والخضر معا ، لكن الخضر تميز على موسى فيها أيضا .

وأما في المرة الثانية فكان اجتهاد منه شرعي بني على إطلاع الله له على تقديره الكوني –وقد وافقت مشيئة العبد مشيئة الله الكونية–كما في قوله (فأردنا أن يبدلهما ربهما خير منه زكاة وأقرب رحما) .

وفي الثالثة كان فعله بأمر من الله دون أي اجتهاد شرعي ، ولا علم كوني في علة ذلك ، لقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) .

قوله (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) أي ما مضي من أحداث تصرفت فيها على النحو السالف ذكره لم يكن من أمري ، وإنما هو تقدير من الله الرحيم بعباده على ما ظهرت حكمته ، وحذفت التاء في قوله (تسطع) للدلالة على أن المطلوب منه قليل من الصبر ، لكنه لم يفعل ، فلم يصبر حتى قليلا ، ولو فعل لحدث كما قال النبي ﷺ (**وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ**) [4].

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 187
[2]) تفسير ابن أبي حاتم 228/9
[3]) تفسير اب كثير ج5 ص 179
[4]) رواه مسلم ج12 ص 90 رقم 4386

ذلك أن تدبير الله عجيب ، وتدبيره حكيم ، ويتعذر علي العقل البشري أن يستوعب كامل هذه الحكمة ، يقول الشيخ عبد الله الطوالة (فهذه ثلاثُ صورٍ من أعاجيب القدر، يندرُ ألا يصابَ ببعضِها أو كُلِّها بشر

فالصورة الأولى: أن ينكَشِفَ للمصابِ حِكْمَةُ القَدرِ كما في قِصَةِ أصحابِ السفِينةِ

والصورة الثانية : وهي الأغلب ألا ينكَشِفَ للمصابِ حِكمةُ القدر، كما في قِصَةِ الغُلامِ، فأبواهُ لم يَعرِفَا لمَ قُتِلَ ابْنهُمَا، وهذا يتفق مع حكمة الابتلاء

والصورة الثالثة: أن يَسُوقُ اللهُ خَيرًا أو يَصرِفُ شرًّا دُونَ أنْ يدري صاحبه ماذا حدث ، كبناء الجدارِ في قصة اليتيمينِ ، فهما صَغِيرانِ ولم يَعرِفا سِرَّ بناءِ الجدار، وأنَّهُ كانَ على وشكِ السقوطِ، وأنَّ بِناءَهُ سيكونُ سَببًا في حِفظِ الكنزِ المدفون تحته لوقته المناسب، وهذا هو لُطفُ اللهِ الخفِي)[1] .

كم للهِ من لُطفٍ خَفِيٍ *** يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهْمِ الذَّكِي

[1]) الشيخ عبد الله محمد الطوالة : إنك لن تستطيع معي صبرا ، رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/0/140696/ :

المحور الرابع

قصة ذي القرنين

قال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

انتقلت الآياتُ لتسردَ القصةَ الرابعة؛ قصةَ التمكينِ لِمَلِكٍ مسلمٍ طوَّقَ الأرضَ عدلًا، ففتح اللهُ به البلاد، وأخَذَّ لعزّتِهِ رقابَ العباد، مُخضعًا مُلكَهُ لشرعِ الله وسُلطانه. وإذا كانت هذه الخاتمةُ قد جاءتْ مَثلًا سائرًا لتمكينِ اللهِ لعباده في الأرض، فإنَّ فاتحةَ السورةِ بجلالِ قصةِ "أصحاب الكهف" قد جسَّدتْ واقعَ المستضعفينَ في الأرض المعاكسَ له تمامًا.

وما بين فجرِ الاستضعافِ وشمسِ التمكين، تتبدّى قصتانِ هاديتان؛ قصةُ "صاحبِ الجنتين" الذي فُتنَ بزُخرفِ الدنيا وغَرّته الأسبابُ المادية، فاستكبرَ في الأرضِ ولم يَعقِد على اللهِ رجاءه، مبخسًا مقامَ المشيئةِ الإلهية.. وقصةُ "موسى والخضر" في طلبِ العلمِ والتماسِ الحكمة.

لتلتئمَ هذه القصصُ الأربعُ في عِقدٍ فريد، واصفةً رحلةَ السالكِ المهتدي من مضايقِ الاستضعافِ إلى آفاقِ التمكين، شريطةَ أن ينجو من فتنِ الدنيا المادية، ويَتَسلّحَ بنورِ العلمِ واليقين.«

وقد جاء ذكر قصة ذي القرنين إجابةً على أسئلة أهل الكتاب والمشركين للرسول ﷺ لاختبار نبوته، حيث افتتحها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وتتمثل هوية شخصيته في أنه ملك عادل وعبد صالح مكن الله له في الأرض، طاف مشارق الأرض ومغاربها، واختلف العلماء في سبب تسميته؛ فقيل لأنه بلغ قرني الشمس (المشرق والمغرب)، وقيل غير ذلك، ولم يكن ملكه مجرد سيطرة عسكرية، بل كان تمكيناً قائماً على المعرفة، والعدل، واستخدام العلم والهندسة لإعمار الأرض ونصرة المستضعفين ، وتتلخص قصته في ثلاث رحلات تاريخية كبرى؛ بدأت بالتوجه نحو مغرب الشمس، ثم مشرقها، وانتهت برحلته بين السدّين حيث شيّد أعظم حصن هندسي لحماية البشرية من إفساد يأجوج ومأجوج ، وهكذا أنقذ البشرية.

قوله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) (83) جاء سؤال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ عن ذي القرنين من باب التعسف والامتحان، والاستطراد في تتبع أخبار الغابرين؛ بغية إعجازه ﷺ وإيقاعه في الحرج. بيد أن الإرادة الإلهية أبت إلا أن تجيبهم، لا نزولًا عند رغبتهم المعنتة، بل لما في طيات هذه القصة من مصالح وهدايات للأمة. وفي هذا السياق، يقتنص السياق القرآني الفرصة ليقلب المحنة إلى منحة، فيأمر نبيَّه بأن يجيبهم بوحي يوحى، مبينًا أن ذًا القرنين عبدٌ مكن الله له في الأرض.

وقد وجّه الإمام ابن عاشور هذا المعنى بقوله ("**وقد أذن الله لرسوله أن يبيّن من تفاصيلها ما يكون موضعاً للعبرة، ومثاراً للتأمل في شؤون الصلاح والعدل**، وعجيب صنع الله في تقلب أحوال الخلق .ولم يتجاوز القرآن في حديثه عن هذا الرجل ذِكر لقبه الذي اشتهر به، فأعرض عن تعيين اسمه، أو تحديد بلاده وقومه؛ إذ إن هذه التفاصيل تقع في شرفات التاريخ ومصنفات القصص، وليست من المقاصد الأسمى للقرآن الكريم. لذلك، اقتصر البيان الإلهي على ما يورث الأمة عبرةً حكيمة، أو يرسخ فيها قيمة خلقية، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾. فالمقصد الأعلى والغاية المبتغاة هي الاعتبار والادكار، لا التزيّد في سرد تفاصيل تاريخية لا تنبني عليها هداية".)[1].

وفي قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) يفتتح الحق سبحانه مسيرة هذا العبد الصالح ببيان أصل تمكينه؛ ويشير الإمام الجزائري –رحمه الله– إلى **فلسفة التمكين وسنة الأخذ بالأسباب** بقوله :(هذه بداية الحديث عنه فأخبر تعالى أنهُ مَكَّن في الأرض بالملك والسلطان، أعطاه من كل شيء يحتاج إليه في فتح الأرض ونشر العدل والخير سبباً فيها يوصله إلى ذلك) [2].

ومن هذا التقرير الإلهي تتجلى للمتدبر **سنة الله الجارية في استخلاف عباده وتمكينهم**، وهي سنة محكومة بالحقائق التالية:–

- **التزام الشرائط** :إن الله سبحانه لا يورث عباده الصالحين الأرض إلا إذا التمسوا شرائط التمكين، وأخذوا بآلياته المتاحة. إن الوراثة الإلهية للأرض لا تتنزل على العباد الصالحين هبةً معطلة، بل هي ثمرة مرتهنة بالتماس شرائط التمكين، والأخذ بآلياته المتاحة في واقع الحياة.
- **بذل الوسع لا إدراك الغاية** :لا يشترط في العباد إحاطة الأسباب كلها؛ فذلك خارج عن طوق البشر، وإنما الواجب عليهم بذل الجهد، واستفراغ الوسع، والتوجه بالدعاء إلى مسبب الأسباب.
- **العلم بأن الفاعلية من الله وحده** :إن الأسباب في ذاتها عقيمة لا تثمر إلا إذا أودع الله فيها فاعليتها؛ فالله قادر على تمكين ذي القرنين بكلمة "كن"، لكنه أراد تعليم البشرية أن إعمال الأسباب والسعي فيها هو في ذاته عبادة وقربة، وتجسيد عملي لقوله تعالى(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) فتقديم العبادة على الاستعانة يؤكد أن نيل المعونة الإلهية مشروط بوفاء العبد بعبوديته، وسلوكه الطريق الموصل إلى مرضاة الله عز وجل.

---

[1]) التحرير والتنوير ج 15 ص 121
2) أبو بكر جابر بن موسى الجزائري أيسر التفاسير ج2 ص 397

وفي قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) **يستبين ماهية السبب** بأثر منير عن ابن عباس رضي الله عنهما إذ قال : "علماً"[1] ، وهو ما أيده ابن جزي بقوله :"أي علماً وفهماً، يتوصل به إلى معرفة الأشياء، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو غير ذلك".[2] فالسبب الحقيقي يبدأ من وعي العقل وفقه الواقع، لتنطلق بعده القدرة المادية.

ثم ترسم الآيات معالم الحركة الفاعلة لهذا الملك العادل؛ فلم يكن ملكًا مستكينًا في قصره، بل كان دائم الحركة والجهاد، يضرب في الأرض يمنة ويسرة، ويجوب آفاقها شرقًا وغربًا. وكأنه بذلك قد استوعب كل سبيل متاح، وطرق كل باب مشروع، ليضرب للأمة أروع الأمثلة في السعي الدائب لبسط العدل، وإعلاء كلمة الحق في أصقاع المعمورة.

ومن الأسباب التي حققت له التمكين فضلا عن العلم النافع وقوة القيادة الرشيدة ، معاونة الشعب له ، وهو ما استبان من تفاصيل القصة في بناء السد وقيادة الشعب في ذلك ، فهو بدونهم عاجز وهم بدونه أعجز ، وكلاهما بمعاونة بعضهما البعض يعينهم الله على ذلك .

من هنا ندرك أن **الأخذ بالأسباب هو سنة الأنبياء والصالحين، والسبيل الشرعي للتمكين في الأرض؛ مع ضرورة عدم تعليق قلوبنا بالنتائج ذاتها** .فالله سبحانه هو الذي يربط النتائج بأسبابها ويُجريها بمشيئته، وليست الأسباب هي التي تخلق نتائجها بذاتها. لذلك، يتجلى تمام العبودية في أن نعمل لله، ونأخذ بالأسباب امتثالاً لأمره، ثم نتوكل عليه بقلوبنا متبرئين من حولنا وقوتنا، ونرضى بعد ذلك بقضائه وقدره، سواء تحققت غاياتنا الدنيوية أم لم تتحقق.

في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ دلالةٌ قاطعةٌ على أنَّ المكلفَ مأمورٌ بالسَّعي والعمل، ومطالبٌ بامتثال الأسباب المتاحة والشرعية التي جعلها الله أمارةً على المسبَّبات، دون أن يكونَ مرتهنًا بتحقيق النَّتائج أو ضامنًا لثمراتها.

فالمسؤولية الإنسانية تقف عند حدود بذل الجهد واستفراغ الوسع، في حين ينفرد الحق سبحانه وتعالى بملكوت النتائج وتدبير العواقب. ويتجلّى هذا الأصل الأصيل في قصة الخليل إبراهيم –عليه السلام– حين أُمِر بالآذان في قفار الصحراء، فقيل له: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقد ساق الحافظ ابن عباس –رضي الله عنهما– في بيان هذا المشهد مأثرةً جليلة؛ إذ قال: «لما فرغ إبراهيمُ من بناء البيت قال: ربِّ قد فرغت، فقال: (أذِّن في الناس بالحج)، قال: ربِّ وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليَّ البلاغ، قال: ربِّ كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس، كُتب عليكم الحج؛ حج البيت العتيق، فسمعه مَن بين السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون؟!).

ومِن مِشكاة هذه الهداية ندرك اليقين الآتي:-

- **سُنَّة الأنبياء والتمكين** :إنَّ الأخذ بالأسباب هو ديدن الأنبياء، ونهج الصالحين، والسبيل الأوحد للتمكين الاستخلافي في الأرض.
- **الفصل بين السبب والنتيجة** :لا ينبغي للمؤمن أن يربط رغبته بالنتائج الدنيوية، فالأسباب لا تخلق مسبَّباتها بذاتها، بل الله هو الذي يرتّب الثمار عليها بمشيئته وحكمته.

---

[1]) الدر المنثور ج6 ص 413

[2]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 964

- **حقيقة التوكل** :إن مقتضى العبودية الحقة أن نعمل لله سبحانه، ونتوكل عليه بقلوبٍ تبرأ من حولها وقوتها، وتَكِل عواقب الأمور إلى بارئها.
- **الرضا بالقضاء** :يتوجّب على الساعي أن يستقبل أقدار الله برضا تام ونفس مطمئنة، سواء تكلّلت جهوده بالنجاح المشهود، أم حالت المقادير دون تحقيق مأربه؛ فالخير كل الخير فيما اختاره الله.

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) أي أبعد جهة تغرب عندها الشمس ، وهذه العين الحمئة هي مكان تدفق البراكين ، وقد اكتشف العلماء أن هذه المنطقة هي أقصى منطقة في الغرب في جزر هاواي بأمريكا ، والغريب أن داخل هذه العين الحمئة يوجد معها ماء .

يقول الدكتور الكحيل (يمكن أن نقترح بأن عبارة (مَغْرِبَ الشَّمْسِ) تعني أبعد نقطة على اليابسة تغرب عليها الشمس.. وهي جزر الهاواي، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فإن القرآن يكون بذلك قد سبق العلماء لاكتشاف تلك المناطق البعيدة والتي لم تكتشف إلا في العصر الحديث)[1].



هناك فتحة نشطة في جزر هاواي تدعى Halemaumau تتدفق منها الحمم المنصهرة باستمرار خلال النهار والليل، ولكن خلال النهار نشاهد الدخان فقط..بعد غروب الشمس تبدأ هذه الفتحة النشطة بالتلون حيث يتلون الدخان المتدفق بلون الشمس، وتتضح الألوان أكثر عند مغيب الشمس تماماً أي عند الغسق.. فتظهر وكأنها عين ملتهبة.

[1] (https://www.kaheel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-20-16/1968-2016-09-05-15-26-58




North Pacific
Ocean
أقصى الغرب
South Pacific
Ocean

قوله (وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) (88) وهؤلاء هم أهل المغرب ، لم يكونوا على الإسلام ، ولم يقيموا العدل على أرضهم ، فاستحقوا أي يُحكم على الظالمين منهم بالعذاب ، وعلى المحسنين منهم بالإحسان .

قال ابن كثير (كان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه –إلى العدل وليس الإسلام فلا يكره أحد في دخوله – وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم –كغنيمة حرب –، واستخدم من كل أمة –آمنت معه – ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم)[1] .

وابن كثير وإن روى هذه الآحداث عن بني إسرائيل ، فإن في السنة النبوية ما يؤكد صحتها ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **(عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ)**[2] ، وفي رواية (وهم كارهون)[3]، أي أنهم كانوا أعداءا للمسلمين ثم أسرهم المسلمين في سلاسل ، فرأوا أخلاقهم ومعاملتهم الحسنة فدخلوا الإسلام ، فكان الأسر سبب هذا الفضل عليهم ، **وهذا يدل على تدبير الله تعالى وقدره الكوني الذي يكون دائما رحمة لعباده المؤمنين** ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَضْحَكَكَ قَالَ **قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ)**[4]

وفي رواية (قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: **قوم من العجم يسبيهم المجاهدون فيدخلونهم الإسلام**"[5].

قال سيد قطب (هذا هو دستور الحكم الصالح ، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء . . وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً ، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً ؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم ، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون...!)[6] .

قوله (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (89) أي **استمر في اتباع الأسباب** الموصلة للنصر والتمكين ، فالمضي في طريق **الجهاد** في سبيل الله هو **سبب التمكين** في الأرض

يقول حسن البنا (**ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد**، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها، وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها، وجزالة الثواب للعاملين "**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**" ، " إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، **وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ** "،" إن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، **ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات** "[7].

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 193
[2]) رواه البخاري ج10 ص 200 رقم 2788
[3]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 283 رقم 8103 ، وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 743 رقم 7430
[4]) رواه أحمد ج45 ص 173 رقم 21178 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة مختصرة ج7 ص 75 رقم 2874
[5]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 283 رقم 8102
[6]) في ظلال القرآن ج5 ص 79
[7]) للمزيد اقرأ دور الجهاد في فكر البنا للدكتور عبد الله فرج الله - مدونات : https://www.ajnet.me/blogs/2016/12/20

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا)(90) أي سار في الجهة المعاكسة لمغرب الشمس ، حيث ذهب لمطلعها ، وفي ذلك كناية على أنه جاب الأرض من أولها لآخرها ، وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ انطلقوا بعد وفاته إلى ربوع الأرض ففتحوا مصر وشمال أفريقيا وبلاد السند والهند ، ودفنوا فيها .

وفي تعريف مطلع الأرض ، قال الطبري (هي أرض لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء ، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه أو يسربون في الأسراب)[1]

روي عن قتادة قال (بلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليهم بناء، فكانوا يدخلون في أسراب لهم إذا طلعت الشمس، حتى تزول عنهم، ثم يخرجون إلى معايشهم) [2] .

يقول الدكتور محمد غلوش (والأرض التي بتلك المواصفات هي **أرض جليدية** ، أي يغطيها الجليد صيفا وشتاء ، ولكن في الصيف تكون طبقة الجليد رقيقه جدا ولذلك لاتسمح طبيعة هذه المنطقة بإقامة أي مباني فأي مباني تقام فإنها تغطس وتغرق في الجليد الهش مع دخول فصل الصيف، ولذلك فإن من كان يعيش في هذه المناطق لم يكن يسترهم من الشمس بيتا أو سقفا أو شجرا ، ولذلك قال الله عنهم لم نجعل لهم من دونها سترا) [3]

ويقول الدكتور محمد غلوش (والمكان الذي يتصف بهذه المواصفات هو القطب الشمالي وبالتحديد سيبيريا ، ولم يرد في الآية مشرق الشمس ، لأن الشمس هناك لا تشرق ، وإنما تطلع لمدة ستة أشهر باستمرار دون غروب أو شروق ، ولما كان الليل يستر ضوء الشمس ، وإذ لا يوجد ليل في هذه المنطقة في فصول الصيف ، وإنما هو نهار دائم ، لم يكن لهم من دونها سترا ، وبالتالي لايوجد ستر لهؤلاء الناس يحميهم من اشعه الشمس ليل نهار) [4] .

قوله (..كَذَلِكَ..) أي كما توجّه ذو القرنين بجيوشه نحو مغرب الشمس، كرر صنيعه وارتحل نحو مشرقها). فلم يهدأ له بال، ولم يستقر في ملكه مكتفياً بما حاز، بل ظل يطوف الأرض شرقا وغربا؛ غايته الأسمى نشر دعوة الله وإعلاء كلمته في العالمين. وفي هذا السعي الدؤوب تجسيدٌ حيٌّ لقول رسول الله ﷺ (**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**)[5]

قوله (..وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا..) (91) قيل أن المراد أن الله يعلم نية ذي القرنين من حملاته العسكرية ، وأنه يبتغي منها وجه الله تعالى ولا يبتغي إضافة ملكا لنفسه . وهذا تكريم لذي القرنين بأن الله أحاط بأخباره وعدله وصحيح نيته وإمكانياته العسكرية وقدارته الإدارية ورعايته وحفظه لرعيته

ولذلك قيل أن المعنى تضمن أي (علماً بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب)[6]

وقيل معناه (وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من **الصلاحية** بذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره)[7]

---

[1]) تفسير الطبري ج18 ص 99
[2]) تفسير الطبري ج18 ص 100
3) دكتور محمد غلوش : قراءه متأنيه في قصه ذو القرنين وياجوج وماجوج
4) دكتور محمد غلوش : قراءه متأنيه في قصه ذو القرنين وياجوج وماجوج moh.ghalwash@gmail.com
[5])رواه مسلم ج13 ص 164 رقم 4831
6) البغوي ، مختصر تفسير البغوي معالم التنزيل لعبد الله بن أحمد ج5 ص 36

وقال ابن إسحق (وكان من خبر ذي القرنين أنه **أوتي ما لم يؤت غيره، فمدت له الأسباب** حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الارض ومغاربها، لا يطأ أرضا إلا سلط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شئ من الخلق)[1].

فلكل مهمة من مهام الدعوة الرجل المناسب لها ، وذلك مثلما أحاط النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه يوم خيبر ، إذ قال النَّبِيُّ ﷺ (يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ **ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ** وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)** [2].

قوله (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (92) أي مضي في طريقه ينشر دعوة ربه يمينا ويسارا ، ولا يبالي ، وهكذا يدل التكرار في كل مرة على كثرة سيره في أرض الله واتباع كل السبل لنشر الإسلام بين الناس ، **فلا يحول بينه وبين نشر دعوته سهول ولا جبال ، ولا براكين ولا ثلوج ، فما من أرض فيها أناس إلا وانطلق بحملته لينشر دعوته** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ)[3]

وهذا ما فهمه صحابة النبي ﷺ ، فبعد وفاته ﷺ إذ انطلقوا في الأرض فخرجوا بأمر من أبي بكر زمن خلافته وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وغيره خارج المدينة المنورة لتدعيم الخلافة الإسلامية وتثبيت أركانها ثم لنشر الدعوة خارج الجزيرة العربية في مصر والقيروان والمغرب حتى بلغوا الأندلس ووسط أفريقيا كما اتجهوا شرقا نحو العراق والفرس (إيران) وجاء من بعدهم فاكملوا المسيرة حتى وصلت الدعوة الإسلامية إلى الهند , وهكذا دفن كثير من الصحابة إن لم يكن أغلبهم خارج المدينة المنورة لا لشيء إلا لأجل إيصال هذه الدعوة المباركة .

ويوضح الجدول التالي أبرز مدافن الصحابة في كثير من الدول العالم المتفرقة

الدولة / المنطقة	اسم الصحابي رضي الله عنه	موقع المدفن والتفاصيل التاريخية
مصر	عمرو بن العاص	دُفن في مقابر المقطم بالقاهرة.
	عقبة بن عامر الجهني	دُفن في قرافة المقطم بالقاهرة.
	عبد الله بن حذافة السهمي	دُفن بالمقطم في القاهرة.
	شهداء فتح البهنسا	تضم مدينة **البهنسا بالمنيا)** بقيع مصر) مدافن نحو 5000 من الصحابة والتابعين.
تونس	أبو زمعة البلوي	دُفن في مدينة القيروان ويُعرف مقامه هناك بـ "سيدي الصحبي."
	أبو لبابة الأنصاري	دُفن في مدينة قابس بجنوب شرق تونس.
الجزائر	شهداء معركة تهودة	دُفن القائد **عقبة بن نافع الفهري)** مختلف في صحبته والراجح أنه تابعي ولد في عهد النبي) رفقة عدد من الصحابة والتابعين (مثل أبي المهاجر دينار) في ولاية بسكرة.
المغرب	سويد بن صامت / الفاتحين الأوائل	دخلها بعض الصحابة والتابعين في السرايا الأولى للفتح، وتوجد مقامات تنسب تاريخياً لتابعين عاصروا الصحابة.

---

[7]) تفسير الخازن ج 4 ص 332
[1]) تفسير القرطبي ج11 ص 45
[2]) رواه البخاري ج10 ص 198 رقم 2787
[3]) رواه مسلم ج10 ص 19 رقم 3533

إسبانيا (الأندلس)	حبان بن أبي جبلة	عاصر كبار الصحابة ودخل الأندلس غازياً، وتشير الروايات إلى دفنه قرب الحدود الأندلسية الفرنسية (قرقشونة.)
القسطنطينية (تركيا)	أبو أيوب الأنصاري	دُفن عند أسوار القسطنطينية (إسطنبول الحالية) خلال حصارها الأول.
بلاد السند (باكستان)	سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي	من صغار الصحابة الذين ولدوا في عهد النبي، تولى ثغر السند واستشهد ودُفن في منطقة قصدار (بلوشستان، باكستان).
الهند	عكاشة بن محصن	تذكر الروايات التاريخية في جنوب الهند (تاميل نادو) وفود ودفن صحابة مبكرين لنشر الإسلام عبر التجارة.
السعودية	العشرة المبشرون بالجنة وعموم الصحابة	يضم **بقيع الغرقد** بالمدينة المنورة ومقبرة **المعلاة** بمكة مدافن أمهات المؤمنين وآلاف الصحابة.
الأردن	معاذ بن جبل / أبو عبيدة عامر بن الجراح	دُفنا في أضرحة معروفة في منطقة الأغوار إثر طاعون عمواس.
سوريا	خالد بن الوليد	دُفن في مدينة حمص.
	بلال بن رباح	دُفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق.
العراق	سلمان الفارسي / حذيفة بن اليمان	دُفنا في منطقة المدائن قرب بغداد.
قبرص	أم حرام بنت ملحان	توفيت خلال الفتح الإسلامي الأول للجزيرة ودُفنت في مدينة لارنكا.
أوزبكستان	قثم بن العباس بن عبد المطلب	دُفن في مدينة سمرقند (ويعرف مجمعه بـ "شاه زنده").

قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)(93) كونهم يعيشون بين سدين هو توصيف لبيئتهم الجغرافية المنعزلة عن الأقوام والأجناس غيرهم حتى انغلقوا على أنفسهم لغويًا وثقافيًا، فباتوا لا يفقهون لسان غيرهم ، مما شكّل جدارًا سميكًا وعائقًا أساسيًا أمام وفود هداية الدعوة إليهم.

ومع ذلك، لم تقف العقبات المادية البحتة حائلًا بين ذي القرنين ومراده، فلم تثنه وعورة السدود، ولا صقيع البيئات الجليدية، ولا ثورات البراكين؛ إذ كان ملكًا رساليًا لا يأبه للمشاق الجغرافية في سبيل غايته، ضاربًا في فجاج الأرض لتبليغ دعوة الله، والوصول إلى أقصى بقاعها نصرةً للحق، وتلمسًا للأفئدة المنهكة والبعيدة عن نور التوحيد ليعالجها وينقذها.

أما تباين الألسن واختلاف اللغات، وإن بدا في ظاهر الأمر عائقًا، فهو عقبة مؤقتة تزول بالتدبر وصادق العزم؛ فرغم أن غياب الفهم المشترك عرقل وتيرة الدعوة في بادئ الأمر، إلا أن ذي القرنين لم يستسلم لهذا الحاجز، ولم يتخذ منه ذريعة لإهمالهم أو التغاضي عنهم. ورغم انعدام الرابط اللغوي، فقد احتال بذكائه وحكمته ليجد سبيلًا للتفاهم معهم رغبةً في نفعهم وإصلاح حالهم. وتلك هي الشيمة الأصيلة للحاكم المؤمن؛ الذي إذا مُكِّن في الأرض، وأُوتي من كل شيء سببًا، استشعر أمانة الاستخلاف في خلق الله؛ إذ لو كان زاهدًا في هدايتهم لوجد في اختلاف اللسان عذرًا سائغًا للرحيل، ولكنه جاهد حتى ابتكر لغة مشتركة للتواصل، قيل (إنها كانت لغة الإشارة والرموز التي يُتفاهم بها مع الأخرس)[1]، لتنتصر إرادة الإصلاح على جفاء العزلة.

1) تفسير الشعراوي ج1 ص 5942

قوله (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ **مُفْسِدُونَ** فِي الْأَرْضِ) (94) جاء في تسمية يأجوج ومأجوج عدة معاني : فيأجوج **من أجيج النار** ، **ومأجوج من الموج والمج** ، فهو الماء المضطرب شديد الملوحة والذي يمجه من يشربه فلا يستسيغه ، وتلك المعاني جميعا تبين صفاتهم الغليظة المضطربة [1]

فقوله (**يَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**) [2] أي (يسرعون وينحدرون بكثرة) يوضح هيئة حركتهم المضطربة المائجة كأمواج البحر المتلاطمة التي لا يمكن صدها.

وفي حديث النواص بن سمعان :(فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذَا مَرَّةً مَاءٌ) وجه الدلالة :شربهم لبحيرة كاملة وإهلاكهم للحرث والنسل يشبه تماماً "أجيج النار" التي تأكل كل ما تمر عليه وتتركه رماداً، كما يعكس صفة الغِلظة والجفاف والاندفاع الشديد الذي لا يبقي طعاماً ولا شراباً.

واختلف العلماء هل هم من الجن أم من الإنس ، أم كلاهما علي السواء

فقيل أنهم من نسل آدم ، وقيل هم من الجن وقيل أنهم من الفريقين

والراجح عند الجمهور أنهم من الإنس بدليل أنهم مذكورين ضمن بعث النار مع الإنس في حديث واحد ، والله أعلم بهيأتهم وجنسهم . ، فقد روي عن النبي ﷺ : يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، قَالَ رسول اللهﷺ : (أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوج وَمَأجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ)[3].

كما ورد حديث يدل على نسبهم لنوح عليه السلام ، فعن النبي ﷺ قال(ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك)[4] ، وقد قيل أن يأجوج ومأجوج من طوائف الترك .

وعن عبد الله ابن عمر قال (الجن والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء الجن ، وجزء واحد الانس ، فإذا ولد ولد من الإنس ولد معه تسعة أجزاء من الجن ، والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج ، وجزء واحد سائر الناس)[5].

ومن العلم الواجب بيانه في شأنهم أنهم **حين ينسلون لا يقوى أحد على التصدي لهم** – حتى عيسى ابن مريم يتحصن منهم مثل سائر الناس – غير مرض عضال يفتك بهم من عند الله ، وقد عانى هؤلاء القوم من فساد يأجوج ومأجوج كثيرا حتى حجزهم ذو القرنين عن الناس .

وكلام أهل التأويل في تفسير فسادهم أنهم لم يمروا بشيء إلا أفسدوه ، قال الرسول ﷺ **(وهم من كل حدب ينسلون لا يمرون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه)**[6]

وقد ثبت أنهم يقتلون مَن يجدونه من أهل الأرض من البشر. بدليل قول النبي ﷺ عنهم أنهم (يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَقُولُونَ **لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ** هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[7]

---

1) الشيخ عمر بن عبد الكافي : علامات الساعة الكبرى (خروج يأجوج ومأجوج)
https://www.youtube.com/watch?v=tzwXebYJxLI

2) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228
3) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج1 ص 88
4) رواه الحاكم ج2 ص 595 رقم 4006 وصححه الذهبي وضعفه الألباني
5) كنز العمال ج6 ص 177 ، وهو مخرج في تفسير ابن ابي حاتم ج9 ص 236
6) رواه الحاكم ج4 ص 534 رقم 8502
7) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228

ويهلكون الحرث وكل شيء ، فعن النبي ﷺ (يَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ **فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ**)[1] ، كناية عن شراهتهم في الأكل والشرب ، فإذا لم يكفهم شرب ماء البحيرة كلها في مرة واحدة يمرون عليها ، فمن باب أولى لا يكفيهم الطعام على الأرض ، فيهلكون الحرث والنسل .

قوله (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (94) هذا العرض منهم لذي القرنين على أن يتفقا على إقامة سد يحجز يأجوج ومأجوج ، وفي مقابله خراج – أي ثمار من الأرض – ، والخراج هو جزء من ثمار الأرض ، وعن ابن عباس (خَرْجًا) (أَجْرًا)[2] على أن يبني لهم سدا يحول بين وصول يأجوج ومأجوج إليهم ، فالمشروع هو بناء سد عظيم ، وفي ذلك تأصيل لقاعدة **الأجر مقابل العمل** ، وذلك حتى لو كانت النيات خالصة لوجه الله الكريم ، إلا أن بذل الطاقة والوسع يستنفذ الطاقات والمدخرات ، فكان **لابد من أجر لتعويض ما ستنفذ ليستمر العطاء** ، قال أبو حيان في ذلك (استدعاء منهم قبول ما يبذلونه مما يعينه على ما طلبوا على جهة حسن الأدب إذ سألوه ذلك كقول موسى للخضر (هل أتبعك على أن تعلمني)[3].

وهو ما يؤصل قاعدة شرعية أخرى وهي أن المستهلك لابد وأن يدفع مقابلا لما يأخذ من سلع مدعمة من الدولة ، فليس معنى أنها مدعمة أن تدفع لهم بالمجان ،وإلا اعتاد الناس البطالة وعدم العمل ، حتى أن نبي الله يوسف كان في عام المحنة يعطي الناس من مخزون القمح مقابل السلع التي يأتون بها ويحسن إليهم في الكيل .

وحسنا فعل هؤلاء القوم أن قدموا له جزءا من الخراج مقابل هذا المشروع العام حتى لا يقعوا تحت المسألة ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ ثَوْبَانُ "أَنَا" فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا)[4].

في قوله تعالى (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) تتجلى ملامح وأسس البناء الاقتصادي والشرعي في المجتمعات؛ إذ يلوح العرض السخي من القوم لذي القرنين كمقترح تعاقدي متكامل لإقامة مشروع قومي عظيم يحميهم من طغيان يأجوج ومأجوج وإفسادهم. وقد بذلوا له في مقابل ذلك "الخَرَج" – وهو الأجر أو الجُعل المقتطع من ثمار أرضهم وخيراتهم – تأصيلاً لـ **قاعدة الأجر مقابل العمل**؛ فالنيات وإن خلصت لوجه الله الكريم، إلا أن استدامة العطاء تقتضي تعويض الطاقات المستنزفة والمدخرات الفانية لضمان استمرار البناء والنماء .

وقد لمح الإمام أبو حيان في هذا الطلب لفتة تربوية بارعة، إذ عدّ استفهامهم (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ) دليلاً على سمو أدبهم في استدعاء قبول ما يبذلونه، وملاطفة في العرض تعين على نيل المراد، تماماً كأدب موسى –عليه السلام– مع الخضر حين قال: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ)

---

[1]) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228
[2]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[3]) البحر المحيط ج8 ص 3
[4]) رواه أبو داود ج4 ص 452 رقم 1400 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 5ص342

ويمتد هذا التأصيل القرآني ليشيد ركيزة اقتصادية وتشريعية بالغة الأهمية ، **إن السلع والخدمات – وإن كانت مدعومة من الدولة – لا ينبغي أن تُنال بالمجان المطلق**؛ فبذل المقابل المادي أو العيني يربأ بالمجتمعات عن الاتكال، ويحمي الأفراد من حبائل البطالة والخمول. وهي ذات الحكمة السياسة والرشادة الاقتصادية التي أدار بها نبي الله يوسف –عليه السلام– سنوات المحنة العجاف، فلم يوزع مخزون القمح هبةً تعطل الإنتاج، بل جعله مبادلةً عادلة بما يعود على بيت المال بالنفع، مع إحسانه لهم في الكيل والوفاء.

لقد أحسن أولئك القوم صنعاً حين بادروا بتقديم جزء من خراجهم لتمويل هذا السد العظيم؛ متحررين بوعيهم من ذل المسألة وعقدة الاتكالية، ومستلهمين – بيقين الفطرة – جوهر التوجيه النبوي الشريف الذي يعلي من شأن التعفف والاستغناء ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ ثَوْبَانُ "أَنَا" فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا)[1]. فعلي المسلمين أن يكونوا في عزمهم كـ "ثوبان" ، يبتغون حفظ كرامتهم وصون مجتمعهم بجهدهم وأموالهم.

قوله (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (95) كان يمكن أن يقول ما مكني فيه ربي كاف ، ولا حاجة لي بقوتكم ، ولكنه يعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فبالرغم من قوة ذي القرنين ، واستعانته بالله تعالى ، إلا أنه طلب منهم المعونة والقوة ، وذلك لعدة أمور منها ، أن الملوك ليست وظيفتهم تعمير الأرض لأهل لا يعملون ، بل على الشعوب التي تأمل أن تتحرر أن تعمل لأجل حريتها ، فالحرية تُستقطع ،ولا تُمنح ، فإذا لم تعمل الشعوب لأجل حريتها فلن يأتي من يحررها ، فالحرية لا تُمنح لأنها حق إنساني ، بل تسترد إذا سلبت ، وليس لأحد أن يمنح للإنسان حريته التي خلقه الله عليها ، فإذا اغتصبت فإنها تؤخذ بالقوة والمجاهدة والعمل لأجل التحرير واستردادها .

وفي قوله (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) ملحظ تربويٌّ يُمثّل أصلًا أصيلًا في فلسفة النهوض الحضاري، وسُنَّةً كونيَّةً في استرداد الحقوق وتحرير الشعوب يستوجب أن تقوم بنفخ كير الهمم لتحقيق سُنَّة المدافعة ، إذ لم يكن طلب ذي القرنين الإعانة منهم عجزًا عن البناء، وهو الذي طاف الأرض مشارق ومغارب، وآتاه الله من كل شيء سببًا. بل كان درسًا عبقريًّا في صناعة الإرادة، وإيقاظًا للشعوب المستكينة التي اعتادت العيش في ظلال الاتكالية.

إنَّ المصلحين الصادقين لم يأتوا ليكونوا أجراءَ عند شعبٍ خامل، يَبنون له الصروح وهو مُستلقٍ على قفاه؛ بل جاءوا لِيُعلّموا الأمم كيف تبني مصيرها بيدها. فالشعوب التي تركن إلى الخنوع، وتنتظر "مخلِّصًا" يهبها الحرية بلا ثمن، هي شعوبٌ لا تستحقها؛ لأن الحريَّة فريضةٌ تُستردُّ بالجهاد والمغالبة، وليست منحةً تُرجى في مواكب الصدقات .من أراد أن يتحرر من "يأجوج ومأجوج" العصر، فعليه أن يحمل مع المصلحين زُبَرَ الحديد، وينفخ في كير البناء، ويسكب قِطْر التضحية، فالحقُّ المغتصب لا يعود بالتمني، بل بالعمل والقوة.

إنَّ تحرر الشعوب لا يبدأ بذهاب المستعمر، بل بزوال (القابلية للاستعمار) من نفوس الشعوب، والخروج من مربع العطالة إلى مربع الفاعلية والعمل.

[1]) رواه أبو داود ج4 ص 452 رقم 1400 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج 5ص342

والأدلة الشرعية تؤكد أن تغيير الواقع مشروطٌ بحركة الأمة وعملها، وأن القوة هي سياج الحق ، نذكر منها ما يلي :-

قوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم) (الرعد: 11) ، وفي هذا قطعٌ للطريق على المتواكلين؛ فالنصر والتحرر يبدآن من حِراك الذات وتغيير العقلية المستسلمة.

قوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)(الأنفال: 60) ، فالحرية سياجها القوة، وذي القرنين طلب (قوة) الشعب كشريك في الإعداد والتمكين.

يقول النبي ﷺ (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) [1]، وفي هذا تشريعٌ صريحٌ بأن الحقوق والحرية والكرامة تُفتدى بالأرواح ولا تُطلب استجداءً.

وقد سار على هذا الفهم كثير من العلماء والحكماء والأدباء والمفكرين ، نذكر من أقوالهم :-

يقول ابن عاشور في تفسير قوله: "فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ" إشراكٌ لهم في العمل ليكونوا شُركاء في المصلحة، ولأنَّ العملَ إذا توزَّعتهُ الأيدي خَفَّ مؤونته، وفيه تدريبٌ لهم على الدِّفاع عن أنفسهم لئلا يعتادوا الاتِّكال على غيرهم.

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية : "الحقُّ لا بد له من قوةٍ تُظهره وتحميه، وإلا صار ضائعًا كدينٍ بلا سُلطان."

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟". مؤكدا أن الحرية أصلٌ خِلقي، فإذا سُلبت صار استردادها فريضة.

ويقول الشيخ محمد الغزالي :إنَّ الإسلام لا يعترف بالحرية التي تُعطى هبةً من الملوك أو الرؤساء، إنما يعترف بالحرية التي تنبع من إيمان الفرد بكرامته الإنسانية، ويذود عنها بحياته.

ويقول الأديب مصطفى صادق الرافعي: الحريةُ دمٌ يتدفق في العروق، فإذا جمدت العروق بالخنوع، لم يملك أحدٌ أن يصبَّ فيها الحرية من خارجها.

وقد استشهد السنوار قبل موته ببيت شعر لأحمد شوقي قائلا : -

وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ... بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

يرسخ أحمد شوقي حقيقة أزلية تخاطب كبرياء الشعوب ونضالها؛ ومفادها أن الحرية والاستقلال لا يُمنحان كهدية، ولا يُنالان بالتمني أو بالأساليب السلمية الواهنة، بل ثمنهما باهظ لا بد من دفعه من دماء الأحرار وتضحياتهم.

وقد وصَفَ الشاعر الحرية باللون "الأحمر" في استعارة موحية ومزلزلة؛ ليدل على أن طريق الانعتاق من قيود الظلم والاستعمار معبّد بالدماء الزكية، فالحرية لا تكتسي ثوبها الأبيض الناصع إلا بعد أن تمر بمرحلة الفداء والتضحية بالنفوس.

[1]) رواه الترمذي

وفي قوله "بكل يدٍ مضرجةٍ يُدقّ" :يصور الشاعر الحرية وكأنها قصر منيع مغلق، له باب ضخم لا يمكن فتحه أو ولوجه إلا عبر التضحية. والمفتاح الوحيد لهذا الباب ليس الكلمات أو الوعود، بل هو "الأيدي المضرجة" أي الأيدي الملطخة بالدماء التي تضرب الباب وتدقه حتى ينكسر ويفتح ، فالباب يفتح نتيجة الناتجة للكفاح والمقاومة ضد الظالم. ولو كانت طرقات بأيدي ملطخة بالدماء منهكة من الضعف .

قوله (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (96) هنا يظهر دور العلم في إقامة السد الذي حما البشرية من شر هؤلاء القوم طيلة قرون من الزمان ، باختراع سبيكة معدنية مصهورة من النحاس والحديد المذاب ، ليتكون الفولاذ ليصير السد صلدًا لا يُنقب، ومصقولًا أملسَ لا يُرتقى.



قَوْلِهِ (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) وَاحِدُهَا زُبْرَةٌ وَهِيَ الْقِطَعُ (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ " الصَّدَفَيْنِ ":"الْجَبَلَيْنِ"

قوله (قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)أَصْبُبْ عَلَيْهِ رَصَاصًا وَيُقَالُ الْحَدِيدُ وَيُقَالُ الصُّفْرُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ النُّحَاسُ)[1] .

قوله (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (97) قال البخاري في قوله (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أي يَعْلُوهُ اسْتَطَاعَ اسْتَفْعَلَ مِنْ أَطَعْتُ لَهُ فَلِذَلِكَ فُتِحَ أَسْطَاعَ يَسْطِيعُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ اسْتَطَاعَ يَسْتَطِيعُ)[2]

وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّدِّ قَالَ (يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى قَالَ فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَخْرِقُونَهُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَقُونَ الْمِيَاهَ وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ فِي السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدِّمَاءِ فَيَقُولُونَ قَهَرْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ قَسْوَةً وَعُلُوًّا فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَهْلِكُونَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ تَسْمَنُ وَتَبْطَرُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ)[3]

[1]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[2]) رواه البخاري ج11 ص 132
[3]) رواه الترمذي ج10 ص 428 رقم 3078

قوله (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) أي أن هذا السد والردم الذي على يأجوج ومأجوج منع كثير من الشر أن يؤذي الناس ، روي أن النَّبِيِّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً قِيلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[1]

وعن زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأجُوجَ مِثْلُ هذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[2]

قال العلماء (وإنما خص العرب بالذكر لأنهم أول من دخل في الإسلام والإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع)[3]، (والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة كما وقع في الحديث الآخر يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها) [4] ، أي أن مقتل عثمان أول فتنتهم , وخروج يأجوج ومأجوج آخر فتنتهم ، وبين الفتنتين تتوالى المصائب والنوازل ، لكن من رحمة الله تعالى أن جعل فتنة يأجوج ومأجوج آخر الزمان وكعلامة من علامات الساعة الكبرى .

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (98) جعله دكاء قال البخاري (أَلْزَقَهُ بِالْأَرْضِ)[5]، أي هُدِم السد وسوي بالأرض ، قال الطبري (يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم ، جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض)[6] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تفتح يأجوج و مأجوج يخرجون على الناس كما قال الله تعالى : (من كل حدب ينسلون) فيبعثون في الأرض **وينحاز المسلمون إلى مدائنهم وحصونهم** ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول لقد كان هاهنا ماء مرة **حتى إذا لم يبق من الناس أحد** إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع مخضبة دما للبلاء و الفتنة فينما هم على ذلك **بعث الله عليهم دودا في أعناقهم** كالنغف فيخرج في أعناقهم فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا بنفسه فينظر ما فعل هذا العدو قال : ثم يتجرد رجل منهم لذلك محتسبا بنفسه قد وطنها بنفسه على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي : يا **معشر المسلمين أبشروا فإن الله قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم و حصونهم ويسرحون مواشيهم** فما يكون لها رعي إلا لحومهم فتشكر عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من نبات أصابته قط)[7]

---

[1]) رواه البخاري ج21 ص 449 رقم 6535
[2]) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج1 ص 908
[3]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 11 ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج35 ص 115
[4]) فتح الباري لابن حجر ج13 ص 107
[5]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[6]) تفسير الطبري ج18 ص 118
[7]) رواه الحاكم ج4 ص 535 رقم 8504

تتمة المحور الرابع

أحداث الساعة

قال تعالى (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)

قوله (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (98) ارتباط ظهور قوم يأجوج ومأجوج بوعد الله هو إظهار لآياته آخر الزمان بعد أن يكذب الناس بالله وآياته ورسله ، فيظهر لهم مثل هذه الآيات ليؤوب الناس إلى الإيمان بالله تعالى بعد أن أخبر عنها القرآن من آلاف السنين ، فإذا رأوها حري بهم أن يؤمنوا بعد أن عُزلوا عن البلاغ وصدوا عن السبيل ، كهؤلاء القوم الذين لا يفقهون قولا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّمَ هُوَ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ)[1]، وقيل (**يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم عامرة ، وهي خراب من الهدى**) [2]

وبالرغم من كل **هذه الفتن فإنها تمر ويسلم منها أهل الحق** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ **الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**)[3] ، كما أخبر النبي ﷺ أنه بعد فتنة يأجوج ومأجوج سوف تعود الحياة إلى سابق عهدها ، وسوف يخرج الناس للحج ،وهم في أمن وأمان ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**)[4] .

قوله (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) (99) قيل يختلط العالمان الإنس بالجن ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،" وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ" ، قَالَ: الجِنّ والإِنْس، يموج بعضهم في بعض[5]، قال الزمخشري (أي يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج ، وأنهم يموجون حين يخرجون من وراء السدّ مزدحمين في البلاد ، وروي : يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر ، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون)[6].

---

[1]) رواه البخاري ج21 ص 452 رقم 6537
[2]) ضعفه الألباني في : مشكاة المصابيح ج1 ص 59 رقم 279 السلسلة الضعيفة ج4ص410
[3]) رواه الترمذي ج8 ص 215 رقم 2186 وصححه الألباني صحيح الترمذي ج 5 ص 260 رقم 2260
[4]) رواه البخاري ج6 ص 8 رقم 1490
[5]) تفسير ابن ابي حاتم ج9 ص 241
[6]) الكشاف ج4 ص 53

والحديث يشير **إلى قوة زخم يأجوج ومأجوج** حتى أن عيسى ابن مريم الذي يمكنه الله من قتل الدجال لا يقدر عليهم بل يتحصن منهم مثل سائر الناس

فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، وذكر أن عيسى ابن مريم سوف يَقْتُلُهُ ، ثم قال (يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى **إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ** ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ – ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَقُولُونَ لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا [1]– **وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ** حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ **فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ** نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ** فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ **ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ** فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَيْ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ)[2] .

قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) (99) ناسب ذكر الساعة وعلامة قيامها بعد ذكر خروج يأجوج ومأجوج باعتبار خروجهم بعد خروج الدخال من آخر علامات الساعة الكبرى ، وبعدها ينفخ في الصور نفخة الصعقة قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (الزمر/68) أي أن هناك نفخة أخرى بعد نفخة الصعق ، وهي نفخة البعث ، ثم يجمع الناس جمعا

قال ابن عاشور (في هذا **تخلص من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة)** [3]

قوله (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) (100) أخبر النبي ﷺ أن أكثر بعث النار من قوم يأجوج ومأجوج وليس بني آدم ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ **وَمَا بَعْثُ النَّارِ** قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ **(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ أَبْشِرُوا **فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا** ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا

1) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَ مَا ذَكَرْنَا وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ (لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ)
[2]) رواه مسلم ج14 ص 167 رقم 5228
[3]) التحرير والتنوير ج15 ص 138

فَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا فَقَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا فَقَالَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ)[1] .

قوله (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) (101) ونظير ذلك قوله تعالى: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُون) (هود) ، قال الرازي (والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق)[2] ، قال القاسمي وفي ذلك (تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها ، ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى)[3] .

قوله (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) (102) يقرع العقول بإنكار توبيخي حاسم؛ فكيف يظن الجاحدون أن المربوبين يصلحون أربابًا؟ إن كل ما عُبد من دون الله — ملائكةً كانوا كرامًا، أو أنبياء كعيسى عليه السلام، أو شياطين مضلين، أو حتى شهوات وأنفسًا أمارة — ليسوا سوى عباد خاضعين لقهره، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا. لقد عقد المشركون لواء الولاية لسراب زائل، واستمسكوا بخيوط واهية من دون حبل الله المتين

ويصور السياق مآل هذا الاستمساك الواهي؛ فبينما هم يتشبثون بـ "حبال" غير الله، تندفع جهنم تحتهم كهاوية سحيقة لا قرار لها، أُعدت خصيصًا لتهوي بكل من اتخذ غير الله وليًا. وفي لحظة السقوط، تنقطع تلك الحبال الزائفة، ولا يبقى إلا حبل الله الذي نبذوه، فيتردون في قعر الحفرة بلا ناصر ولا مجير. ويأتي قوله تعالى "نُزُلًا" بتهكم إلهي لاذع؛ إذ جعل جهنم — وهي دار العذاب المقيم — بمثابة "الضيافة الأولى" التي يتلقاها القادمون، ليكون أول طعامهم وشرابهم ومنزلهم هو النار .

هذا المشهد التصويري ليس مجرد وعيد، بل هو تمهيد محكم للرد على مجادلي أهل الكتاب وخصوم الدعوة الذين نزلت السورة لدحض شبهاتهم، فجاءت الآية لتقطع دابر جدلهم وتكشف زيف معتقداتهم قبل تفصيل محاججتهم .

قوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (104) في ذلك توبيخ للضالين من أهل الكتاب الذي اتخذوا الجدال مع النبي ﷺ منهجا عند محاورته ، فلم ينصاعوا للحق ، بل أعموا أنفسهم عنه

فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبِي " قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا" هُمْ الْحَرُورِيَّةُ قَالَ لَا ، هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ ، وَالْحَرُورِيَّةُ (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمْ الْفَاسِقِينَ)[4] ، وفي رواية عن مصعب قال (لا ولكنهم أصحاب الصوامع ، والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم)[5] ، وعن علي (هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع)[6] .

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 135 رقم 3099
[2]) تفسير الفخر الرازي ج1 صث 2948
[3]) محاسن التأويل : تفسير القاسمي
[4]) رواه البخاري ج14 ص 353 رقم 4359
[5]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 401 رقم 3400
[6]) تفسير الطبري ج18 ص 126

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (105) تمتد جذور اللفظ اللغوي لـ "الحبوط" لتكشف عن صورة حسية بالغة العمق؛ فهو في أصله "انتفاخ بطن الدابة وتهلكتها حين تسرف في الرعي وتفرط في التضلع من مرعى وبيل"[1]، وهو التوصيف الذي استلهمه صاحب الظلال ليرسم به مآل تلك الإنجازات الدنيوية الجوفاء التي تنتفخ في عيون أصحابها وراء سراب النجاح الزائف، قبل أن تنتهي إلى بوار مطلق وعقم دميم. [2]

هذا التشبيه البليغ يختزل مشهد النهم المادي وسعار الشهوات الذي يستبد بهؤلاء في دنياهم، حتّى كأنهم في لهثهم وراء المتعة الفانية يُحاكون جموح يأجوج ومأجوج في الأرض، إذ حرموا أنفسهم من سكينة "غنى النفس" التي يفيء إليها قلب المؤمن بربه، وتأتي النبوءة المحمدية لتكمل ملامح هذا المشهد التهكمي المروع، حيث يخبرنا الرسول ﷺ أنه (ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة) وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) [3]. محيلاً ذلك التضخم الجسدي والدنيوي الزائف إلى هباء لا قيمة له ولا وزن.

وفي قوله (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) (106) جاء ذكر هذا الجزاء تعليلاً عادلاً لما أسلفوه في دنياهم من استكبار واستهزاء؛ فلم تكن مجادلتهم للنبي ﷺ ولآيات الله يوماً طلباً للهداية أو استجلاءً للحقيقة، وإنما كانت محض سخرية ومراء، بعد أن أعمى الطمع قلوبهم، وغدت الدنيا هي شغلهم الشاغل، وغايتهم التي لا غاية وراءها، فحق عليهم العقاب من جنس العمل.

---

[1]) انظر الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ج19 ص 193
[2]) في ظلال القرآن ج5 ص 83
[3]) رواه البخاري ج14 ص 355 رقم 4360

خاتمة سورة الكهف

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

عادت السورة في خاتمتها لذكر عباد الله المؤمنين، كما افتتحت بالحمد على نعمة إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ فقد قررت الخاتمة جزاء المؤمنين في منازل الكرامة ومستقرّ الرحمة؛ حيث تفتحت أبواب "جنات الفردوس" نزلاً وضيافةً لأهل الإيمان والعمل الصالح، في خلودٍ سرمدي لا يعتريه ملل، وإقامةٍ فاخرة لا يبغي عنها الصالحون تحولاً ولا بدلاً.

وهكذا نرى وراء الدنيا آخرة، ووراء تقدير العبد تقدير الخالق. فلو كانت بحار الأرض حبرًا تُسطر به الكلمات، لنفدت البحار قبل أن تنفد كلمات الله، التي تكشف لنا عن قدره الذي لا ينتهي، وأمره الكوني الذي لا ينفد، وتدبيره لكل شيء بحكمة وبلا حدود.

ولو أكثر الناسُ جدالاً مع رسلهم لقعدوا عن العمل بما جاء به الرسول، ولفاتهم كثير من علم الوحي الذي وجب عليهم أن يتعلموه، ولتعطلت العبادة. فمن كان يرجو بحق لقاء الله في الآخرة، فليجتهد في العمل الصالح بإخلاص، وليدعِ الجدال وكثرة السؤال الذي لا يُبنى عليه عمل.

قوله (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) (107) تتضح المقابلة البلاغية في لفظة " نُزُلًا" في هذا السياق الذي استعمل أول مرة في السورة في موضع التهكم ممن اتخذ من دون الله أولياء كما في قوله سبحانه(إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) ، بينما سيق هذا اللفظ في هذه الآية للحديث عن مثوى المؤمنين؛ أولئك الذين صبروا على دينهم، وتجاوزوا بنجاح الفتن المختلفة التي ألمحت إليها سورة الكهف (كفتنة الدين والأهل، وفتنة المال وزينة الدنيا، وفتنة العلم، وفتنة السلطة والجهاد، وصولاً إلى فتن أواخر الزمان كالدجال ويأجوج ومأجوج)، فكافأهم الله عز وجل بأن أعدّ لهم جنات الفردوس نُزُلاً وضيافة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى فضل جنة الفردوس ومكانتها فقال (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[1]

كما يتضح تعدد درجات الجنة وعلو شأن الفردوس في حديث أُمّ حَارِثَةَ رضي الله عنها، حين أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعد أن اسْتُشْهِدَ ابنها حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ بِسَهْمٍ طَائِشٍ (غَرْبُ سَهْمٍ)، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ

[1]) رواه البخاري ج22 ص 433 رقم 6873

قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ! فَقَالَ لَهَا ﷺ مُطَمْئِناً» :هَبِلْتِ! (أَيْ وَيْحَكِ تَعَجُّباً)، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى) [1].

وفي بيان معنى "الفردوس"، يقول الإمام ابن القيم (والفردوس اسمٌ يُقال على جميع الجنة، ويُقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات. وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين).

وقد تتبع العلماء أصل الكلمة واستعمالها عند العرب كالتالي:-

قال كعب :هو البستان الذي فيه الأعناب.

وقال الليث :الفردوس جنة ذات كروم، ويقال: كرمٌ مفردسٌ؛ أي: معرَّش.

وقال الضحاك :هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو ما اختاره المبرّد حيث قال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب هو الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس) [2].

من هنا يتضح البون الشاسع بين من يهوي في جهنم ، ومن أعد الله لهم جنات الفردوس ينزل فيها نزلا يليق بأهل النعيم والترف . فالإشارة إلى الفردوس هي إشارة إلى علو الهمة والاستزاد من الأعمال الصالحة والمجاهدة والصبر في العبادة ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ) [3].

في قوله (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) (108) إشارةٌ إلى كمال الرضا والسعادة؛ فنعميها لا يعرف الركود، وأحوال أهلها لا تبدل فيها إلا إلى **الأكمل والأجمل** .هو خلودٌ يزدهر فيه النعيم ويتجدد، وتترقى فيه الهيئات إلى الأحسن دائمًا، فلا تطمح نفوسهم إلى سواها.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا فَيَقُولُونَ وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا) [4].

قوله (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (109) كناية عن سعة علم الله تعالى ، وتأكيد على أن المطلوب هو الاكتفاء بما أنزله الله تعالى من "وحي" ، ففي القرآن الكريم ما يغني الناس عن السؤال عن غير ذلك

تتجلى كمال العظمة الإلهية، وهي كناية بليغة عن سعة علم الله سبحانه وجلال صفاته التي لا يحيط بها حصر .

والمقصود من هذا البيان هو توجيه العباد للاكتفاء بما أنزله سبحانه من وحي حكيم؛ ففي القرآن الكريم غنية وكفاية تمنع الناس من التكلف والبحث عما وراءه.

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 231 رقم 6082

[2]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 50

[3]) رواه الترمذي ج9 ص 75 رقم 2454 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 30 رقم 2531

[4]) رواه مسلم ج13 ص 465 رقم 5061

وقد انضبطت الشريعة بقواعد واضحة ترفع الحرج عن المكلفين:

الأوامر :واجبة العمل والامتثال.

النواهي :واجبة الترك والاجتناب.

المسكوت عنه :عفوٌ ورحمة من الله وتوسعة على العباد.

لذا، فإن تطلب تفاصيل لم يأتِ بها النص يُعدّ خروجاً عن مقصود الشريعة، ويوقع المكلفين في العنت والمشقة. مصداق ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ قال :(**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**). [1]

ومن هذا المنطلق الحكيم، طوى القرآن الكريم تفاصيل القصص التي لا ينبني عليها عمل؛ فلم يفصل في عدد أصحاب الكهف ولا مدة لبثهم الدقيقة، كما لم يذكر نسب ذي القرنين ولا تحديد مساره الجغرافي بدقة، بل اقتصر السياق على مواضع العِبرة والفائدة الفقهية والتربوية.

وحتى الأنبياء لم يُكلفوا بما ليس من شأنهم؛ فنبي الله موسى عليه السلام حين طلب الاستزادة من علمٍ لم يُكلَّف به، أصابه المشهد بالعنت والمشقة ولم يستطع عليه صبراً. لذلك كان من هدي النبي ﷺ الاستعاذة من ترف العلم الذي لا ينعكس عملاً، فيقول :(**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**) [2]؛ فعلم الخضر كان خاصاً به نافعاً له، ولم يكن واجباً على موسى تعلمه، فالخلق مجبولون على مقاصد وغايات شتى، و**"كلٌّ ميسر لما خُلق له.**"

قوله (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (110) هذا التلقين بمثابة رد ختامي على المجادلين من أهل الكتاب جاء في خاتمة السورة لتتجلى منه توجيهات ربانية تلخص جوهر الرسالة المحمدية، وتضع حداً لجدل المجادلين من أهل الكتاب وغيرهم ممن استنزفوا طاقات المناظرين بكثرة الأسئلة العميقة والسطحية التي لا ينبني عليها عمل.

مقررا أن وظيفته تتلخص في بلاغ ما أوحي الله له به ، وأن مضمون ما يوحى إليه هو تذكيرهم بتوحيد الإله ، مؤكدا على أن لقاء الله حق .

وهنا تأت المناسبة بأن يرهن الله تعالى لقاءه لأولياءه بالسعي للعمل الصالح بصدق وإخلاص ، فأعمال الآخرة هي التي تدفع المؤمن إلى السعي لمزيد من الدنيا دون التفات لهذه الدنيا الفانية ، ومن هنا يتجلى مسار الصادقين الموقنين بلقاء الله ، بحيث يسير عمل القلب مع عمل البدن في مسارين متوازيين لجهة واحدة ، فلا ينفكان عن بعضهما لضمان قبول أي جهد ، وهما :-

- صلاح العمل :بأن يكون موافقاً للقرآن والسنة.
- إخلاص النية :بأن يُفرد الله وحده بالقصد، متجاوزاً شوائب الشرك الخفي كالرياء وطلب السمعة.

ويؤكد هذا التلازم التربوي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال : يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال رسول الله ﷺ (لا أجر له) فأعظم الناس ذلك فعاد الرجل فقال (لا أجر له)[3].

---

[1]) رواه البخاري ج22 ص 257 رقم 6745

[2]) رواه مسلم ج13 ص 251 رقم 4899

[3]) رواه الحاكم ج2 ص 403 رقم 3404 وقال الذهبي في التلخيص صحيح

وهو ما أدهش الحاضرين لعِظم الأمر؛ ليرسخ في النفوس أن الأعمال المتقبلة هي الصالحة بموافقة الشرع وبصلاح المقاصد لا بظاهر المشاهد، وأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً خالصاً لوجهه الكريم.

الفهرس

من عزلة المرتفقين إلى تمكين ذي القرنين : 1
تمهـــــــــــــــــــــــــــيد :- 2
محاور سورة الكهف 3
مقدمة سورة الكهف 4
(الكتاب قيما) و(الأرض زينة) 4
المحور الأول 14
المحور الأول 14
قصة أصحاب الكهف 14
الفصل الأول من قصة أصحاب الكهف 15
فرار الفتية إلى الكهف بدينهم واعتزالهم قومهم 15
الفصل الثاني من قصة أهل الكهف 27
لطف الله بأهل الكهف 27
الفصل الثالث من قصة أهل الكهف 42
الحكمة من العثور على أهل الكهف 42
الفصل الرابع 53
التعقيب على قصة أصحاب الكهف 53
المحور الثاني 61
قصة صاحب الجنتين 61
تتمة المحور الثاني 84
تهوين الحياة الدنيا وتعظيم أحداث الآخرة 84
باقي تتمة المحور الثاني 93
الإعراض عن التذكرة 93
المحور الثالث 99
قصة موسى والخضر 99
المحور الرابع 129
قصة ذي القرنين 129
تتمة المحور الرابع 144
أحداث الساعة 144
خاتمة سورة الكهف 148